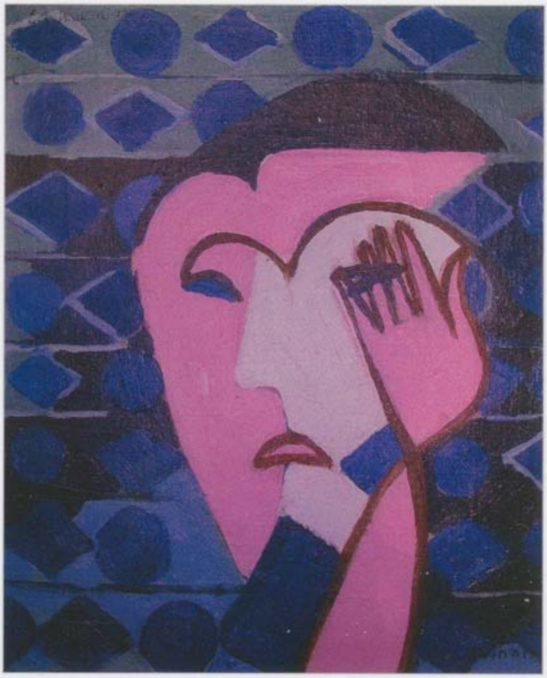
مركز دراسات الوحدة العربية

أم حامد

رواية



مصطفى الفيلالي

مركز دراسات الوحدة العربية

أم حامد

رواية

مصطفى الفيلالي

أم حامد

الفهرسة أثناء النشر - إعداد مركز دراسات الوحدة العربية

الفيلالي، مصطفى

أم حامد (رواية)/ مصطفى الفيلالي.

١٩٢ ص.

ISBN 978-9953-82-708-7

١ . القصص العربية - تونس. أ. العنوان

892.73

العنوان بالإنكليزية

Umm Hamed

By Mustapha El-Filaly

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة
عن اتجاهات يتبناها مركز دراسات الوحدة العربية

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣

الحمراء - بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ - لبنان

تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ (٩٦١١+)

برقياً: «مرعربي» - بيروت

فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (٩٦١١+)

email: info@caus.org.lb

Web Site: <http://www.caus.org.lb>

الطبعة الأولى

بيروت، آذار/ مارس ٢٠١٥

مصدر صورة الغلاف: Ernst Ludwig Kirchner, Trauriger Frauenkopf, von -1928/1929

دخل البيتَ عائداً من السوق، الخُرْجُ بيمينه والقفّة بيساره راجحةٌ، وفي عينيه بريقُ الفرحة، وعلى أسارير الوجهِ كمثل ضياءِ النصر. فنهضَتْ إليه وخَفَّت مستقبلةً، يتخفف لها بالقفّة وما بها من لحم وتاي وسكر وخُضَر. فبادرَته:

- على سلامتِكَ يا حاج! النفقة في القفة بشائرُ خير. ما هو الخبر؟

- قال: أبْشِري، يا بنت المؤدِّب. نجح، ولدُنا نجح. بالهاتف بشّرني أخوكِ الحاكم هذا الصباح. الحمد لله، نزل الحمل من على ظهري. ولدي رجل؛ سيد الرجالة. نسْل أبيه.

- قالت والابتسامة تنفتح بالثغر: ولدك أنت وحدك. جئتَ به في القفة من السوق... هو قطعة من كبدي. يفديني من نكد أعوام الفرقة.

- قال: (ونزَع الجبَّة، صاعداً إلى فراشه بالسُّدَّة، يُفرغ ما بالخُرج من مال ودفاتر يحفظها في الخزانة بأعلى المضجع) هاتي شربةً من القربة تبرِّد الجواجي. من الفرحة نسيتُ العطش طول الطريق من الحانوت.

تركَتْه مع المشرب وخفَّت إلى حجرة الخضيرية؛ ليس لها من سريرة غيرها بين نساء الحوش. قالت وهي تلقاها على العتبة تستفسر:

- الحمد لله، يا أخيَّة، وليدنا نجح. بشرني الحاج منذ حين...

- قالت الخضيرية وهي تعانق عيشة البية: هاتي البشارة، ألم أقل لك من البارحة إن ولدنا - لا يخيِّب الله رجاءنا فيه - فحْلٌ، ولدُ أمِّه.

- قالت عيشة: ووليدكِ أنتِ أيضاً. أنت عنده غالية، أميرة هذا الحوش. إذا عاد للصيف يقضيه معنا، نصف وقته بحجرتك يمازحك بكلام البلدية.

- سألت الخضيرية: متى نفرح بالعودة؟

- قالت الأم: كل ساعةٍ عندي بِشهر، قبل أن أرى خياله، أضمُّه إلى صدري يمسح جراحَ الوحشة.

- الخضيرية: الحي بعد طول غياب يرجع لوكرِه، أما الذي ضمَّت عليه اللحود... ولكن سامحيني يا عيشة؛ القلب بقعته ضيقة.

- عيشة: لا عليكِ يا أمَّ البشير، فرحتنا اليوم كحزننا منذ عام، قسمة بيننا من رزق الأقدار.

بلغها صوت الحاج ينادي: يا بنت المؤدِّب. أعطيني ماء الوضوء. فأسرعت إلى الجرّة تملأ منها.

دخل محمود عائداً من سانية الزيتون، والمسحة على كتفه فوق القميص الأغبر، فقال يسأل:

- ما هو الخبر؟ الزعيم ولد أمِّه نجح أم ردّوه للعام المقبل؟

- الخضيرية: صلِّ على النبي يا ولد رمضانة. أخوكَ ربح الشهادة.

- محمود (ساخراً): أنتِ فرحانة مع بنت المؤدِّب. الشهادة نفعل بها ماذا في هذا البَر المنكود؟ كم يجلب لنا من مال مقابل ما أنفقنا عليه من خرفان ومطامير قمح؟

- الخضيرية: يا مجنون! بالشهادة يمكن أن يصبح شيخ تراب أو حتى خليفة. شهادة كبيرة مثل الشهادة التي لم تنجح فيها أنت من جامع الزيتونة.

- محمود: ها هي الخرافة تعود. أنا لم أنجح؛ صحيح. لم يكن لي في تونس خالٌ يرعاني، ولا زوجة تطبخ طعامي وتغسل قميصي وترقع جرابي. عشت عامين مهجوراً بمدرسة العاشورية في ضِيقِ حجرةٍ كالقبر، فوق سُدَّتها فراشي، وخلف بابها صندوق القدر وقارورة الزيت وموقد الغاز، وفي الميضة حوض لغسل الجبة والسروال... ومع هذا كله تريدون مني أن أحفظ ألفية ابن مالك وأحكام سيدي خليل!

- الخضيرية: هؤلاء أصحابك في الجامع.

- محمود: اسكتي يا وليَّة. هي أسماء الكتب، أقرأها على شيوخ الزيتونة، حِفظُها أصعب بكثير من كراريس ولد عيشة، ننفق عليه من عرق الجبين أعواماً طويلة.

- قالت عيشة وقد سمعَتْ كلام محمود: خالُه هو الذي كان ينفق على تعليم أخيك حامد... طعامه وفراشه وكسوته ودفاتر الدروس، طهِّر قلبك يا محمود، هو أخوك، ونجاحه فرحتنا جميعاً في هذا الحوش، ومنفعة الشهادة لا تقاس بالفلوس...

أمسَكَ محمود، لا يحب أن يجادل زوجة أبيه، بنت المؤدِّب المثناني، وقد أحاطت نفسَها بجلبابٍ من وقارٍ مشهود، وتميزت بين نسوة البيت بما زوَّدها أبوها من ربع ياسين، تتلو منه عَقب ركعات الفجر، وعند كل ملمَّة تفزع فيها إلى صاحب الغيب والتنزيل.

عادت إلى مكان الحاج، ولا يزال على زربية العصر، متربعاً يُحمدلُ بالذكر.

- قالت: اللحم، أشوي لك منه على الكانون أم أطبخه في الكسكسي كله؟

- قال: ما شئتِ، يوم الجمعة أذبح اثنين من الخرفان أو حتى ثلاثة، فور العودة مع حامد. ونجعلها وليمة عرس، أدعو إليها العدل ولد الصدار، وأخي الحاج صادق والشيخ العمراني، وحتى المؤدّب والدك إن رضي أن يترك الجامع ويركب إلينا، وأسهم من اللحم الحراثة وسارح الغنم...

- قالت: هذه قِصاعٌ كثيرة، سأدعو البنات لمساعدتي على الرحي والبرمة.

- قال: لك ما شئتِ يا أم حامد. أحب أن تغمر الفرحة أهلنا وأجوارنا بهذا الحي. يجتمعون حولنا. أفتخر بابني فارس أولاد الصادقية. هو ولد الحاج عبد الله، اعلموا يا ناس، غداً يكون له في البلد شأن وأي شأن، خليفة أو حتى قائد.

- قالت: لكَ أن تفرح بابننا وأن تفخر. متى تبشرني بعودته للدار؟

- قال: غداً أركب إلى تونس، وبعد يومين أو ثلاثة تفرحين بوليدنا يا أم حامد.

- قالت (مبتسمة): اسم جديد تنادي به زوجك منذ اليوم، أم حامد، بدلاً من بنت المؤدِّب. وأراني مثلك أفضل هذا الاسم وأفخر به. ولا أعيش إلا لحامد، هو حرزي وبسمة الفرج اليوم وغدوة.

- قال: هو اعتزازي وفخري بين الناس، أطيب ثمرات العِشرة بيننا يا أم حامد.

هرولَت إلى المطبخ تخفي دموع غبطة غمرَت الصدر، تُنفس عليه من غم دفين. يا إلهي لك الحمد على فرحة انتظرتها منذ دهر. اجعلها يا ربي دواء البرء لجرح الأنكاد، يا إلهي أتوسل إليك أن تحفظ حامد من العثرات، وان ترعاه بعين الرضى.

أقبلت أم حامد على الموقد؛ تسرج صريع الزيتون فوق جمرات الفحم. واندفع من الموقد لسان لهب أشاع من حولها ضياء وعلى أسارير الوجه وفي دخيلة النفس. وبكرت من الغد تُصلح للحاج جفنة من عصيدة السميد، إشارة خفيّة منها إلى ولادة فجر جديد.

ركب الحاج إلى محطة الأرتال قاصداً تونس، وشيَّعته عيشة البية إلى ظهر الثنية. وقلبها يخفق مع كل رنّةٍ من ناقوس البغلة.

بكرت أم حامد صباح يومها الثاني، ترتجف من حنين وتتماسك من إشفاق. فتوجهت إلى حجرة الخضيرية تبثها. وقد سألتها:

- أصبحتِ مكفهرَّة الملامح يا عيشة. هل حدث بينك وبين الحاج نكد. لقد خبِرته قبلك عمراً طويلاً. ليس له مع الانشراح عِشرة. عبوسٌ ملول، كأنما خُلق لينفخ على شموع الفرحة.

- عيشة: لا، ليس من الحاج نكدي هذا الصباح. ما نمت ليلتي إلى ركعات الفجر. أخذتني بعدها هجعة فزعت فيها من هلع، ما طرقني مثله من قبل.

- الخضيرية: بعيد الشر، يا بنت المؤدِّب، ما أمرك، قد حيَّرْتِني؟

- عيشة: رأيت رؤيا فزعت فيها من نذير شؤم بعد تهليل الفرحة.

- الخضيرية: أفي مثل عمرك وعمري تنخلع الرؤيا؟ إن هي إلا أوهام. موجة الفرحة غمرتنا طول يومنا وليلِه بالأمس، ونحن قد عودتنا الأيام الكفاف والاقتصاد حتى في الفرح، كأنما خُلقنا للعسر والإنكاد.

- عيشة: صدقتِ. ما كنت أقدر أن أضم على الفرحة هذه المرة. نعمة يتيمة خصَّني الله وإياكِ بنجاح حامد. ولكني فزعت من انقلاب النجاح نكسةً.

- الخضيرية: وما أنبأك أن النجاح ينقلب...؟ ولكن خبريني بما رأيتِ.

- عيشة: حصان أبيض، رأيته يركض براكبه حامد، ويعثر فيهْوي من ظهره إلى صخرة في السفح.

- الخضيرية: أراكِ قد أصابكِ هذيان... من قلة النوم وشدة الترقب، ونفاد الصبر. هلّا فزعتِ إلى آيات الكرسي؟

- عيشة: قرأتها عشراً، ومرتين سورة ياسين، وما برحَ الحصان تعثر حوافره ويلقي بفارسه على السفح. لا يوقفه ترتيلٌ ولا دعاء.

- الخضيرية: قصّي رؤياكِ فتُنفِّسي من روعك.

- عيشة: رأيتُه على ظهر حصان أبيض ناصع الوبر، مغروساً قرب عنق الدابة، بلا سرجٍ ولا لجام، وذراعُه إلى ناصية الحصان، ويداه ممتلئتان من سبيب العنق؛ ويركض الحصان ويركض، وكبدي يلهث وراءه. واستقبلتُه راجية أن يُردِفَني على الكفل، ويبتسم مهللاً ولا يلوي. وصرخت أناديه: ساعد يا وليدي. وفجأة انبعثت من الصدر صرخة كالعويل، أيقظتني من نومي وقد رأيت الحصان تَعثُر حوافره ويُلقي بحامد على سفح صخرة ملساء...

- الخضيرية: لكل حافر مع الأيام عثرة يا عيشة. هيا دعيكِ من أوهام حلم هو من عصارة الوجد وبنات الخيال.

- عيشة: يحدثني القلب أن الرؤيا أصدق من تصاوير الخيال. فوز حامد بالشهادة ملأ قلبي انشراحاً. تمثل في نومي حصاناً، لا كواحد من خيل الركوب والمحراث. قوائمه كأعتاق نخل شاهق، وبره أنصع من بياض الحرام الجريدي، ناصِيته كخصلة شعر أجعد بين عينين كالشهاب، ساهمين إلى الأفق البعيد، والكفل مكتنز والذيل سبيبه منشور خلفه كغمامة

سحاب. رأيته يقفز، لا تُلامس حوافره حجر الثنية؛ يسبح في فضاء أعلى من خروبة السفح، وأبعد من سطوح الديار صوب غار الحمام... ووجهُ حامد صفيحة فارس يتلألأ بضياء النصر.

- الحضيرية: حامد عائد لنا غداً أو بعد غد، وستفرحين به وتُنسيك بسمته خرافة حصانك المجنَّح.

- عيشة: جرَّبت من الدنيا أنه لا دوام لي مع فرحة أفرحها. انشراح يوم أو بعض يوم، ثم تهبُّ غيمة الفشل، فينسدل الستار على الوحشة. يا إله الرحمة لا تخيِّب رجائي ولا تكدِّر فرحتي.

- الخضيرية: أهذا كلام منكِ وأنت ما زلت تواسيني به من قرآن «مع العسر يُسرا»؟ احمدي مولاك. يا عيشة ابنُك حي يرزق، وعائد لنا بشهادة النصر.

- عيشة: سلسلة أنكادٍ كابدتها في ابني حامد مذ ولدته. تعلمين ذلك يا أُخيّة. محنة مرض الحصبة وهو صبي ابن الخمسة أعوام، ولا طبيبَ قريبٌ ولا مغيثٌ، والحاج غائب. فزعت به إلى الثنية الظهراوية نحو محطة الأرتال في هلعٍ كالجنون. لقيني فارس عابر إلى السوق، والصبي بين ذراعيَّ في خمار أحمر، فسألني: ما بك يا وليّة وهذا الصبي؟ قلت: ولدي يموت. قال: ما علّته؟ قلت: الحصبة: قال: أغلفيه بزيت نضوح واقرئي عليه ما تيسر من الكتاب. وما انتهت المحنة حتى كانت أختها. فأخذوه من بين أحضاني إلى دار الإمام في القرية، يُحَفِّظه قِصار السوَر، ولا يزورني هنا غير يوم وليلة في الشهر.

- الخضيرية: كان يومئذ في رعاية أمك الصالحة، ووالدك مؤدِّب القرية. هما أرعى له منا في مراحات الزيتون والسدر.

- عيشة: والمجنة الثالثة أشد وقعاً، يوم جاء خالُه من تونس واتفق مع المؤدّب أن يختطف كبدي إلى المدينة ليقرأ في المدرسة.

- الخضيرية: وهذه الأخرى لا حقّ لكِ أن يُحزنَكِ فراقُ ابنِك، وهو في بيت أخيك، رئيس محكمة الدربية، يسهر على تربيته بأفضل مما نقدر عليه.

- صرخَت أمُّ حامد، على غير عادتها: أوليس فراقاً آخر، بعد فراقٍ وغياب، وأنا هنا بهذا الحوش الخاوي، مع قلبي الخاوي وأيامي الفارغة، أعيش بالتمني، وأعمر الليالي بالابتهال، وأُشغل القلب بالدعاء. أنا أمّ يا خضيرية؛ أمّ، ولست بقرة ولادة. أنا أمّ وذلك المخلوق فلذة من كبدي. ولا أقدر أن أعيش بلا كبد كالمنفية في ها الديار المعزولة في انتظار يتجدد بلا نهاية أمام الثنية الخالية.

- الخضيرية (في نبرة حزن): وأنا يا أخيَّة، ألست أمّاً، أمّ البشير رحمه الله؟

- عيشة: نعم ولكن الموت قد ختم في قلبك زمن الرجاء. ونجّاك من جدب الانتظار.

- قالت الخضيرية وهي تمسح بكفها على جبين رفيقتها: غداً، قريباً تنجلي بحضوره غمامة اليأس، ويملأ خيالُه فضاء الحوش... قومي إلى الموقد نطبخ برّاد تاي، يصبّرنا على الترقب، فإن بي ما بكِ يا عيشة من إشفاق وحنين.

- عيشة: هذه الشهادة هي عندي باب مفتوح على مجهول، لا أعلم ما وراءها من مصير لحامد. هل تُراه يرضى بما يخمِّن له أبوه من توظيف، أم يأبى إلا أن يختار مصيره؟ وما نصيبي أنا ونصيبك أنت من زمانه الجديد؟ الانتظار بلا نهاية أم ماذا؟

- الخضيرية: حامد هو هو، ولا جديد في ما ألِفناه من قضائه عطلة الصيف بيننا، نشبع ضحكاً من دعاباته.

- عيشة: أنت تحلمين، كان ذلك دأبه أيام الدراسة، وهي اليوم فترة أنس قد ختمها الفوز بالشهادة، وله مع الأيام غداً شأن آخر.

- الخضيرية: وأي شأن يكون له، وعهدي به يرتاح لسهرات الحصير في ضياء القمر، ولا ألذّ عنده من ملثوث الشعير بلحم الخروف، ومن كرود الهندي مقطوفة لحينها من الصفة؟

- عيشة: أخشى أن يصبح ولدي حامد إنساناً آخر، غريباً عني وعنك وعن نفسه وما ألِفَه في هذا الحوش. وتلك عندي محنة أخرى؛ محنة من بنات النجاح وتحقيقِ ما لم نزل نتطلع إليه.

وتنهدت أم حامد ثم قالت مبتهلة: يا ربي، إني مللت الخوف من مجاهل غيبك. كيف أعيش في ظلمة بلا شمعة يا إلهي يا نور السماوات والأرض؟

من الغد، بين ظُهر وعصرٍ عاد الحاج إلى البيت منفرداً. لقيَته أم حامد في فم الحوش، وذراعاها إلى القادم منفرجتان، والقادم المأمول غائب... أين هو يا حاج؟!

- انفلق الجواب في صرخة كالانتقام من النفس: ابنُكِ هرب إلى فرنسا. وتركها تولْوِل ناحبة: حامد هرب، يا ربي، إلى فرنسا، يا إلهي، ماذا عملت؟ ولدي يهرب من أهله وبلاده، كبدي يبسَت، من لوعة الفرقة. يا حاج أين ولدي يا حاج؟!

لحقته إلى السُّدة لا تتمالك، فإذا هو مضطجع والبرنوس مبسوط على الجسم والرأس جميعاً، قد انزوى في نوم كاذب، يمتنع عن الكلام.

عادت إلى الركن من الباب، حيث تجلس كل يوم للدعاء وقرآن الفجر. وتهاوتْ على الزربية، لا تقدر على البكاء، ولا تركت الغصة لسانَها أن يرد على الخضيرية، قائمة على العتبة، تسائلها.

تمتمت بآيات ياسين، فلم تستقم لها التلاوة، ودخلت في صمتٍ يخدر الوعيَ، وغرقت في غيبوبة تغلغلت إلى عمق الذات. ولم تسمع صوت الحاج بعد ساعة من نومٍ كذب، يطلب شربة ماء، ولا صوت الخضيرية قائمة بين يديها تقول:

- ما الذي جرى لحامد، يا بنت المؤدِّب، ما الذي خلّفه عن القدوم مع الحاج؟ إن شاء الله خير.

- وما ثابت إلى وعيِها إلا على صوت محمود، يحادث الخضيرية ساخراً:

- هرب إلى فرنسا؟! ألم أقل لكم إنه هربت به فرس، وأصابه غرور أولاد الصادقية. ما الذي تراه فاعلاً بنفسه اليوم، وبنا جميعاً، وبالأهل وقد تنكر للبلاد... بسبب هذه الشهادة المشؤومة؟

- عيشة: الله يسامحك يا ولدي من ها البغض، أخوك حامد، يا ولد مبارك لم يمسسْك يوماً بسوء، ولا أرسلَ لسانه فيك بشتيمة.

وتركته ودخلت على الحاج، وقد نزل من السدة يسأل: أين كنتِ يا بنت المؤدِّب؟ أعطيني أشرب وأتوضأ.

- قالت متجرِّئة: لا أفعل حتى تخبرني. ابني حامد، من قال لك إنه هرب إلى فرنسا؟ ومتى؟ هل الهروب سهل هكذا؟ كيف يهرب وهو في دار خاله الحاكم؟ وهل أخي محمد على علم بذلك، وموافق؟ قل لي بحق البيت والروضة، اشفِ غليلي.

وانفلقت باكية تنتحب، وكأنما انثلم في الصدر جدار الصبر وعزة الحياء. ثم نزلت إلى القِربة وجاءت بالمشرب، تناوله زوجها، وهي تنتظر أن يتكلم، فلم يفعل. وأقبل يتوضأ. ثم بسط الزربية لصلاة العصر. ثم جلس واجماً. فعاودته تلح في السؤال:

- عيشة: بجاه الرسول خبِّرني.

- الحاج: بماذا أخبرك؟ كنا ساهرين في الغرفة الوسطى من دار أخيك. فجاءني يطلب ألف فرنك. فلم أبخل ولا سألته عما هو فاعل بكل هذا المال. وشجعني خاله يقول: لعلَّه يسهر مع رفاقه الناجحين؛ ذلك كان شأننا في الزيتونة، إذا بشرنا الشيخ بنتائج التطويع... وحضر ابنُكِ مائدة العشاء، وسهرنا نتحدث أنا وأخوك عن المستقبل.

- عيشة: مستقبل من؟

- الحاج: مستقبل ابنِك بعد الشهادة.

- عيشة: بماذا صورتم هذا المستقبل وهل كان يستمع لتحاوركما؟

- الحاج: نعم ولم يُبدِ اعتراضاً.

- عيشة: اعتراض على ماذا؟

- الحاج: تعيينه في خطة خليفة. وقد تحصَّلنا على وعد من مدير الوظيفة العمومية بالوزارة، وهو يعرف الشيخ محمد ويكنّ له الاحترام. ووعد أن يسعى وسعه لدى الكاتب العام الفرنسي صاحب القرار.

- عيشة: وظيفة خليفة، هل شاورت حامد وسألتَه رأيَه وماذا يختار قبل أن تقوما بما قمتما به من مسعى؟

- الحاج: وهل يستشار على الخير الابنُ المطالَبُ بالطاعة؟ المئات من أمثاله يتسابقون إلى الفوز بهذه الوظيفة، لا يلحقون. وهي مقدَّمة لحامد على طبقة من فضة، ويتركها ويهرب. أصبحنا من الغد وأنا أجمع متاعه للعودة. فلم نعثر عليه في البيت. بات ما أصبح.

- عيشة: ومن أخبركَ أنه هرب إلى فرنسا؟

- الحاج: صديق له في بنزرت، ذهب إليه يستعين به على السفر بالبحر، فحاول أن يثنيَه ويصوِّر له المصاعب، ثم هتف إلى أخيكِ يخبره.

- عيشة: لا يمكن أن يغادر حامد البلاد هكذا بين يوم وليلة. بلا أوراق ولا متاع، قلبي يخبرني أن ابني لا يزال في تونس.

- الحاج: أخوك أخبر الشرطة للبحث عنه.

- عيشة: وأنت ما فعلت لتعيد ابني، ألقيتَ المسؤولية على أخي محمد. حامد ولدك أنت يا حاج وليس ولد أخي محمد!

- الحاج في حدّة: وماذا أنا فاعل يا بنت الناس، أن أبحث عنه بين البواخر في ميناء بنزرت، أو أسأل عن أخباره في مراكز الشرطة؟

- عيشة: ما كنت أحسب قدرَه رخيصاً عندك. الوحيد من أولادك الذي نجح في الشهادة الكبيرة. الوحيد الذي قلت إنك تفتخر به بين الأقران. الوحيد الذي كنتُ أعوّل عليه لتضميد الجراح... ترضى أن تراه يهاجر إلى برّ النصارى، ومنذ ثلاثة أيام كنت تعتزم الاحتفال بنجاحه وتذبح الخرفان وتقيم الولائم؟! يا خسارة يا حاج عبد الله، يا لوعتي عليك وعلى حامد!

كانت المرة الأولى التي تتجرأ فيها أم حامد أن تنادي زوجها باسمه، نذيراً على ما أصبحت تقر به من مسافة بينهما، تزيد في تعميق وحشتها.

- قال غاضباً: دعيني من لومك يا بنت المؤدِّب، ولا تدافعي عن هذا الطائش الملعون، لا يستحق العفو، وعليه اللعنة مني والغضب من خاله، ولم يبقَ له مكان بهذا البيت.

- عيشة متوسلة: بجاه ربي وبالقرآن لا تزدْ على ما بي. حامد وليدي وبقعته في القلب. ومكانه إلى جنبي بهذا الحوش، ما دمت حية.

للمرة الأولى تتحدى الزوجة الوقورة الرصينة زوجَها الحاج، وترسل عنان الغضب للدفاع عن ابنها، وإثبات حقه في الاختيار لما يريد أن يكون عليه مستقبله، ومستقبلها هي؛ وتعلم أنها ستظل من ذلك في غم ونكد.

ولكن ذلك شأنها وحدها، فيما بينها وبين النفس الحزينة؛ شأن أمٍّ، ولدها من لحمها، جزءاً مقسوماً، حمله كرهٌ وفصاله وهمٌ، زيتونة السواني، في شحمة الأديم جذورها ومن جدول العين سقياها، نسيت الأجيال عقود إنباتها. وقد ألفت الحزن زاداً للأيام بلياليها. وما كان زوجها ليجد مثله، كأنما كان حامد مولوداً خامساً أو سابعاً بين أبناء الضرائر وسط الحوش.

أمسك الحاج عن الكلام، ولبس الجبة وخرج يمشي بين الزياتين تشيِّعه الأنظارُ صامتةً. وجلست أم حامد تتدارك ما فاتها من ركعات الظهر والعصر.

أقبلت الخضيرية وجلست بجانب عيشة صامتة، لا تدري بأي كلام تصبِّرها. وبادرت أم حامد تتكلم. عساها بالكلام تفرِّج عمّا بها من كربة. وتنفس ما بالصدر من تراكم الأشجان.

- يا أخيَّة، يا رفيقة العشرة، وليدنا، يقول الحاج، هرب إلى فرنسا.

- الخضيرية: يا حفيظُ تحفظ، فرنسا يفعل فيها ماذا؟ هذا البر البعيد من وراء البحور... ما هو السبب يهرب من بلاده وأهله؟

- عيشة: هرب من الحاج والده.

- الخضيرية: ما فعل له الحاج؟

- عيشة: نصب النصبة مع أخي محمد في تونس، ودبَّروا فيما بينهم تعيين حامد في بقعة خليفة.

- الخضيرية: وماذا فيها من شر، يهرب منه حامد. يا سعدنا لو يصبح ولدنا خليفة في السوق، يولّي ويعزل، ويحكم بين الناس، والظالم يبعثه للحبس، ما هي خير منها صنعة.

- عيشة: يطمح إلى أعلى من ذلك.

- الخضيرية: بقعة قائد في القيروان. من المرة الأولى يصبح فارساً.

- عيشة: في إحدى ليالي الصيف الماضي، سهرت معه على السطيحة. وأسند رأسه إلى ركبتي، ومد كفَّه إلى ساقي المريضة يُدَلِّك القدم والأصابع. وأنشأ يناجيني: يا أماه. إذا كتب الله لي النجاح في الشهادة العام المقبل، أريد أن أواصل دراستي، لأكون مثل أستاذي علي البلهوان أو محمود المسعدي أو عبد الوهاب بكير...

- الخضيرية: هؤلاء من يكونون حكاماً أو خلفاوة؟

- عيشة: أساتذة في الصادقية، قرأ عليهم حامد، وزوَّدوه بحب الدين والملة.

- الخضيرية: اختار وليدنا حرفة مؤدِّب مثل الحاج الشرميطي، يحفظ كلام الله ويعلم الصبيان باللوحة والمحاية، ورزقه من موارد الخموسية من أطفال الكتاب.

- عيشة: الأستاذ أكبر من المؤدّب.

- الخضيرية: مؤدب كبير من أين رزقه؟

- عيشة: هو موظف عند الحكومة. ويعلم الأولاد الكبار في الصادقية أو في الزيتونة.

- الخضيرية: عجباً لابننا يختار حرفة معلم على وظيفة خليفة، صاحب سلطة ووهرة. وهذه الوظيفة هل يحتاج أن يسافر في طلبها إلى بلاد بعيدة. ويفارقنا، الله أعلم كم من شهر أو عام؟

سكتت أم حامد. محتارة لا تدري أين الصواب، فيما يتطلع إليه ابنها، ويطيل به فراقها، لا تدري متى يعود منها؛ أم رأي الخضيرية بفطرة المرأة الناصحة؟ وظلت غارقة في الهواجس. من حق حامد أن يطمح إلى ما هو أعلى من بقعة خليفة، يزهو بسلطة كاذبة على سكان قرية منعزلة. ويتحمل ذل الطاعة أمام الجندرمي والمعمر، والقائد والمراقب المدني. حامد ابني

نظيف السريرة، وخطة خليفة خطة رذيلة ملطخة بالظلم والرشوة، وابتزاز أموال الخلق بعنوان استخلاص المجبة... ابني من جيل آخر مسكون بطموح عريض. يتعلق بالخير والفضيلة والعدل، ويطمح أن يرسخها بين أهله، ويبغض الشر والظلم والأنفس الرذيلة... ولكن هذا الفراق، لماذا؟ وهل لا بد منه ومن الغربة في بلاد النصارى؟ الله أعلم كم تدوم مدتها، وهل أبقى حية إلى أن يعود لي ظافراً بالشهادة الكبرى، ولا يجلب معه رومية شقراء يتصدع بها هناؤنا، مثل ما فعل الشادلي ولد هنية؟

- الخضيرية: هل قال لكِ عن هذا الغياب كم مدته، وما هو الربح من ركوب أخطاره؟

- عيشة: لا شأن له بربح ولا خوف عنده من أخطار، قال لي ليلتها وفي صوته نبرة يقين وعزم، يريد أن يبني البلاد مع رفاقه.

قاطعتها الخضيرية كأنها تصيح: بناي مثل البناي البرني في السوق. هذه قالت لهم اسكتوا. هل يحتاج البناي إلى شهادة يرحل في طلبها عن الأهل والوطن؛ فيتعلم خلط العجنة ونقش حجر الحيطان في بلاد النصارى؟

- عيشة: هو بناي من جنس آخر، الأستاذ في الزيتونة أو الصادقية هو بناي، يربي الطلاب على حب الوطن، والسعي إلى تغليب الخير والمصلحة. هو بناي بالعلم والفضيلة، لا بالمطرقة وخيط الميزان.

- الخضيرية: ومع من يقوم بهذا البناء العجيب بالقلم واللسان؟

- عيشة: شباب كثيرون مثله في الحزب والمدرسة...

- الخضيرية: حزب التستور. فهمت. تعنين أنه يريد ان يكون مثل بوبكر النفاتي. حانوته في السوق فرغها من التاي والسكر، ونصب فيها كراسي للشعبة التستورية. وتعرفين ما صار له. كتب فيه شيخ التراب تقريراً

للجندرمية . دخّلوه للحبس، وفلّس من رزقه وضاعت امرأته وأولاده وهمل زواتينه. ماذا ربحت البلاد من كل هذا؟ يا أختي هل هذه الخسارة هي ثمن المصلحة؟

- عيشة: المصلحة كانت سهلة في وقت الوالدين والأجداد. غرس الزيتون مصلحة يأكل منها الخلق والطير. وحراثة الخريف قبل البذر مصلحة. وعمارة دكان للتجارة الشريفة في السوق مصلحة. وتزويد الكتاب باللوحات ومصاحف القرآن. أمرها واضح كالثنية المسطرة.

- الخضيرية: أما اليوم الدنيا صعبت علينا وعلى أولادنا. والمصلحة صارت ثنيتها مجهولة هنا، وبين بلاد النصارى، الله يجعل سعيهم مربوحاً.

- الخضيرية: أمين يا رب العالمين، الدنيا صعبت يا عيشة عليهم وعلينا. في آخر العمر. لا نفهم الكثير من مقاصدهم. ولكن نشيِّعهم بالدعاء.

نهضت أم حامد متثاقلة ودخلت حجرتها، وقد بصرت بمحمود مقبلاً.

أقبل محمود يستخبر، وتوجه إلى الخضيرية سائلاً فأخبرته.

- محمود: من العام الفارط نصحته أن يترك الأوهام، يحصر العناية في مستقبله هو ويترك مستقبل البلاد لمن يرضى بالخسارة ويقدر على تحمل السجن والتعذيب. وقد جاءني داعية يهذي بالاستقلال والانخراط في حزب الدستور. وقلت له دعْك من الركض وراء السراب. فمن الغباوة الاعتقاد بأننا قادرون على طرد فرنسا من البلاد... بالعصي ومقالات الجرائد في وجه الدبابات والطائرات...

- الخضيرية: كلام صواب... ولكن جيل أخيك معتزون بالحزب واثقون من زعمائه.

- محمود: وهذا غلط فادح. قلت له إن أسيادك في الحزب ليسوا ملائكة مطهَّرين من الأطماع والحسابات الشخصية. ومقاصدهم ليست كلها خالصة لوجه الله. هم بشر، شوية لله، والكيل الوافي لعبد الله.

- الخضيرية: طيِّب ولكن بماذا نصحته؟

- محمود: الشهادة التي تحصل عليها تفتح في وجهه باب العمل كمترجم عند المراقب المدني في القيروان أو سوسة.

- الخضيرية: مترجم! ما هي حرفته؟

- محمود: المراقب لا يفهم لغتنا العربية، والمترجم ينقل له باللغة الفرنسية مضمون الرسائل أو شكايات الناس. هو واسطة بينه وبين القائد والخلفاوات والمشائخ والخصوم.

- الخضيرية: ويمكن أن يصبح خليفة بسبب هذه الخدمة؟

- محمود: فيها ما هو أفضل وأوسع ربحاً. جراية الخليفة دراهم معدودة يسمنها بما يقدمه المشائخ من رشوة ومن خرفان وعدائل قمح.

- الخضيرية: بعيد الشر! مال حرام. أخوك حامد لا يمد يده إلى الحرام.

- محمود: أنت خرفتِ يا أم البشير. الفقر هو الحرام. والزائد على الجراية هدية، وليس رشوة. وسيدنا قبل الهدية.

- الخضيرية: والله حيَّرتني بكلامك يا ولد أختي رمضانة، الله يرحمها.

- محمود: الكسب ليس دائماً من المال، حلال أو حرام... بل اسمعيني، كان لي في الزيتونة رفيق من مكثر. أبوه تحصّل على شهادة الصادقية مثل حامد، وأصبح مترجماً عند المراقب. الله أعلم كم دفع فيها والده للمدام زوجة المراقب.

- الخضيرية: حرام يا ولدي. الرزق من الرشوة لا يبارك فيه ربي.

- محمود: حرام أو حلال ليست هذه القضية. القضية أنه نجح.

- الخضيرية: نجح في الشهادة مثل حامد.

- محمود: نجح في الحياة. خرج من الفقر، وأصبحت أرزاقه لا يعرف حدودها. يأمن عزيب غنم ويأمن سرب البقر ومربط الخيل ويا لها من مطامير النعمة ومخازن الزيت...

- الخضيرية: الرزق من عند المولى لا من رشوة العباد.

- محمود: الرزق يجعل له المولى سبباً. والسبب أن صاحبنا المترجم نجح في خدمة المراقب المدني، فكافأه بهنشير جهة القصرين، وأعانه على الحصول على قرض من البنك وكوّن في الهنشير مربطاً للأبقار المجلوبة من ألمانيا.

- الخضيرية: ما عندها خير من بقراتنا. عجول وحليب اللهم صل على النبي.

- محمود: يا وليّة، بقرة ألمانيا تحلب كل صباح قربة حليب. وعجلها لحمه أطيب من لحم الضأن وأغلى من لحم الخروف.

- الخضيرية: كلامك يحيرني يا محمود يا وليدي. وماذا قال حامد عندما حدثته على خدمة المراقب الرومي؟

- محمود: الولد هاربة به فرس بلا لجام، قال لي إن طموحه أن يتحصّل على خطة أستاذ لتربية جيل يدافع عن الوطن. مجنون مثل أصحابه في حوادث ٩ أفريل.

- الحضيرية: ما هي هذه الحكاية. والله كأنك تخرِّف خرافة أمي السيسي. ماذا صار في ٩ أبرير؟

- محمود: مظاهرات ومصادمات بين أولاد الزيتونة والصادقية وبين عسكر الحكومة. والسبب أن السلطة قررت محاكمة أستاذ من أساتذة الصادقية مجنون مثل ولد عيشة. فقامت القيامة في وسط الأسواق وشوارع المدينة، وتجمهر الناس، وهجموا على دار المقيم العام في باب بحر، يتصايحون كالمجانين: برلمان استقلال. وولدك حامد كان وسطهم.

- الخضيرية: يا حفيظ يا ستار ... أمام العسكر؟!

- محمود: لو لم يستره ربي، وتحضر له بركة جده المثناني لحصده الرصاص في جملة عشرات القتلى والمجروحين.

- الخضيرية: يا رسول الله، ما ذنبهم المساكين؟!

- محمود: ذنبهم العصيان في وجه الحاكم. ذنبهم أنهم يريدون طرد الفرنسيين من البلاد، بالصياح والخطب... على برة الجندرمة والمراقبين. على برة المقيم العام وحتى جارنا كناك على برة، هو وابنته الحلوة راكبة الفرس الشهبة، كلهم على ظهر سفينة الرجوع إلى أم الوطن.

- الخضيرية: إيه نرتاح من شرّهم.

- محمود: يا عمتي، ماذا نضع في بقعتهم، البلاد بعدهم معرضة للفتنة والشغب، تذهب بالأخضر واليابس، القوي يأكل الضعيف، حوت يأكل حوت وقليل الجهد يموت، الهمامي يصفي ثاره من الجلاصي، والفتنة تشعل نارها بين أولاد عيار وأولاد سنداسن... والعربان تهجم على المدن وتنهب الحلي والسلع والأموال.

- الخضيرية: ما السبب؟ ألسنا كلنا مسلمين؟

- محمود: مسلمون ولا شك. ما عندنا من الإسلام غير الشهادة والجوع في سيدي رمضان. هذا لا يكفي لإخماد الأحقاد الموروثة،

وللقضاء على الحسد والفرقة، شيطان الفتنة معشش في القلوب، يفسد علينا عواطف الألفة. ولكن هذه حكاية أخرى.

- الخضيرية: لعل حامداً هارب إلى فرنسا من الظلم وحكم الجندرمة.

- محمود: كلنا يكره الظلم ويهرب منه. لا. حامد هارب من شيء آخر. هارب من المسؤولية. ومن رعاية مصلحتنا، مصلحة العائلة كلها وما أنفقت عليه طيلة عمر الدراسة في تونس.

- الخضيرية: دعْك من الحسابات يا محمود. المسألة أكبر من الفلوس هو مصير أخيك. والمسكينة عيشة، ومصير بنت خاله المكتوبة له.

- محمود: ومصيرنا نحن جميعاً. حامد لا يفكر إلا في مصلحته. ولا حساب فيها للأهل ولا للعائلة. ولا حتى لأمه المسكينة. ورحمة أمي مبروكة ما نصحته إلا في مصلحته هو ومصلحتنا جميعاً.

- الخضيرية: ما هي النصيحة؟

- محمود: نصحته بأن يبعث الحاج إلى جارنا المعمر (كناك)، يقول فيه كليمة خير عند المراقب، فيصبح مترجماً في إدارته بفضل شهادة الصادقية.. ولا شك أن المراقب يكافئه بهنشير من أملاك الدولة في الكاف أو باجة، بلاد القمح والضرع. رزق حلال نتوسع فيه ونخرج من هذه الحفرة، بلاد العطش والفقر. أليس هذا أفضل من الهروب إلى فرنسا وترك الفقر يعشش في عظامنا؟

- الخضيرية: الله أعلم يا ولدي، أخوك قارئ ويعرف أين تكون المصلحة. ربي يهديه.

- محمود: المصلحة، مصلحة من، مصلحته هو وحده أم مصلحتنا المشتركة؟

- الخضيرية: ربي يقدِّر الخير ويدلّه على الصواب، ويلطف بالمسكينة عيشة بنت المؤدِّب.

- محمود: ويلطف به هو، لأنه يلعب ورقة قمار لا يدري أهو رابح من هذه المغامرة أم خاسر. وإذا ربح فلنفسه ولن يلتفت لنا، وإذا خسر خسرنا معه جميعاً رأس المال والفائدة.

ونهض محمود خارجاً.

دخل البيت عائداً يتسلل، جبال من العقبات أحبطت العزم، وقصمت الجناح. فعاد يسعى إلى مصالحة الواقع، مصالحة مرارة وغضب، لا ندماً ولا استغفاراً. غداً يكون لي مع الأمر موعد جديد. لجأ إلى الحجرة يتساءل بماذا يلقى خاله إذا عاد من المحكمة بعد ساعة. فاجأته هالة جاثماً بين الوسائد. فجلست على حافة الفراش وجاست أناملها في شعر الرأس.

- هالة: ما الذي رحل بك عنا أمس الأول، وما الذي عاد بك اليوم؟

- حامد: إذا وجدتِ الجواب خبريني، فقد غدوت قارباً في كبد العاصفة، غمر الموج أماراتي، وانسدلت حجب الضباب على ومضات الناظور. تبّاً لها من نكسة، وتبّاً لي من محاول فاشل، ولهذا الطموح المتبخر، وللأوهام تقتل الصدق...

- هالة: لو بدأنا من الأول، لتكون للحكاية عندي دلالة. أين بت منذ البارحة، وماذا أثناك من مصاعب؟

- حامد: لو دريت، لا تصدقيني، بت متمدداً وسط حوض حمام.

- هالة: أَمِنْ شدة الحر على ساحل البحر بمرفأ بنزرت؟ غريب أمرك!

- حامد: من قلة الغرف الخاوية وغلوِّ أثمانها. وفي الصباح قضيت ساعات أطوف بالرصيف أبحث عن بقعة بأقرب رحلة إلى مرسيليا.

- هالة: ما كنت أحسبك غراً غبياً. أم حسبت أن دنانيرك كافية ليتحرك بك المركب، وأنت متمدد على الركح الأعلى، تتابع ذيل الموج يجري وراء السفينة؟

- أدركت غباوتي إذ أوقفني الحرس البحري يطلب الأوراق. جواز السفر والتذكرة. وضحك على ذقني ساخراً من سذاجتي عندما أخبرته بنجاحي في الباكالوريا وأني راكب إلى باريس للترسيم بكلية الحقوق. فردّ عليّ ضاحكاً: هكذا. تغادر البلاد بلا أوراق ولا وصل مالي ولا شهادة ترسيم. لم يبقَ إلا أن تبسط أمام رجليك الزربية الحمراء إلى سلاليم السفينة. عد لأمك يا بني واحترم الإجراءات القانونية. فقلت: تباً للإجراءات القانونية تحبط العزيمة. وتركته يقبل على مسافر غيري، يجر وراءه حقيبة مكومة.

- هالة: كان لطيفاً معك حارس المرسى. طيب هذا هو الفصل الأول من القصة، ويبقى الفصل الثاني إذا عاد الوالد من المحكمة.

- حامد: والحاج ماذا فعل؟

- هالة: لأول مرة في عمري أرى شيخاً يبلل الدمع شيب لحيته. حمل الخرج وخرج إلى محطة الرتل بلا توديع، راكباً إلى القرية.

- حامد: العاصفة الأولى بعد حين، ما ظنك؟ أتكون صارمة أم هادئة؟

- هالة: متى رأيت عاصفة هادئة؟ المعروف عن الوالد أنه يمسك أعصابه ويتروى قبل أن يصدر الحكم. إذا كان الحكم صارماً...

- حامد: تعلمين أني لست مجرماً، أستحق الصرامة في العقاب. كان المقصد شريفاً في ما حملني عليه الطموح من تهوُّر.

- هالة: أنت اليوم عرضة للمحاسبة على قصدك الشريف هذا وعلى الطفرة الطائشة من الطموح، التي دفعتك إلى الخروج عن الأعراف المقبولة بين الناس، الذين يلتزمون بها حتى ولو كانت خرقاء معوجة.

- حامد: هذه كإجراءات الحرس في الميناء. قوانين وأعراف لإحباط كل طموح.

تركته هالة ولجأت إلى المطبخ، وقد سمعت باب المدخل ينفتح إعلاناً برجوع والدها من المحكمة.

دعته إلى المائدة تراكي زوجة خاله، فتردد وقد ثقلت رجله بهلع من تكبيل. وسمع صوت الحاكم يناديه: هيا بنا يا مسافر. تعالَ إلى طبق العجّة، تتزود منه للحديث بيننا ساعة القهوة.

جلس في طرف المائدة، والصحن بين يديه ينتظر، ورغيف الخبز مكتمل لم يمدَّ إليه يده. فلكزته هالة بساقها من تحت المائدة، وأشارت إليه أن يمد يده للطعام. طفق خاله على عادته، يروي أطرف أخبار الإجرام المعروض عليه بالمحكمة: شاب قُبض عليه متلبساً بالسرقة في أحد بيوت العاصمة، تسكنه أرملة وبنت لها غائبة في الجامعة، أدرك السارق أن المتضررة عجوز مُقعد، وصلتها جراية المعاش من يومها. أخذ المال من تحت الوسادة، ونظر إلى عينيها، فقرأ فيهما ما لا يطاق من الذل والتوسل. فترك المال وقبَّل يدها يقول: سامحيني يا خالة، لي في الدار أُم مريضة مثلك، ولكن لا بأس، لن أعود لمثله من اليوم. الرزق من عند الله.

سألت هالة: بابا. ماذا كان الحكم على هذا السارق التائب؟

- قال: اتفقت مع الجليسين على إسعافه بالعفو؛ الجرائم بمقاصدها. والمقصد هو العنصر الحاسم في كل قضية، والمرجّح في كل حكم.

- هالة: المقاصد في سريرة الضمير. كيف تتوصل المحكمة إلى الكشف عنها؟

- الحاكم: بتأويل القرائن. وفي هذه القضية اعتمدنا على تصريح العجوز لدى البحث، واعترافات المتهم وظهور أمارات الانكسار في ملامحه، وعلامات التوبة. القضاء نصفه فراسة، والأحكام مقصودة للتربية لا لتسليط العقاب وتطبيق أحكام المجلة...

- تجرأ حامد وترك الصمت فسأله: هل للقضاء مجلات أخلاقية للتربية؟

- الحاكم: من اجتهاد القاضي تنبع أخلاقيات التربية، وبهذا الاجتهاد يتفاضل رجال القضاء عند إصدار الأحكام. فكم من خطيئة يأتيها المتهم مكرهاً أو مدفوعاً بالحاجة أو محمولاً على جناح طموح غالب لا يملك أن يتنازل عنه. ومن حصافة القاضي ومن حسِّه الأخلاقي أن يغوص في لج المقاصد للفرز بين الخبيث منها والطيِّب. عمر بن الخطاب وهو رئيس الدولة وأمير المؤمنين أوقف العمل بقطع يد السارق ذي الحاجة في عام قحط وخصاصة، وهو يعلم أن إقامة الحد حكم رباني وارد في القرآن.

أدرك حامد حينها أن محاكمته عند فترة القهوة ستكون رحيمة، وأن جريرته، لها عند خاله - بفضل مقصد الطموح - ظروف تخفيف.

بادر الحاكم يقول: قد علمت طموحك، ولا أستنكره بل هو في هذه المرحلة من عمرك، ظاهرة سليمة... ولولا أن طموحاً مثله، في مثل سنك، دفعني إلى مغادرة القرية وفراق أمي صالحة منذ أربعة عقود، ما كنت لأبلغ ما أنعم به من وظيفة في العدالة ومن منزلة في المجتمع. وما جلبتك إلى هذا البيت منذ عشرة أعوام وانتشلتك من العضلة إلا بالأمل أن أراك تحقق طموحك المشروع، فلا لوم عليك في ما شجعتك عليه. إنما

اللوم على الطريقة وظروف التحقيق. ما كان الهروب من والدك أمراً مناسباً ولاضرورياً.

- حامد: كان هروباً للنجاة من مشروع توظيف يقضي على هذا الطموح... ما كان لي من خيار غيره.

- قال الحاكم: لقد علمت أن لكل كتاب أجلاً موقوتاً، كالصلاة، لا تصلح قبل دخول وقتها... وأنت قد استبقت إلى تحقيق الطموح قبل حلول الموعد «خُلق الإنسان من عجل».

- حامد: تعلمت منك ومن أساتذتي في الصادقية شجاعة المبادرة. وقد خفت أن يقطع بي ما سمعته من حديثكما أنت والحاج ليلة الإعلان عن النجاح.

- قال: طموح والدك وليد حلم مشروع في نفسه أن يتعزز بك قدره وتقوى شوكته بين رموز السلطة المحلية.

- حامد: وثمن حلمه أن أضحي بطموح تأجج في النفس مني ومن رفاقي من أول درس سمعناه من الأستاذ علي البلهوان في السنة الأولى من الصادقية. فأقنع بخطة عميل في قرية منقطعة، أهوي إليها من علياء مقصدي.

- الحاكم: يا بني، المبادرة لها شروطها، بدونها تصبح تهوّراً، ويتبخر المقصد حلماً خارقاً للقانون خارجاً عن الأعراف، سعْيك أيّاً كان مقصده يقع في مجتمع واقعي، لا في مجتمع مثالي، يلتزم بمنظومة قوانين وإجراءات ارتضاها...

قال حامد في نفسه، ها هو غول الإجراءات يلاحقني، وسيف النظام والأعراف.

- واصل خاله يقول: نحن في هذا البلد، ترعانا قوانين موضوعة، ونخضع جميعاً لقيود مضروبة، وأحكام قاهرة. بها تنتظم حياة المجتمع وتستقيم المعاشرة بين الناس. وما لم نتوفق إلى تغييرها بأحسن منها علينا امتثالها والتزام حدودها.

- حامد: حتى ولو أيقنّا أنها أحكام جائرة وقيود مكبِّلة وأعراف بالية؟

- الحاكم: ما لم يبلغ جيلكم إلى نقضها واستبدالها بغيرها، فهي النظام. وشأن النظام أن يكون له سلطان قاهر، والقوانين هي سيوف القهر بأيدي ذلك السلطان.

- حامد: لقد علمت عزم جيل الشباب على خلع هذا السلطان، وإنشاء دولة الشعب مكان دولة الصنائع، وبسط العدل وإشاعة الأمن وأنت واحد من حراسه، أليس ذلك حقاً واجباً لجميع أبناء الشعب...؟

- الحاكم: لقد جرَّبتم ذلك يوم ٩ أفريل في شوارع العاصمة، وعلمتم أنكم تنازلون عدواً جيوشه منتصبة بكل شبر من أرضنا، وعيونها منبثة في الزوايا والأركان...

- حامد: هل قرأت في التاريخ أن شعباً مناضلاً أُهديت له الحرية في طبق من ذهب، نحن نعلم أن الهدف مسافته بعيدة، وثمنه باهظ، وضريبة الدم في حقه واجبة... ومظاهرات ٩ أفريل كانت للحزب بمثابة التجربة المخبرية. والمعركة الحاسمة من حجم آخر.

- قال الحاكم: لا أريد ان أُحبط عزائم الصدق عند جيلكم، ولكني أعلم من موقعي ووظيفتي في العدلية، كم يتربص بكفاح الأبرار طابور الخونة وعملاء الشرطة... ولكن عد بنا إلى ما نحن فيه من مشكلتك مع الحاج.

- قال حامد في إشفاق: ما هو الحكم يا سيدي الرئيس؟

- قال: حكمك بيدك، ما يتضح لك في الضمير أنه واجب، أنا واثق من عدلك في اتّباعه، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً.

- حامد: أستأذنك في العودة إلى الأهل في «العضلة»، أرجوك أن تبلغ الحاج برجوعي، فتعلم بذلك أمي عيشة، فتخفف عنها بعض الذي تعانيه من هلع. أما مشروع المستقبل وجامعة فرنسا، فلكل كتاب أجل كما قلت منذ حين، فالعزم باقٍ على مكانته في النفس، وأما السعي إلى الإنجاز فإني متّبع نصحك بالتزام أحكام النظام وباحترام الإجراءات، وعليّ لك وعد صدق يا خالي أن الشمعة ستبقى مضيئة.

لقيته هالة وهو يغادر قاعة الجلسة فقالت:

- كنت أتابع الحوار، وأراك قد تخلصت من التهمة بأخفّ الأحكام.

- حامد: بل بأقصاها، وقد حمّلني خالي مسؤولية تسليطها، فأنا المتهم وأنا الحاكم.

- قالت: أخَيرٌ لك هذا؟ هو أنسب لضوء الشمعة. وعساك أن لا تلتمس للمتهم ظروف التخفيف.

- حامد: متى رأيتِني أخون العهد وأركن إلى السهل الأيسر؟ عزمت أن أقف غداً أمام محكمة أخرى في حوش العضلة أشد صرامة، بتهمة مستورة أعسر دفعاً.

- قالت: تكفيك تهمة بنزرت.

- قال: جريرتي الكبرى عند الحاج إني أفسدت برنامجه، وحرمته من فرحة ظل يترقبها أعواماً؛ أن يكون ابنه عنوانَ فخره بين الأقران في السوق، وتكون شهادة الباكالوريا مفتاح وظيفة تضمن له قدراً من المنعة أمام الخليفة والقائد والجندرمة، وتمنحه صك احترام ومهابة بين الناس.

- هالة: أوَلستَ ابنه ومن صلبه، وفيك أحلامه تتجسم؟

- حامد: ولكن مستقبلي هو ملكي وحدي، لا امتداد لزمانه هو حتى ولو كان في منزلة الوالد.

- هالة: مستقبلك قسمة بيننا، لي فيه نصيب النصف، بذلك قضى إمام القرية، جد العائلة يوم ولدنا، وباركته أمي عيشة. لا تنسَ أن ذلك عهد بيننا موقوت.

- حامد: دَعي هذا العهد لزمن الفترة الثانية، يوم يبزغ فجرها من وراء ما نحن فيه من ظلمة.

- هالة: أليست لك شمعة؟

- حامد: أخشى عليها من الرياح الأرضية.

روى حامد لهالة ما حدث من الغد، وقد حمل متاعه للعودة إلى دار العضلة. قال:

- نزلت من القطار وما خف لاقتبالي أحد، كسالف عهدي من قبل، وقطعت الكيلومترات الأربعة راجلاً، وعلى الكتف حقيبة الملابس ومجموعة كتب، زادُ احتياطٍ لأسابيعي الطويلة بعزلة العضلة. وثقلت الرِّجلان بما كان يضطرب في النفس أكثر مما ثقل وزنه على الظهر. صادفتها بباب الحوش قابعة تترقب. فجثوت أقبِّل الرجلين وقد انعقد اللسان عن البوح بما أعددتُ من دعاء الاستغفار والندامة.

- قالت: بصوت خافت وهي تضمني إلى صدرها: يا وليدي، قلبي حدَّثني بأنك لم تسافر، يا كبدي وطول لوعتي. ها أنت ذا قد عدت لأمك، الحمد لله.

- وترقرقت عيناها بدمعتين عجلت بمسحها بكمِّ الملحفة. ودخلنا الحجرة الوسطى، والحاج مضطجع على السدة، بادرَته تخبر: يا حاج هذا حامد قد وصل. فلم يتحرك ولا نطق بجواب. وجلست على حصير

بجانبها ننتظر كالمتهمين أن تنتصب المحكمة. وطال الانتظار، ثم حان وقت صلاة الظهر، ونزل الحاج من الفراش وقصد المطبخ يتوضأ. ولمّا رد السلام من ركعاته، انتصب للحكم. فأنشأ يقول:

- الحاج: عدتَ مكرهاً، بعد أن صدَّتك الحيطان؛ لا تستحق العفو، يا خسارتي في ما أنفقت عليك طول هذه الأعوام. انتظرت اليوم الذي تُدخل الغبطة في قلبي وقلب المسكينة أمك. ما إن تحصَّلت على الشهادة حتى طارت بك السكرة. لم ترعَ لأهلك عهداً، ولا قرأت لفعلتك عاقبة، نصيبي منك طول الانتظار ونصيب أمك يا ناكر الجميل.

- تجرأت عيشة تقول: ما فات شيء يا حاج، وليدنا جاء للدار...

- قاطعها بنبرة حادة: لا يا بنت المؤدِّب، فات كل شيء، الكاس إذا تكسرت ما يجبرها شيء. وأنا اليوم قلبي في مثل كاس طاح تكسر.

- عيشة: صلِّ على النبي يا حاج! الله يغفر كل ذنب، هذا ودون... فإن حامداً لم يرتكب ذنباً لا يستحق عليه الغفران.

- الحاج: تعرفين ذنبه ما هو يا بنت المؤدِّب، خيّب ظني وقطع رجائي. عشر سنين أنتظر أن أراه يأخذ بيدي ويرفع رأسي بين الناس ويحميني من ظلم المشائخ والخلفاوات.

- ثم التفت إليّ يسأل: خبِّرني يا عاصي الوالدين، أين أنا من برامجك في القراءة بفرنسا؟ أين أمك؟ ما هو نصيبنا نحن في هذا الحوش من مستقبلك الذي تنوي أن تبنيه وحدك؟ تكلم خبِّرني عن قصدك.

قال حامد في نفسه: ما وقفت موقفاً كنت أعجز فيه عن الرد من موقفي هذا أمام هذه التهمةِ المنسوجة بالظنون ثم تجرأت لمجابهة الغضب فقلت:

- حامد: أريد أن أواصل التعليم العالي بفرنسا لا غير، ولا ذنب في هذا.

- الحاج: ولماذا في فرنسا وليس في تونس مثل خالك؟

- حامد: ليس في بلادنا جامعة تدَرِّس التعليم العالي، كثير من الطلبة سافروا إلى بلاد أبعد من فرنسا، إلى كندا وأمريكا...

- الحاج: وستصبح ماذا عند إتمام هذا التعليم العالي، طبيب، محامي، مهندس، وبعد كم من عام؟ ومن سينفق عليك في هذه الأعوام؟ أنت غالط إذا كنت تظن أني أنا الذي سينفق عليك الله أعلم كم من آلاف الفرنكات في العام، ثمن القطيع من الغنم.

- حامد: لا طبيب، ولا محامي... أريد أن اكون أستاذاً أدرِّس في الصادقية مثل أساتذتي الذين أخذت عنهم.

- الحاج: سمعتِ يا عيشة، ولدك يريد أن يكون أستاذاً، تعرفين يا بنت المثناني ما حرفة الأستاذ؟ مؤدِّب صبيان مثل أبيك بجامع القرية. يلحس القلم ويعلم الأطفال بالعصا والفلقة. وجرايته من فلوس أولياء التلاميذ ومن الخموسية ليلة الجمعة. يا لها من خسارة ويا مصيبتنا يا بنت المؤدِّب، بعد كل هذه الأعوام.

- حامد: الأستاذ معلم كبير، لا يدرِّس للأطفال بل تلاميذه كبار، جاوزوا التعليم الابتدائي، وهو موظف عند الدولة منها جرايته الشهرية، وهو لا يدرس القرآن باللوحة وقلم الغضب، بل يدرس علوماً كثيرة مثل الأدب والنحو والحساب والتاريخ والجغرافيا...

- الحاج: الله الله، نحْو وحساب وجغرافيا، تصلح لماذا هذه الجغرافيا وهذا النحو والتاريخ...

تعطل اللسان واختلطت المقاصد، وانقلب النقاش حوار الصم ليس بينهم مفاهيم مشتركة.. واصل الحاج الاستنطاق العسير.

- الحاج: حضرت الحديث بيني وبين خالك عن خطة خليفة وعدنا بها سي أحمد الناجي المدير بالوزارة، وهي خطة مرموقة، لا يفرح بها إلا إنسان محظوظ، من أهل البيوت الكبيرة في تونس وفي الساحل، ولولا منزلة خالك رئيس الدريبة ما كنت تفرح بها حتى مع قفة من شهاداتك. ما أنت إلا ولد فلاح صغير من قرية ريفية مجهولة لا جاه ولا حسب. ونحن ليس في وسعنا دفع ما يقدمه الناس عادة من هدايا ومال للحصول على هذه الخطة، إنها هدية مجانية يسوقها الله لك ولنا. تحقرها وتهرب منها. ولدك مجنون يا عيشة، عقله ناقص وقلبه يابس. لم ير ما حصل عليه من مركز كاتب في دار القائد ولد الشيخ الهذيلي، ولم ينظر إلى أقرانه أصحاب الشهائد، فازوا بمناصب كبيرة في الإدارة وولد الدراجي خليفة في مكثر، وولد النقاطي في الكاف، حتى خطة قائد أعطوها لولد بودبوس من الجريد.

- عيشة: بعيد الشر على وليدي، حامد قلبه ليس يابساً، قلبه رحيم.

- حامد: تجرأت للرد على الوالد: لا أحب أن أتقلد وظيفة خليفة، يدين بالطاعة والولاء للقائد وللمراقب المدني وللجندرمة، وحتى للمعمر الطليان بالجهة. لا أريد أن يكون رزقي الرشوة والمال الحرام. أتقاسمه مع المشائخ، لا أريد أن أبيع ماء الوجه وشرف العائلة بالخرفان وأكياس القمح وجرار الزيت والعسل... سياسة خبيثة مبيَّتة. السلطة الفرنسية تمتص الكفاءات الوطنية، مما تخرجه الزيتونة والصادقية والخلدونية، وتغريها بالوظائف؛ هذا خليفة والآخر قائد والثالث مدير والرابع مترجم وتسكِت ألسنتهم بالمال الحرام، فينقلبون صنائع للنظام، ويدفنون في

النفس ما كان يراودها أيام الدراسة من إصلاح. بغير هذا زودني جدي في كتاب القرية وخالي في دار رادس، وأساتذتي في الصادقية...

- الحاج في نبرة ساخرة: وبماذا زودوك يا أستاذ النحو والجغرافيا؟

مرة أخرى ينعقد اللسان بعطالة مباغتة. فالحوار على غير قياس والألفاظ من سجلات منطق مختلفة. والمفاهيم تدور في حلقات منفصلة. بينها مسافة فروق حاسمة. لا يخرج فهم الحاج عن كتّاب القرية رمزاً لتلقين المعرفة، وعن تحفيظ القرآن وتعليم القراءة والكتابة زاداً لكل تربية، ولا يرى لهذا التعليم من منفذ سوى خطة مؤدِّب صبيان، ولا لصاحبه من رزق غير صَدقة التبرُّك من الآباء والأمهات وزكاة البِر والإحسان. حلقة مفاهيم منغلقة ويقينيات متجذرة لا يملك الحاج أن يستنجد برموز غيرها. ولا أن يستبدلها بسواها، نمط تفكير ومرجع قياس.

في المقابل أعلم أن زادي من الصادقية من معدن آخر بأية لغة أبلغه أن زادي، كسْبٌ راسخ في عمق الذات؛ عينٌ جارية تنبع بالتطلع إلى الأعلى والأنقى والأسمى؛ نحتٌ غالب للمصير في الفسحة الباقية من حياة؛ كسب دائم لا يبليه النسيان، إذا النسيان محا من الذاكرة أسماء الأنهار لجغرافية فرنسا، وأرقام التاريخ للحروب الصليبية، وصيغة المعادلة للدرجة الثانية في الجبر، ومعاني الأفعال المزيدة. كل ذلك ماعونُ صقلٍ للفكر، وآليات نحتٍ للشخصية، ومركب نجاة... حصاد أعوام الصادقية صنعت من الشاب المتلعثم، الذي نجّاه خاله من مضيعة العضلة، عجينة لمخلوق آخر. الوعي المحدد نظرته الفاحصة للذات، والحكم الصارم أساس إدراكه لنقائص أهله في المجتمع، اعتزازه الحصيف بمنازل جدوده بين الأفذاذ من بُناة الحضارة الإنسانية درعه الحصينة في نهله من مكاسب الحضارة الغربية، شخص فرد تسكنه إرادة قاهرة، قسمة فاضلة بينه وبين أقرانه بأعلى الصرح فوق باب البنات، عزمها في مثل غضب جمهور صاخب... ذلك

هو الزاد من الصادقية، أوسع من اللفظ وأعمق من الحصر، وأزكى عند القياس وأشرف.

- حامد: دور الأستاذ لا يقف عند تلقين المعرفة، بضاعة كسلعة حانوت؛ ولا شأن له بوقع المعرفة في النفس، كيف تتقبلها، وتستسيغ معانيها، وتستبطن آثارها الأخلاقية. المدرسة ليست سوقاً تجارية سلعتها النحو والصرف والجغرافيا والحساب، وروادها حرفاء عابرون. المدرسة مصنع لصنع الرجال، لا رجال مثل الخليفة في خدمة المعمر، والموظف الصغير في خدمة سيّده المدير الفرنسي، والقائد في طاعة سيده المراقب، هؤلاء كلهم صنائع الاستعمار. أما رأيت ما كان لخليفة القرية من صلابة في حقك ونهرك لمخالفة بسيطة لستَ أنت مسؤولاً عنها، بل الراعي الغافل هو المسؤول. الخليفة صنيعة المعمر، ومدرسة في منزلة الصادقية يخرج منها رجال أبرار، أهل صدق وعزم، يعمل أساتذتها على شحذ الأنفس بالأخلاق الحميدة وتزويد العقول بالقيم الصالحة، وإعداد جيل جديد قادر بالعزم على بناء مستقبل أفضل من حاضرنا التعيس.

- الحاج: أوهام ليس لها بأرضنا سوق. الحاضر يا وليدي، هو الذي تراه من حولك، نمضي الأيام بين حوانيت السوق ورحبة الماشية وبين زيتوناتنا في العضلة، غرستها واحدة واحدة بيديّ هاتين، في أديم هذه الأرض بعد أن قلعتُ سدرها وسوَّيتُ أكوام زباراتها عالية كثيفة الأعراف؛ الواحدة منها زبارة كالجبل، مكومة بالشوك، عامرة بالعقارب والأحناش. وعمَّقت حفراتها، ونقَّيت من النجم العنيد تربتها، وحفرت في أطرافها بئراً لسقياها. مستقبلنا يا حامد زاده من الحاضر في الأفق المألوف، ولا مستقبل لنا أفضل، مستقبلنا يرعاه نظام قائم وسلطة قاهرة، وقوانين رادعة، يسهر عليه شرطة وجندرمة وقائد وخليفة ومشائخ، لو أنك رضيت بأن تخلصنا من أعوام الزرع الشحيح ومن قهر الأذناب المغرورين...

- حامد: يا أبتِ، افهمني برحمة جدي علي، وببركة قبر الرسول الصادق الأمين الذي صليت في روضته الشريفة. المستقبل أوسع من الحاضر ومختلف عنه، المستقبل هو تغيير الحاضر إلى ما هو خير وأفضل، ولو قنع خالي محمد بحاضره في القرية، واكتفى ببقعته الضيقة في دار جدي، ورضي بما حفل به زمانه من حفظ اللوحة في الكتاب لما أصبح حاكماً مرموقاً له منزلته في العاصمة، وله مهابته بين الناس، ولما وجد ابنُك من يكفله أعوام الدراسة في الصادقية.

- الحاج: خالك قرأ في جامع الزيتونة، هنا في تونس، لم يهرب إلى فرنسا ولا هجر أهله، ولم يجعل له مستقبلاً مخصوصاً لا ينفع الناس في دينهم وأرزاقهم.

- حامد: أساتذتي طلاب الجامعة الفرنسية هم اليوم في منزلة زملائهم مشائخ الزيتونة، أنفع الناس لبلادنا، وأصلحهم للأهل في دينهم ودنياهم، وأحرصهم على بناء المستقبل للبلاد، مستقبل أطيب قدراً وأضمن لحرية الوطن وحقوق العباد...

- الحاج: ها قد وصلنا لمربط الفرس يا عيشة، ولذلك ينوي الانضمام لحزب الدستور، قل لي يا مغرور، بأي سلاح تعتزمون بناء المستقبل وإخراج الفرنسيس؟ بأي جيش، وأي طائرة وأي دبابة...؟ بمقارن صيد الأرانب... بقادومة النجار تدخل على جبل شرحيل، تفلق صخوره! دع عنك هذه الغواية، أنا أدرى منك بعواقبها، ولا تنسَ مصير ابن عمك الحاج بو بكر، عندما كوّن في حانوته شعبة دستورية، ثلاثة أعوام قضاها بسجن الهوارب يكسر الشرشور، ما فكه منها غير خالك...

أمسك الحاج وأمسكت، التفتت إليّ أمي عيشة كالمتوسلة، فطأطأت الرأس وقلت، لأفرغ من جلسة الاستنطاق «الله يقدر الخير لن أفعل إلا

ما يرضيك يا والدي ويرضي أمي، لكن أتوسل إليك بجاه ربي لا تلزمني بوظيفة خليفة...

- الحاج: إما هي وإما سجن الهوارب.

- حامد: هذه الخطة الوضيعة، قل ما سبب إصرارك عليها دون غيرها من بين الخطط الإدارية.

سكت برهة ثم قال بصوت أجش: الخليفة هو الحاكم في القرية، هنا قريباً من ديارنا، يفصل بين الناس، ويجمع مال الأداءات ويملك مفاتيح الحبس، ويولي ويعزل، ويظلم ويفدي ثار المظلوم.

- حامد: هذه من وظائف العدلية.

- الحاج: من المظالم ما لا يبلغ المحاكم، ومن الحقوق ما تضيع بين حيطان هذا السوق، ومن الإهانات ما لا يدخل تحت طائلة قانون.

- حامد: أدركت السر في اختيارك لخطة خليفة، فقد ظلمك المعمر كناك عندما تذمر للخليفة من دخول نعجات لنا إلى زيتونه، فلم يتورع الخليفة محمود عن أغلظ القول في حق العائلة، وتوعَّدك بالصرامة إن لم تقم على صيانة حرمة جارنا الفرنسي.

سكت الحاج عن الجواب، ولم يتمالك أن أصدر زفرة توجُّع قديم. واصل حامد الحديث وقد انعكس الدور فأصبح هو القائم بالبحث والاستنطاق وغدا والده في منزلة المتهم.

- حامد: نجاحي في الشهادة، وتقليدي وظيفة خليفة هي مناسبة عندك للثأر من الظلم والإهانة.

- الحاج: ألست والدك؟ ألم تلحق الإهانة بالأهل كلهم وتلحقك أنت معهم؟ ومن لنا غيرك يثأر لشرف العائلة؟ فنحن أهل كرام في هذا

البلد ولم يصبنا ضيم من قبل في أعراضنا ولا أرزاقنا، وتعميرنا لهذه العضلة الزاخرة بالأفاعي المحتلة بالدفلة والحنظل وبأشواك السدر.

- حامد: للثأر من مثل هذه المظالم وحفظ كرامة المواطنين وصيانة أعراضهم، لهذا المستقبل أسعى مع ثلة من الإخوة في التعليم. وفي تنظيم الحزب مستقبل العدل والمساواة؛ مستقبل رجوع الأمر بأيدينا. وقد جربت بنفسك يا والدي أن مثل هذه المقاصد الغالية لا تدرَك في مستوى خطة صغيرة بقرية معزولة، متروكة للظلم والقهر وللفقر والحرمان، منسية.

- الحاج: أراك تخلط بين الأمور. فالأمر يتعلق بالعائلة أولاً وقبل كل شيء غيره، والقضية قضيتنا جميعاً، أنا وأمك وأهلك كلهم بهذا الحوش، وليست قضية أمة ووطن، والمستقبل مستقبلنا نحن في هذه القرية لا مستقبل بلاد بأسرها... قمحي وشعيري في المطامير داخل حرم الحوش، على نظري، لا أخلطه بقمح الناس ولا أفوض لغيري حراسة المطامير.

- قال حامد في نفسه عييت من هذا الجدل العقيم وهممت أن أعترض على الوالد بأن الحوش العائلي والقرية الإدارية هي جزء من البلاد، ليس لها مصير منفرد، ولا مستقبل يبنيه أهلها على انفصال... ولكني أمسكت وقد استقر في النفس أن رأي الحاج هو عنده صواب كاليقين... وإني منه في منطق الجدل على مسافة كبرزخ يوم الدين.

شبع حامد من لحمة الظل من قصعة الخروف المذبوح عنوان مهادنة بينه وبين الحاج، فجلس إلى أمه يحادثها ويمسح عن ناصيتها غمامة النكد المخزون، وقد خرج الوالد إلى السطيحة يسهر مع العدل محمود ومع المؤدّب المصباحي. بادرته تسأل:

- عيشة: يا كبدي، أليس الحاج على حق؟ تعبنا من الفراق والغربة. أفلم يحن الوقت أن نعيش سويّاً في نعمة المعاشرة الدائمة والحضور الشامل؟

- حامد: ذلك أعز ما ابتغيه يا أمي. إن شاء الله يتحقق لنا بعد الحصيدة.

- عيشة: أي حصيدة، قمح أم زيتون؟

- حامد: حصيدة ختم التعليم العالي والنجاح في شهادة الأستاذية ومباشرة التعليم والانضمام إلى مشروع الإنقاذ الوطني.

- عيشة: هل لا بد لذلك من الاغتراب في فرنسا؟ ألا يمكن أن يحصل في بلادنا وتعود إلى الأهل كل يوم وأنعم بلقائك على مائدة العشاء، وتمسح بحضورك وحشة الديار؟

- حامد: ليس ببلادنا جامعة، نتخرج منها بشهادة عليا، ذلك من خبث السلطة الفرنسية. تحرمنا من التعليم العالي لنبقى دائماً في منزلة أنصاف العلماء، لا نتأهل إلا للوظائف الصغرى، في الخدمة.

- عيشة: الإقامة في فرنسا، مدتها كم سنة؟

- حامد: أربع سنوات للشهادة النهائية، تخول الحق في مباشرة التدريس. وحقك عليّ يا اميمة الغالية، سيعمل ابنك على اختصارها قدر الإمكان في عامين أو ثلاثة، حتى لا تطول بي وبك وحشة الفراق.

- عيشة: فلوس النفقة هناك غالية، لا يقدر عليها أبوك ولا خالك فمن أين تنفق للسكن والطعام ومقاومة البرد، إذ قالوا عنها إنها بلاد باردة؟

- حامد: أعوّل على الخالق وعلى النفس. والحاج لن يدفع فرنكاً للإنفاق على ما يكره حتى لو كان قادراً. هي عنده صفقة خاسرة. ولكن لا تخافي، يا حبيبة، طلبة كثيرون قبلي عزموا وتوكلوا فأعانهم الله. منهم

من تحصَّل على قرض شرف من الدولة، ومنهم من وجد شغلاً يكفيه. وما علمنا أن واحداً مات جوعاً أو بات مردوماً تحت الثلج.

- عيشة: أخاف أن تبيت جائعاً أو تصرفك الحاجة إلى شغل يلهيك عن الدروس. ولولا خشيتي من غضب الحاج لزوَّدتكَ بقطعة من الحلي تبيعها فيكفيك ثمنها مدة عام أو بعض عام.

- حامد: أنتِ أفضل أم خلقها الله بهذه الأرض، وأنتِ يا ملاذي وأمني أطيب مخلوق عرفته هذه الديار. يكفيني منكِ يا أمي الدعاء الصادق رزقاً مضموناً ونجاحاً موعوداً. ولن أبيت جائعاً ولا مهموماً إلا من وحشة الفراق.

أضاءت الابتسامة بريق العينين وانفراج الثغر. ثم أردفت بعد تردد: أمر آخر أخشاه عليك أن يفرِّق بينك وبين الأهل والوطن ويهرب بك إلى غربة موحشة وإلى قطيعة كالموت.

أدرك حامد ما كانت تعنيه، فبادرها يلثم غرة الجبين ويقول:

- حامد: هل في الكون أنثى قادرة أن تفرِّق بيني وبين عيشة البيّة حتى ولو كانت من حوريات النصارى؟ لك عليَّ عهد يا أماه ألّا أخيِّب ظنك ولا أعود للديار إلا بشهادة الأستاذية، لا بزوجة شقراء.

- عيشة: طلبة كثيرون وقعوا في شراك بنات النصارى، وكبَّلهم الإنجاب وألزمهم بالزواج. فنكثوا العهد وتخلوا عن الأهل والبلاد وضيَّعوا ما سافروا من أجله من الشهائد.

- حامد: في كل سعي نصيب من خطر، ومع كل رزق جانب من المغامرة. صابة الزيتون إذا رجحت بثقلها الأغصان، لا تكون في مأمن من جحافل الطير ومن سوس السويدة. وأعلم أن لما أبتغيه من التحصيل العلمي ثمناً من الأتعاب ونكد الفراق ومخاطر الغربة... ولكنها أتعاب

مريحة ومخاطر لذيذة وثمن لا بد منه... لما وراءها من مقاصد زكية في النفس...

- عيشة: أعلم ذلك، ولولا أن خالك محمداً رضي بالفراق وصبر على الغربة في مدارس الزيتونة يطبخ فيها طعامه، ويغسل ثيابه، لما بلغ منزلته التي نحمد الله عليها. ولكنه بقي قريباً من الديار، لم يجاوز البحر.

- حامد: لا خوف على ابنِكِ، لن يقطع البحر بالسباحة، بل على ظهر باخرة توصله آمناً في ليلة ونهار.

وجاءت الخضيرية تجر رجلها الوجيعة، وقد فرغت من ركعات العشاء فقالت تخاطب حامد: خذني معك إلى بر النصارى يا حامد، أخرج من هذه الحفرة وأتفرج على خلق ربي.

- حامد: قبل ذلك يجب أن تتعلمي لغة الفرنسيس وتستبدلي الملحفة بفستان وسراويل، وتعرّي شعرك.

- الخضيرية: بعيد الشر يا وليدي، أكشف عن شعر الرأس، يا فضيحتي، لا يا وليدي خلّيني في دويرتي مع أختي عيشة تؤنسني ونؤنسها. أنا قلت نقعد عندك في دارك بفرنسا نطبخ لك الكسكسي وأغسل جرودك!

- حامد: مشروع باهي، نفتح مطعم للطلبة ونربح منه مصروف الدراسة... حضّري كسوتك الفرنجية، وقولي لولدك علي يأخذك للمصوّر.

- الخضيرية ضاحكة: ما تبحث لي إلا على الفضائح. ما بقي لي إلا تصوير وجهي الموشم وشعيرات الشيب.

- عيشة: هذا المستقبل الذي حدثت به والدَك وخاف منه. أي شيء هو؟

- حامد: مستقبل الوطن مستقبلنا جميعاً. جيلنا وجيل أولادنا. لا بد أن نتخلص من ظلم الحكم الفرنسي ويصبح حكمنا بأيدينا. لا بد أن نرفع

أيدي المعمرين عن أراضينا وتعود الأرزاق إلى أهلها. لا بد أن يكون لأطفالنا الحق في التعليم؛ جميع أبناء الشعب، ولد الخدام وولد الموظف، ولد الفقير وولد الغني... غداً نبني المدارس بكل قرية، والمعاهد بكل مدينة، والمصحات والمستشفيات في كل جهات البلاد.

- الخضيرية: إيه يا رجال، هذا هو الصواب الله ينصركم.

- عيشة: يا وليدي وما شأنك أنت بكل هذا، وأي قدرة لك على هذا الحمل الثقيل؟ هذا المستقبل الحافل لا يقدر عليه إلا الشعب كله بجميع رجالاته وأمواله... ولا أراه بالأمر القريب.

- حامد: ومن هم رجالاته إن لم يكونوا من خيرة شبابه المتسلحين بالعلم، المتطوعين بالعزم لمقاومة الطغيان والقهر، الراضين بثمن التضحية؟!

- عيشة: مستقبلك هذا مقصوده بعيد، بماذا تعتزمون تحقيقه وهل لا بد من المجابهة مع الفرنسيس؟

- حامد: هو كما قلت يا أماه مقصد صعب والطريق إليه شاق وطويل، وسلاحنا لتحقيقه العلم لا البنادق، التسلح بالمعرفة لا بالهراوات والخرطوش، وسيلتنا نشر الوعي في العقول، وغرس الثقة في قدرة الشعب على تحقيق ما يبتغيه، إذا هو توحدت كلمته وتراصت صفوفه، وترسخت في النفس عزيمة التغيير.

- عيشة: ثم ماذا بعد ذلك؟

- حامد: ما بعد ذلك بداية الطريق إلى المستقبل، استقلال البلاد وبناء دولة حرة نظيفة، تؤمن بالخير وتنتصر له، وتبغض الشر والبغي فتعمل على إزالته.

- عيشة: هذا أصعب من ذاك وأطول آجالاً.

- حامد: كلامكِ صواب، دون القصد مصاعب جمّة لا يعلمها إلا الله ولكن من أقوال الحكماء «إن لله أقواماً إذا أرادوا أراد الله...».

انقضت أسابيع الصيف بدار العضلة متثاقلة، بين مطالعة نهمة في ظل الخروبة وراء الدار، وبين تطواف ساعات الفجر وسط أسطر الزيتون وقطوف الدوالي وأعراف التين. وعلى غير العادة المألوفة في السنوات الماضية لم يصطحبه الحاج إلى السوق ليلة الأحد ولا بات بدار جدته الصالحة، وقد ثقلت بركبتيها في وحدة الدار بعد أن فرّق الموت بينها وبين الإمام المؤدّب، ولم يبق لها من أنيس سوى كبيرها محمد الصالح صاحب المنحلة المعروفة قبلة طابية الهندي.

لم يكن لحامد من جليس سوى أمه، يملأ عينيه من وسامة الملامح في بياض البشرة ووضاءة الوجه، تزينها جبين عريضة ووجنتان بارزتان وثغر رقيقة ملمومة. وكان أطيب ما يستوقفه غور العينين الواسعتين، وبريق العدستين، وطول الأهداب وقوس الحاجبين، كأنما رسمهما قلم رسام بارع، وتعلو الجبين خصلات شعر فاحم تطل من تحت العصابة تزيد في وضاءة البياض.

بجانبها، إذا تربع على الحصير يسامرها، يستشعر نفحة من الهدوء الباطن والسكينة الغامرة، كالسالك برحاب وطن أليف، تتحقق له فيها المصالحة مع الذات وينزل يقين الاطمئنان على المستقبل. فيصغُر ما كان يستعظمه من معضلات الأيام ومصاعب الطريق، وبومضة من غدير العينين يتبدد الشك ويعود التفاؤل - فهل أنت الأم - يا عيشة البيّة؟ أم الوطن أنت؟ يا زمان الرجاء وملاذ الأشجان.

بوغتت البلاد بدخولها في ساحات الحرب الكونية بين المحور والحلفاء. وانتشرت في طرقات الوطن وبساحات المدن والقرى كتائب الألمان والطليان. وباتت أرضنا ميدان قتال، هدفاً مفتوحاً لقنابل الطائرات

كرجوم السماء بالليل البهيم، ومواقع المصادمة بين الدبابات من الجيوش المتقاتلة. ثم كانت الفاجعة، إذ عاد الوالد من السوق يحمل برقية من رادس تخبر بموت خاله بعد نكسة عرضية من مرض السكري. فبات منشغلاً بمن تركهم في بيت رادس من أم وبنات وأخ لهما صغير. فاستأذن أمه، وكانت ملتاعة بفاجعة أخيها الكبير، ملاذ العائلة، وركب وفي النفس هواجس من نذير شتى، لوعة الفراق وهو يترك أمه تقع من جديد في وحشة الانفراد وسط حوش العضلة. تُرى هل يمتد بكِ العمر يا عيشة الحبيبة، فأعود إليك ذات يوم أقبِّل يديكِ وأبشركِ بشهادة النجاح والاستقرار، ترى هل يُكتب لي يوماً أن أنتشلك من الغربة وأجعلك في بيت الزوجية معين الرحمة وقطب الألفة بين البنين والأحفاد. أوفي لك بالعهد وأضمد بعض الجراح. من يخبرني بما دون ذلك من عقبات السفر، في الرحلة الطويلة إلى ذلك المستقبل المأمول؟ أيّنا أطول صبراً في فسحة التطلع إلى الصبح المأمول؟ دومي يا أمّاه لذلك الموعد الجسيم. دومي لابنك ولا تتركيني بلا سند، أقر بالذنب وقد تركتك بلا رفيق عمراً مديداً، عمر المرارة ووحشة الانفراد.

دخل البيت بساحة المراح في رادس، يتقاطر عليها للتعزية زملاء العدلية ورفاق الدراسة وثلة من أهل القرية، وخلّان المعاشرة. وكان القاطن الوحيد من الذكران، عليه أن يتقبل التعازي يوم الفرق. وتولدت له في أيام العزاء، تجاه الأرملة والبنين الثلاثة رابطة من جنس غير مرتقب، شبيهة بمسؤولية القوامة وواجب الرعاية. وتلك كانت صحيفة أخرى في كتاب الأمانة، إلى جانب صحيفة الأم المهجورة بديار العضلة.

قال حامد: حضر الحاج مراسم المأتم وأيام الفرق الثلاثة، يرقبني بعين شاخصة ولا يخاطبني، ويتوجه بالكلام إلى الأرملة وإلى هالة كبرى البنتين، وشعرت كأنما أصبحت منه بأرض جدب وغربة.

هالة سائلة: ما له لم يجلب أمي عائشة إلى مراسم الموت في أخيها الكبير، وقد كانت له عندها منزلة مخصوصة؟

- حامد: عرضت عليه ذلك فأبى، وطلبت منه عيشة، فأصرّ... وسافر على انفراد.

توجه الحاج إليّ سائلاً صباح عودته إلى العضلية: ما الذي ستفعله اليوم وعليك في بيت خالك مسؤولية جديدة؟

- حامد: أعمل ما في الوسع. وسأبحث عن شغل أعين به على نفقة العائلة.

- الحاج: أرأيت لو قبلت خطة خليفة، ما كان عليك مثل مشكلك اليوم، تغنيك عن أي عمل سواها، أنت مخلوق عنيد كالبغل الحرون.

- حامد: قضي أمر هذا البرنامج، والبلاد اليوم مسرح لحرب، الله أعلم متى تنتهي وكيف، ولفائدة من ... أوكَد الواجبات اليوم حفظ العائلة والدار من ويلات الحرب، والتوسل إلى الله أن لا تباغتنا في جوف الليل قنبلة نازلة من السماء... ثم العون على إسعاف من شرَّدتهم من ديارهم في باب الجزيرة بالعاصمة ونهج سيدي البشير، وبقوا على قيد الحياة وفقدوا كل شيء.

- الحاج ممتعضاً: دائماً في غيك وطيشك، تهمل شؤونك ومصالح أهلك وتعتني بشؤون الآخرين. خلق الله لهم من يرعى مصالحهم غيرك.

- حامد: من يرعاها، ملائكة السماء أم بشر مثلي ومثلك وآخرون غيرنا؟

نظرني بعين غاضبة، وأمسك عن الجواب وحمل الخرج وانصرف إلى محطة الأرتال.

ينتاب حامداً شعور ملحّ بما أصبح ينفرد به في بيت رادس من مسؤولية، هي عنده كالسجن تارة، في زمن مضطرب بلا آفاق وحاضر مختلط بلا مستقبل، وهي في نفسه تارة أخرى وسام اكتهال، دخل عمر التكاليف ولم ينعم بفسحة الشباب. مسؤولياته الجديدة: أمٌّ هناك في وحشة العضلة، يعلم أنه ضياء أنسها المأمول، وبيت هنا بهذه الضاحية، مسكن لثلاث نسوة، أرملة وبنتان ثالثهما أخ غافل مروح، عليه أن يوفي لهم بواجب الإعالة، وللأرملة جراية معاش لا تكفي لنفقات القفة اليومية ولخلاص معاليم الماء والكهرباء ونفقات المدرسة، فضلاً عن حق البنتين في نصيب من المال لكسوة العرس وثمن الماعون من فضة الحليوي، مرش، ومشط ومرايا وطبق ومقاعد فناجين وصحونها... تأثيثها سنّة مؤكدة في أعراف العائلات المرموقة، أو ليست من بينها عائلة المرحوم الحاكم رئيس الدريبة... حاول أن تسأل عن مفضضات الحليوي، هل ينتفع أحد من الأهل باستعمالها يوماً؟ وما الداعي لتبذير المال زينة لغرفة نوم العروس يوم الدخلة... ثم تطرح بأعلى خزانة كحدائد الخردة إلى أن يسود معدنها فيتعين إنفاق مال آخر لإعادة بريقها؟

- أسرّ حامد لهالة: وقد انعقد بينهما كالحلف الضمني للتعاون على تدبير شأن العائلة: ماذا تختارين لابن عمتك أن يجلس بقاعة السهرة يلقن بعض التلاميذ أحكام المبتدأ والخبر وشعر المتنبي، أم أن يجهز على باب الدار نصبة لبيع الفلفل والبطاطة...

- هالة: أيهما أوفر ربحاً... دع عنك المزاح، فالوالدة في ضيق تجهد أن تخفيه وتعلم أن التزود ببعض المواد كالسكر والقهوة في السوق السوداء مكلف ومثقل للميزانية الضعيفة. قل لخالي محمد أن يعينك على خطة قيم في الصادقية أو العلوية... أما نصيبك من رزق العضلة...

- حامد مقاطعاً: أوهام. الحاج قد فوض التصرف في الرزق لعزيز قلبه ابنه علي ولد مباركة. وكتب له حجة توكيل على أفراد القبيلة جميعهم.

- هالة: الرزق رزقه والأجدى أن نعوّل على أنفسنا...

- حامد: رزق شيخ القبيلة، يتصرف فيه بالانفراد، كالغنيمة، لا حاجة له بالمشاورة... ولعل في ذلك خيراً يعين على التربص في الكسب والإنفاق.

ثم كان لحامد تربص من نوع آخر في إذاعة أنشاها الحزب، وجريدة يصدرها سمحت بها القيادة الألمانية، فلقد كان لوسائل الإعلام دورها في الحرب. صوت برلين يملأ الآذان كل ليلة بأخبار النصر لجيوش المحور، ويرد عليه صوت لندن تكذيباً وتصحيحاً لمواقع جيوش الحلفاء وهزائم قوات المحور في صحراء ليبيا وثلوج الأوساع الروسية. فانضم حامد إلى فريق من المتربصين لإذاعة الأخبار ونشرات الحزب، وجرب قلمه في جريدة تونس الفتاة ثم إفريقيا الفتاة. ودخل عشية يوم دكان الحلاق لطفي بساحة المدينة فبوغت بقبعة جندي ألماني على أحد الكراسي منتصبة وصاحبها بين يدي المشط والمقص يخفف من كثافة الشعر فبادر بالتحية النازية «هيل هتلر» وأجاب الرأس من تحت المنديل بل السلام عليكم ورحمة الله... وقال لطفي شارحاً: أخونا ذيب الأعظمي عراقي ضابط في جيش هتلر. كتيبته معسكرة منذ أيام بثكنة الربوة أعلى المدينة. قال العراقي وهو يضحك... ما يكو... سر عسكري لا يحق إفشاؤه.

- لطفي: أخونا حامد، عضو في الحزب، لا خوف من أن يبيع السر إلى عيون الإنكليز.

توطدت بين حامد وبين الضابط العراقي - ذيب الأعظمي - علاقة مودة وألفة وأصبح يتردد على البيت يتلذذ الكسكسي التونسي ووجبات البريك، إذا توفر البيض في السوق. وأخذ ضيفنا يزودنا بأرطال من القهوة

اليمنية الصافية ومن كيلوات السكر وأقراص الشكلاطة، وقد أنسانا التقسيط التجاري نكهة القهوة، بما كان يباع في السوق من خليط شعير مقلي مع حبات قهوة. وغدت للضابط العظمي منزلة وعناية عند ربة البيت، وكان يخصها بالملاطفة، كأنما وجد فيها ريح أمه في البصرة.

أما هالة فكانت لا تخفيه استغرابها من تطوعه في الجيش النازي، مع ما يعلمه من عنصرية الألمان العرقية التي لا تفرق بين اليهود والعرب في معاداة الجنس السامي. وكان حامد يعجب لتعاطف الألمان مع الطليان، خصوصاً أن زعيم الفاشية موسوليني لا يفتأ ينادي في خطبه الإذاعية باسترجاع تونس وكرسيكا لحوزة الإمبراطورية الرومانية الخالدة، وكان ضيفنا اللطيف يتحاشى الرد والتعليق على هذه الاعتراضات الغضبية ويكتفي بالقول: الأمر متوقف على نتيجة الحرب. قد تتغير أمور كثيرة.

حان ذات يوم رحيل الكتيبة الألمانية من ثكنة الربوة، وجاء الضابط العراقي يودع، وحمل كيساً عامراً بالقهوة والسكر والحلوى والشكلاطة. وأقبل على الوالدة يقبل يديها متأثراً، فضمته إلى صدرها، وهي تدعو أن يحفظه الله من ويلات الحرب ويبقيه لأمه... ترك فراقه كآبة في البيت، كأنما فارقنا أحد أفراد العائلة.

جاء الوالد إلى الدار على غير موعد، وبعد العشاء خلا بالأرملة لحديث طويل... ولما جلسنا حول مائدة القهوة الصباحية، أعلن عن اتفاقه مع أم تراكي بإبرام الزواج بين هالة وحامد، حفظاً للأعراض من الأراجيف، وإعطاء المساكنة طابع الشرعية، وخصوصاً أن البنت الثانية ناجية مخطوبة لموظف بريد أصيل الوردانين اسمه عبد الله، أضحى هو الآخر يتردد على البيت. ووعد الحاج أن يبعث بخروف سمين لوليمة العرس.

ولم يلتفت إلى رأي الأم إذْ إنَّ العرف يقتضي التبرك بلحم الحوت لوليمة العشاء. وأخبرت في حديثها مع حامد وعبد الله والبنتين، أنها

تفضل إبرام الزواج في البيت لا خارجه، وأن الحفل يقتصر على عشاء عائلي يدعى إليه أقرب الأقارب، ولا موسيقى ولا أطباق بقلاوة نعلم جميعا أننا لا نملك فرنكاً واحداً لتمويلها. ثم إن وفاة الحاكم صاحب البيت لم تمر عليها سنة كاملة... وقبلت البنتان برأي الوالدة، شريطة أن تتزين كلتاهما لمأدبة العشاء والسهرة بلبس الفوطة والبلوزة المطرزة، من مخلفات الوالد.

أبرم العقدان في يوم واحد على أيدي شاهدين عدليين، ووقع الاتفاق على تاريخ ليلة العرس، وحضر الحاج وخروفه السمين في الموعد، ولم ير أن يصطحب زوجته عيشة لتشارك ابنتي أخيها وابنها فرحة القران، متذرعاً بمصاعب السفر زمن الحرب، وأنه يعد بإقامة حفل كبير في دار العضلة، إذا انفرجت أحوال البلاد... وانطفأت الشموع على مائدة العشاء، وقد تناوب حامد وعبد الله على إضفاء جو المرح على سهرة مهددة بالقتامة وجدية كسب نصف الدين. ومن الغد غادر الحاج إلى القرية... وبقي جلد الخروف منشوراً في حديقة البيت يتجفف.

لم تهضم هالة غياب عمتها عن يوم فرحتها، ولا كظم حامد امتعاضه من ذلك الحرمان. فاتفق العروسان على الذهاب إلى العضلة وتشريك عيشة في فرحة العرس وإقامة وليمة عشاء تتزين فيها هالة بكسوتها الفاخرة. وبوغت الحاج ذات صباح بسيارة أجرة تقف على باب الحوش تنزل منها هالة ويتبعها ابنه حامد يحمل حقيبة كبيرة... وأخبرته هالة بجرأة التحدي أنهما قدما لإعادة الحفل بمشاركة عمتها العزيزة وذكّرته بوعده في دار رادس وذبح خروف آخر، وتعاونت على الطبخ الخضيرية، وهالة، وقد حرمت على عمتها أن تمد يدها للموقد ولا أن تذوق ملح القدر، قائلة لها مراراً: يا عمة الجفل لك وأنتِ يا ملكة الحوش... ومدَّت المائدة وقد أصرت هالة على أن تتزين بكسوة العرس، واستجاب الحاج لإلحاحها

فجلس إلى المائدة يشارك النسوة جذاذات اللحم ولقمات الكسكسي. وكانت الخضيرية المسكينة لم تشهد مثل موقفها تلك الليلة أن تقابل الحاج على القصعة، ويتحرك شدقاها أمامه بالمضغ والبلع. يا فضيحتها. فلم تصب من العشاء سوى ملعقات قليلة على حين غفلة من الحاج تسدل جانباً من الخمار على فمها تستره... ثم خرج الحاج إلى سطيحة الكتاب، وانتصب البراد ودارت كؤوس التاي من بقايا هدايا الضابط الألماني، وتزينت الكؤوس باللوز والفستق. واستمرت إلى ساعات متأخرة من الليل سهرة ما عاشت مثلها عيشة ولا الخضيرية. كأنما نزلت السكينة على الركن المهجور من الحوش، وانحطت عن النفس أثقال قديمة ورقصت في سماء الدار أنجم الانفراج. ودار حديث هادئ كالمناجاة.

- عيشة، تخاطب هالة: العقد بينكما أقدم من دفتر العدلين، عمره قدر عمرك أنت وعمر حامد.

- هالة: كيف ذلك يا عمة؟

- عيشة: يوم ولدتك أختي تراكي، كان عمر حامد أسبوعاً أو عشرة أيام، فلما جاءت إلى جدك الإمام برقية رادس تبشره قال لزوجته صالحة بمحضر الحاج: نكتب هذي البنيّة لذاك الصبي.

- حامد: هل استشارك أنت يا أميمة...

- عيشة: لم يألف الوالد الإمام أن يستشير أحداً في ما يراها مصلحةٌ أمَرَ بها الدين.

- قالت هالة ضاحكة متوجهة إلى حامد: محكوم عليك في الأزل أن تربط عنقك قلادة الزواج. قضاء رباني وقرار سيدي الجد الإمام.

- الخضيرية: ما هو خير منها يا بنيتي؟

وقبل النوم اختلت عيشة بالزوجة هالة ودار بينهما حديث لم يسمعه حامد، وسألها بعد أيام عن سر ذلك الحوار، فقالت:

- هالة: أوصتني عمتي عيشة إذا رزقها الله وليداً ذكراً أن نسميه محمداً.. تبركاً برسول الله. أخبرتني أنها لم تفتأ تتوسل إلى الحاج أن ترافقه إلى الحرمين لأداء فريضة الحج. وكادت أن يدفن اليأس لوعة الشوق إلى الكعبة وقبر الرسول.

وانعقد العزم في نفس حامد يوم أخبرته هالة أن يوفي هو لأمه بما حرمها منه الحاج، إن انتهت الحرب وتوفر له المال، فيحج مع عيشة وهالة.

ودقت ساعة الرجوع إلى رادس، ورافقتنا عيشة تشيع هالة، ولا تبرح تعانقها وتقبل شعرها الجعد، ثم دست في كفها خمسة من ذهب نزعتها من قلادتها، وترد هالة متمنعة:

- هالة: لا تحرمي نفسك من هذه القلادة يا عمتي.

- عيشة: خذيها يا هالة لقد أهديتني يا بنيتي ليلة هناء ستظل سهرتنا البارحة أغلى في النفس من قيمة كل قلادات الذهب.

توالت الهزائم على قوات المحور، وقد غامر هتلر بتفريق كتائبها المصفحة وأسراب طائراتها النفاثة في مواقع متباعدة؛ أدناها في الصحراء الكبرى بين ليبيا ومصر، وأقصاها في صحراء الثلوج الروسية وحول قاعدة لينينغراد. وتعددت الانتفاضات الشعبية بالعديد من الأوطان الأوروبية ضد الاحتلال النازي، وباتت جزيرة إنكلترا هدفاً متجددا بالليل والنهار لأسراب الطائرات الألمانية تمطرها كل حين بعناقيد القنابل المدمرة، وضرب الشعب البريطاني مثلاً فريداً في الاستماتة والاستنفار، وباتت عاصمة لندن ملجأ مقصوداً لأقطاب المعارضة الأوزوبية. واستقر بها فيمن استقر الجنرال الفرنسي شارل ديغول زعيماً للمقاومة، ورمزاً لاستمرارية

الجمهورية الفرنسية مبرأة من خيانة المارشال بيتان. وتعززت قوات المقاومة بدخول الولايات المتحدة إلى ساحات الحرب في أوروبا وفي بلاد المغرب وترجحت الكفة بصورة حاسمة ضد قوات المحور.

انجلت عن ديارنا فلول الكتائب الألمانية والإيطالية، وعادت السلطة الفرنسية العسكرية إلى الانفراد بالحكم في ظل الرعاية المتسامحة من الحليفين البريطاني والأمريكي. وتمثل بطشها الانتقامي في خلع المنصف باي عن الحكم في تونس وخلع السلطان محمد الخامس عن عرش المغرب، واقتراف مجزرة دامية بمدينة سطيف الجزائرية ذهب ضحيتها آلاف الأبرياء من النساء والأطفال.

كان فريق من رموز الحزب عُرفوا بالولاء للقيادة النازية في تونس وبتجدد الاتصال مع السلطة النازية، فكان لزاماً التعجيل بإجلائهم حتى لا يقعوا في قبضة الحكومة العسكرية الفرنسية. فخرج أبرزهم لاجئين إلى إسبانيا، ومصر وإندونيسيا والأرجنتين وغيرها من الأمصار البعيدة، وخاف حامد أن يفتضح أمره وإن لم يكن من الناشطين في الصفوف الأمامية، ولكن علاقته بالضابط العراقي وتردده على البيت كان مدعاة كافية إلى الخوف من وشاية عميل.

وسنحت فرصة غير مرتقبة، فنجح في مناظرة الإذاعة الفرنسية بتونس لانتداب مذيع مترجم، يتولى إذاعة نشرات الأنباء بعد ترجمتها من جذاذات الوكالة الفرنسية للأنباء، فأصبح يعمل بمصلحة تابعة لسلطة المقيم العام الفرنسي، ويتقاضى جراية قارّة لم يكن يحلم بمثلها. وكان يستأنس في النشرات الصباحية برفيق متخصص في الفلسفة العربية اسمه: محجوب؛ غزير الإلمام بالمقارنات مع المفكرين الفرنسيين وغيرهم من أقطاب الفلسفة الغربية. فحرص حامد على ملازمته خارج أوقات العمل واستفاد من علمه حصاداً واسعاً. أما رفيق نشرة الظهر فمن متساكني

رادس، اسمه عبد العزيز العروي، كان صحافياً متميزاً، غزير المادة رقيق المعاشرة مرح الفكاهة، له حصة يومية يروي فيها بلغة تونسية مهذبة أقاصيص وحكايات فكهة لا تخلو من مغزى بليغ، وكانت حصة العروي من أوسع البرامج انتشاراً ومن أحبها عند الناس استماعاً؛ لكل الأعمار فيها متعة، وللكبار موعظة وعبرة من قيم الأخلاق وشيم المروءة.

ما انفك يسكنه الإصرار على تحقيق ما حدّث به أمه عيشة من العزم على مواصلة التعليم العالي. وقد شجعه على إصراره حواراته الشيقة مع رفيقه المحجوب، وعلمه بأن عدداً من خلّانه التحقوا بجامعة الجزائر، وغامروا بالمجاوزة إلى جامعة نيس أو منبلاي. تلك عند جيله كانت ضرورة تاريخية لا بد من أن تتحقق، وينجلي الصبح عن غشاوة هذه الأيام العابسة.. وكان يشعر بما دون ذلك من عقبات هي من نصيبه هو دون أقرانه مثل مصطفى طالب الطب بالجزائر أو عز الدين طالب الهندسة في جامعة نيس.

فهو زوج ملتزم بعقد الزوجية، وبواجب القوامة في بيت آوته من أول أعوام الصادقية ولدى أرملة عوضته من العناية ما فقده بمفارقة أمه. ثم إن له مع بعض رفاق الشعبة الدستورية مسؤولية أخرى، لا يراها تفترق عن رعاية الأهل في دار رادس وفي البيت المهجور بالعضلة. هذه وتلك مختومتان بطابع الالتزام والوفاء. أعلى من الذات مقاصدهما وأوسع مدى من العمر، وأبقى شرفاً من حصاد المنافع العاجلة...

وفجأة تتلبد قتامة العيش يوم أُبلغ بموت أبيه عن غير مرض أقعده، وتم دفنه بمقبرة القرية قرب ضريح مانعة، فهل تأخر النعي بسبب خلل في تلغراف البريد بالقرية؟ أم كان ذلك التأخر عمداً مقصوداً من أخيه الوكيل على الرزق... لا يهم ذلك. الأهم منه أن عيشة البية باتت في دار قفر، انغلقت عليها وحشة الانفراد وهي بحاجة إلى النجدة ولا نجدة من غير

وحيدها. لم يكن من اليسير السفر على عجل إلى القرية للوقوف على قبر أبيه، ولكنه لم يتردد، يهتز الشوق إلى الجبين الناصعة وإلى غدير العينين الباكية والثغر المضموم، فاستأذن من المدير الفرنسي التغيب يومين وركب القطار.

وقف على رأس القبر يبسط يديه بفاتحة الكتاب، ويسائل نفسه مساءلة كالمحاسبة: ما الذي جعل علاقته مع أبيه تنقلب إلى فتور، وتخمد حمية العاطفة الطبيعية وقد ظلت دهراً طويلاً ترمي به إلى أحضان والده كلما رحّب بمقدمه إلى دار رادس، يتبرأ من أن يكون هو الذي اختار أن يطفئ شمعة الشوق، وهو لا يبرح واقفاً على رأس الضريح يتلو خواتم سورة المُلك... ومن حيث لا يقصد ارتبطت هذه البرودة بجدل الافتراق بينه وبين الحاج بسبب مشروع المستقبل، ونجاحه في الباكالوريا. وكانت هذه الشهادة عند والده محطة الختام لرحلة التعليم والإنفاق، وما هي عنده إلا نقطة الانطلاق لمرحلة أوسع في الآفاق الرحبة لمصيره هو ومصير جيل اختار ألّا يرضى.

حاول حامد أن يجد مبرراً لموقف والده وابنه محمود من حصوله هو على الشهادة، وأن يلتمس لهما عذراً في اعتبارها سلعة لصفقة رابحة ينبغي أن يعود ربحها على العائلة كلها، فيرضى بخطة خليفة إشباعاً لطموح الحاج في الوجاهة والاحتماء من بطش السلطة المحلية، ويرضى بخطة مترجم في إدارة المراقب المدني، إرضاء لطموح محمود في إنشاء مربط بقرات هولاندية والتحرر من مسحة الزيتون.. ولكن طموحه هو، صاحب شهادة الباكالوريا، أين مكانه وسط هذه الخريطة المزاجية، وطموح جيله من أبناء الصادقية والزيتونة؟ هل له في سوق المزايدات من نصيب أو حساب، وطموح والدته عيشة البيّة أن ترى وحيدها يقتفي آثار أخيها رئيس المحكمة؟

عاد حامد إلى دار العضلة وهو لا يزال يجهد أن يفهم سبب ذاك الافتراق بينه وبين أهله، وارتأى أنها لا تكفي في تبريره الدواعي النفعية. ذاك تأويل سهل. بدا له وهو يصل إلى البيت أن الفجوة من جنس ثقافي، وأنها لكل ثقافة طموح تؤصلها. فهو قد ارتوى طموح الآفاق البعيدة، من أول درس لأستاذه علي البلهوان في الصادقية، ولا إشباع لذاته بسوى ذلك الطموح يحققه أو يتسلق إلى ذروته. أما والده الحاج وأخوه محمود فكلاهما مشدود إلى طموح الثراء المادي للإفلات من هوة الفقر، واللحاق بمراتب الوجاهة.

وترك هذه التأويلات النظرية وقد أقبلت عليه أمه عيشة واجمة مقطبة الجبين صامتة وملامحها كلها ناطقة بما يسكنها من حيرة.

صدعه الخبر عشية، بعد العودة من مقبرة مانعة، إذ أعلمته الخضيرية بما شهدته من فعلة علي ولد مباركة. رأته يدخل حجرة الوالد، ويصعد السدة فيفتح الخزانة فوق وسائد المضجع، كان الحاج يدس فيها محفظة الأوراق والنقود ودفاتر الشركات بينه وبين فريق من الخلطاء في الحرث والماشية، وأموراً أخرى من خاصة شؤونه. جاست أيدي علي بين ما حوته الخزانة ثم ظفرت بصرَّة مربوطة في خمار من حرير، فأخرجها وجمع المحفظة والدفاتر والأوراق في صرة أخرى، ونزل ولد مباركة وبيمينه صرّة الحلي من رزق عيشة وصرة أخرى تعلم الخضيرية، ما أخبرتها به عيشة من أن الصرة تحتوي على خلالين فضة، وقلادة مزينة بخمسات ذهب، وسوار من أربع حلق من فضة، وعلى خاتم وقرطين من ذهب. حمل علي غنيمته يضمها إلى صدره، وعبر أمام عائشة جالسة بركنها تبصر صامتة متجمدة.

تلك الحلي هدية من الحاج، لها قصة روتها عائشة لابنها وقد حدثها يوماً عن البحر. ذكرت أسابيع الصيف التي قضتها في عليوة تطل على الشاطئ قرب السقيفة الكحلة من مدينة المهدية. جادت السماء

بمطر غزير في ربيع تلك السنة، ولم تر الحقول مثل حصادها من القمح المحمودي المكتنز ومن الشعير، ولا حفلت بمثل قطافها أغصان الخوخ والتين وداولي العنب. وكان للحاج صديق من المهدية، شريك له في تجارة الزيت. نصحه بأن يدخر من فيض تلك السنة الاستثنائية ما يحتاط به لما يعقبها دوماً من أعوام الجدب، وأشار عليه أن يفعل ما يفعله أهل المهدية من الادخار في حلي الذهب والجواهر، وأعانه على الشراء عند صائغ من خلطائه الأمناء. ثم عرض عليه صديقه المهداوي أن يستضيفه لبعض أسابيع الصيف في عليوة يملكها قرب الشاطئ رداً جميلا لما أكرمه به الحاج من ضيافة بذبائح الخرفان. تتذكر عيشة، وتبرق للذكرى عيناها، إنها كانت ليلة وسيمة لا كمثلها ليلة، إذ رافقها الحاج إلى البحر، فانغمس هو في اللج الرقراق بسرواله وانغمست هي إلى الحزام في ملحفتها الحرير الحمراء، وسكبت من الماء على رأسها وكتفيها وقد انفلقت من صدرها ضحكة من طفولتها البعيدة، كان ذلك أول عهدها بالبحر وآخر صلة بين جسمها وموجه المالح.

ما كان لحامد أن يذهب لحجرة علي فيطالبه باسترجاع صرة حلي هي من خاصة رزق أمه، ولها فيها مربط لأطيب ذكريات شبابها. فأخوه مؤتمن على الرزق كله، زيته وماشيته وحلي النسوة وما حوته المطامير. وبين يديه حجة عدلية بتوقيع صاحب الرزق. ولا قيمة عنده لحكاية الذكريات الشخصية لأرملة الحاج... هذا الحلي من الإرث المشترك، ولكل واحد من الورثة فيه نصيب. وللذكر مثل حظ الأنثيين، كما يقضي به الشرع... وهو على كل حال رجل أمين قد استخلفه والده «ألا يبخس الناس أشياءهم» وسوف يتولى قسمة المخلف على يدي عدل عالم بالمنابات حسب أحكام الفريضة.

امتعاض حامد مما أخبرته به الخضيرية، مأتاه الأقوى من جنس أخلاقي، لا يوزن بميزان قيمة الحلي المسروق. وأمه لم تسمح لها الفرصة من قبل لتتزين بقلادة ولا بخاتم أو سوار، وحليها ذلك من متاع الذات وزينة الأيام، حلة لأطيب ذكرى تمتعت فيها عيشة بنت المؤدِّب ببعض حقها كإنسانة تفرح بغمس جسمها في البحر في ليلة مقمرة. تلك قيمة ما سرقه ذلك اللص الغبي، وذلك أدعى إلى الاحتقار والمؤاخذة عند حامد من خيانة مؤتمن على رزق أرملة ويتامى.

أيقن حامد أن والدته لم يبقَ لها مقر حرمة وملاذ بهذا الحوش القفر بين أهل لا يرعون قيمة لأخص خصائص الذات، في ضعفها لديهم مطمع. افتراقٌ عن عصابة الأهل وخرقٌ للأعراف المعايشة في الحوش... فشاورها ثم جمع متاعها على عجل، ثم ركب وإياها سيارة أجرة، بعد أن اقتلعها من ذراعي عشيرتها الخضيرية اقتلاع دموع وحسرة. وأدخلها في دار جده بالقرية حجرة نظيفة بجانب حجرة أخيها محمد الصالح. وأيقن أنه آخر عهده وعهدها بحجرات ذلك الحوش القفر بسانية العضلة، موطن الإنكاد وركن الوحشة، لأعز مخلوق عاش فيه ثلاثة عقود من أيام الصبر والرجاء.

أيقن حامد أن الرابطة انفصمت بينه وبين أهل الحوش، وقد أصبح عندهم، بعد موت الحاج، كالبعير الأجرب. ولكن أيظن أن لا حرج عليه من قطع الصلة قطعاً هيِّناً بذلك الأفق الأليف رافقه وإياها دهراً في أخص الهواجس والأحاسيس، وكان لأمه عش حياة وبيت قران وإنجاب. كسبت في رحابه وكسب حصاد أحاسيس أرسخ من دهان الذاكرة وأعلق من رسومها، كأنما امتزجت بالذات الخضرة اللماعة لورق الزيتون، والتربة الرخوة بمجلسه عند جذع الخروبة، ولين أعراف العنب تنحني للعرجون

المبلل بندى الفجر، وبرد نسيمة الليل تمسح عن الخد حرقة القائلة المتلألئة.

من ذلك جميعاً زادٌ ملازم للنفس يطبع بطابع التأصيل كل وعي بأي من المحسوسات المبتذلة. ترى للجمادات من حولنا لغة تكسبنا ألفة العشرة لفهم خطابها، فإذا بها للناظر في الأفق المألوف ألسنة حوار، من ألوانها وأشكالها، وفي أخشابها وحجر البناء. يا صومعة الحجر المرصوف بأعلى الصحن من جامع عقبة، حدثينا بمفاهيم العزم وإرادة الغلبة في النفس الغازية من جيل البُناة. وأنت يا عرصات بيت الصلاة وسط الزيتونة، خبرينا عمن أسندوا إليك ظهورهم، من أجيال العلم والورع، وما أطيب شذاك يا سوق العطارين تحت سقفك المقوس تتضوع مكنونات صناديق الأعراس. نفسي فداكِ يا حجرات الصادقية صفاء رخام الواجهة وعرصاتها، وتوازن الأقواس من حول درجات المدخل. دهراً لذيذاً من أطيب أيام العمر ظلت قبابك منارة هداية بربى القصبة. أجيال من شباب الشوق ظلت تصعد إليها من كل نهج... بمثل هذا الجدل الفصيح أتوسل إليك يا وطني. هل إن حبي لك ساكن في صمت الحجار والأقواس، ممزوج بعطر الألفة في كل سوق من أسواق حواضرنا؟ إذ مررت بجدرانِك، يا زيتونة المجد، حركني صوت الأذان يشهد بعراقة الإسلام في أرجائك يا تونس، وإذا صعدت إليكِ يا قباب الصادقية، انتفض صوت خير الدين يحرك العزم إلى الحكم الرشيد، ما أفصح شواهد الأرض لأصالة مجدك يا وطني؟ فهل إن مسؤولية الطموح تكمن هنا تدعو أن نوقظ في النفس الصمت المدفون تحت طبقات ضروريات العيش أن الوطن حمّال أمانة، جذورها متعمقة بين العرصات في أديم الزيتونة وأفنانها متسلقة لنداء الصعود مع صومعة الصادقية، وشذاها عابق بكل سوق عتيقة.

عاد إلى مصدع الإذاعة ونشرة الأخبار الصباحية، واستأنف مساهماته في جريدة الحزب، ينشر فيها باسم مستعار، خوفاً من بطش مستأجريه الفرنسيين، وعادت هالة تلح عليه أن يلتمس لها خطة تدريس بإحدى المدارس الابتدائية. فقد ضاقت ذرعاً بفراغ الساعات نهارها وليلها، وتاقت نفسها أن تشارك بقسط ما في العمل الوطني. فكانت تلقاه كالفرس المكبل يتململ لفك العقال. وصادف أن وقع تعيين أحد أساتذته في الصادقية كاهية للمدير الفرنسي على رأس إدارة التعليم العمومي، فرحب بمطلب هالة وأذن بتكليفها ببعض النيابات من إحدى مدارس العاصمة ووعد بترسيمها في فاتحة السنة الدراسية الموالية.

الرحلة إلى القرية صحبة العروي كانت عنده مناسبة طيبة لتجديد اللقاء بالوالدة. وقد اعتاد زميله العروي أن ينظم رحلات دورية إلى القرى، يحتشد الناس حول سيارة الإذاعة، فيتلقون من أبواقها السرد القصصي ويتفكهون بما يروي لهم العروي من أخبار العهود السابقة ومن أساطير الذاكرة، ويروي حامد لصديقه المحجوب ما كان يعلمه العروي من المقاصد المسكوت عنها لشواهد المروءة والمجد بمثل هذه الندوات الشعبية. ازدواجية الخطاب في إطلاق العنان لممارسة قدر معلوم من حرية تحت الرقابة، أغراضها واضحة للتلهية وصرف العناية عن الشؤون السياسية، ثم إن القصد من وراء هذه اللقاءات الشعبية حول سيارة الإذاعة هو البديل المقابل لاجتماعات الشعب الدستورية الممنوعة.

في يوم السوق الأسبوعي في القرية كان الشارع الوسطي يحفل بالوافدين، وتكتظ رحبة الدواب بتجار الماشية، ويتقاطر على مكتب الخليفة أهل الحاجة والتخاصم. وانتصبت سيارة الإذاعة أمام ساحة البريد، وانطلق من البوق صوت العروي، ولكن الناس كانوا في غفلة، مشغولين بأمر آخر، يظهر أنه يعنيهم جميعاً. واستنكر حامد هذا الإحجام

واعتذر للعروي وهو يصاحبه إلى دار خاله للغداء. ولما عادت السيارة إلى وسط السوق ونزل حامد يسلم على بعض معارفه تحلق حوله حشد عديد من الناس، يتصايحون:

- أيرضيك هذا يا ولد الحاج، أتسكت عن الإهانة وأنت نوارة القرية؟

- قال العروي: هيا يا سي النوارة، انظُر ما في الأمر، ولا تبطئ فالعصر قريب والطريق طويلة.

توجه حامد بالسؤال إلى من نعته بأنه نوارة، وعرَّفه بابن الحاج.

- حامد: ما هي الإهانة وعلى من وقعت؟

- العدل النفاتي: هذا الخليفة ولد القيروان مبعوث من المراقب المدني في سوسة ومكلف بجمع الأسلحة.

- حامد: أي أسلحة، هل في القرية معمل سلاح.

- العدل: الأسلحة من بقايا الجيش الألماني، وقد رابط هذا الجيش في دير الجبل شهراً. ثم رحل، يظن السيد المراقب أن الألمان زودونا بالسلاح، وخاف أن يقع بأيدي الدساترة.

- حامد: ذلك واجب المراقب، ومن سياسة المقيم العام يتولى المراقب تنفيذها وأوكل ذلك إلى الخليفة: شيء طبيعي.

- أحد الحاضرين: ولكنه لم يوكل له أن يبتز منا أموالنا ويهين كبارنا.

- حامد: لا أفهم، كيف يفعل ذلك.

- العدل: تعال معنا إلى دكان الصفاقسي يحدثك الشيخ الشرميطي كيف خبطه الخليفة بالسوط على أعين الناس.

- حامد: عجباً، الشيخ الشرميطي، رجل كبير في السن، كان عشير الوالد رحمه الله، رجل هادئ لم يسمعه أحد يوماً يرفع صوته.

ودخل الحانوت مع نفر من المتظاهرين يتقدمهم العدل النفاتي، فإذا بالشيخ الشرميطي ممدد على زربية متدثر في البرنوس، استوى جالساً، فأكب عليه حامد يسلم.

- يا شيخ، كيف الحال؟

- الشرميطي: على سلامتك يا ول عشيري الحاج، جاء بك ربي في هذا النهار المنكود.

- حامد: حدثني يا عمي بما جرى.

- الشرميطي: هذا الخليفة جاء بدعوى جمع السلاح الألماني ويعلم الجندرمة الفرنسيس في القرية أن الحكاية باطلة، وأن كتيبة الألمان رحلت بسياراتها وصناديق سلاحها، ولم تترك منه قطعة. فلما فشل الخليفة في جمع أسلحة الألمان عمد إلى بنادق الصيد يفتكها من أهلها. ومن يمتنع عن تسليمها يزج به في السجن. تذمر الناس من هذا الظلم وكادت أن تقوم فتنة. فرأيت أن أخاطبه في ذلك وأسأله أن يلطف بالعباد. وقلت له: بنادق الصيد ليست من أسلحة الحرب لا يملكها الألمان. فهم لم يعسكروا بأرضنا لصيد الأرانب.

وغضب الخليفة من قولي وعدَّه استهزاءً بالسلطة وقد ضحك منه نفر من الناس يستمعون. وما كان من ولد القيروان إلا أن رد عليّ باللعنة والسباب أستحي أن أعيده على مسمعك.

- فقلت له: استحي من شيبتي، فأنا في سن والدك وكفَّ عن الظلم فما لهذا أرسلك المراقب المدني. عند ذلك استشاط غضباً وأمسك سوطاً كان بأيدي أحد الحجاب وأهوى بها على عنقي وظهري.

وكشف الرجل عن ظهره تحت الجبة والقميص فإذا بخدوش حمراء تخط جلده بين الكتفين.

خرج حامد من الدكان بعد أن وعد أن الأمر لن يقف عند حد السكوت والغفلة، وأنه باذلٌ جهده ليرفع عن أهله سياط هذا الظالم الجهول. وعاد يسير قاصداً السيارة يتساءل محتاراً. ماذا تراه فاعلاً لردع هذا المتجبر الأحمق، هل يركب السيارة إلى جانب العروي، ويرجع الأمر إلى التشاور مع بعض الإخوة في الحزب. ألا يعتبره الأهل فراراً من مسؤولية ينتظرون منه أن يحملها، ألا يكون عندهم ضرباً من التسويف كشأن من يعجزه الحل فيلقي بالمعضلة في سلة الزمان المقبل: اليوم خمر وغداً أمر. هل هذا الحل يليق بمشاعر الالتزام الوطني؟ هذه يا حامد تجربة في امتحان الصدق. هي ساعة الحق، لا يجوز السكوت عن هذه الإهانة التي له فيها مع أهله نصيب. ولكن كيف ؟ بأي طريقة؟ والتفت فإذا السيارة رابضة أمام مكتب البريد. فانقدح في نفسه أن الحل العاجل هو إرسال برقية احتجاج إلى أسياد هذا الموظف المستأسد على الضعاف من المواطنين، بمنقطع قرية منعزلة. ودخل المكتب وتناول مطبوعة البرقية، وكتب بخط يده وبلغة فرنسية هادئة قدر الإمكان عبارات الاحتجاج والإنذار من اضطرابات وشيكة... وأرسل ببرقية إلى المراقب المدني في سوسة، وأردفها بثانية إلى رئيس المجلس الكبير، وبثالثة إلى ديوان المقيم العام في تونس ودفع ثمن البرقيات، ثم أخبر العدل النفاتي بما فعل، وودعه وركب السيارة إلى جانب العروي، عائداً إلى تونس وبنفسه مزيج من الرضى والإشفاق.

وبعد العشاء حدّث هالة بما كان له من مغامرة في القرية، يقف فيها للمرة الأولى وجهاً لوجه ضد السلطة الحاكمة. فقالت له مازحة: لو بقي عمي الحاج في قيد الحياة لأنكر عليك اهتمامك بشؤون غيرك من الخلق وقلة اكتفائك بشؤونك الخاصة.

- حامد: ولكنك تعلمين أن ليس لأمثالنا شؤون خاصة، فيما نحن فيه بهذا الوطن العنيد، وهذا الزمن الأغبش.

- هالة: هذا الزمن الأغبش، - كما تقول - يحكم على قرية معزولة أسفل الجبل أن تكون غنيمة بأيدي خليفة يبطش بأهلها لا يرعى لكبارها ذمة.

- حامد: ولمثلها كان يروم الحاج أن أرتهن المستقبل وأنهي الطريق، فأقنع بخطة صنيعة رهن إشارة جبار عنيد، برقياتي هذا اليوم بخط يدي وتوقيع اسمي صك مصالحة مع النفس وبراءة من الخيانة...

- هالة: أي خيانة؟

- حامد: بيني وبين حصان أمي، يتسلق سفح الخروبة.

انفلقت على رأسه العاصفة من الغد، وكان بغرفة المصدح عقب نشرة الأخبار يترنم مع المطربة صليحة في أغنية «يا خيل سالم باش روحتولي»، دعاه إلى مكتبه المدير الفرنسي للإذاعة. كانت العلاقة بينهما تتجاوز ضوابط السلّم الإداري، بفضل ما كانا يشتركان فيه من الولع بشعر «بودلار» و«رانبو». وقد اكتشف الفرنسي أن للمذيع التونسي إعجاباً كبيراً بقصيدة «المقبرة البحرية» للشاعر بول فاليري، وهي عنده من أحب قصائد الشعر المعاصر.

- المدير: فعلت ماذا بالأمس يا مسكين؟

- حامد: بماذا تريد ان أخبرك من جدول الساعات الثلاث لرحلتي مع العروي، زيارتي للوالدة، أم غداء الكسكسي بلحم الضأن أم حديثي مع نفر من الأصدقاء حول براد التاي باللوز؟

- المدير: لم يكن حديثاً بريئاً، بل تحريضاً على الثورة ودعوة إلى إخفاء السلاح الألماني ذخراً للمواجهة مع قوات الأمن.

- حامد ضاحكاً: من أين لك بهذه الخرافة الملحمية؟

دفع المدير بين يدي حامد ورقة مطبوعة يعلوها خاتم رسمي رهيب، رسالة صادرة عن الديوان العسكري للمقيم العام يأمره بفصلي عن العمل حالاً، باعتباري محرضاً على العصيان والخروج عن أمن الدولة.

- حامد: يا لعجب الاختلاط بين المأساة والملهاة، كما في مسرحيات «موليار» ويا لفعل الخير من سخرية ولمبادرة النصح... فعلة بسيطة بساطة مبكية، شهدت فعل ظلم وإهانة زائدة عن موضوع المهمة عند خليفة القرية، فبعثت ببرقيات إلى من يهمه الأمر.

- المدير: خبرني بصدق، فإن عجلة البحث العسكري إذا تحركت لا تدع سريرة من حياة إلا فتشت فيها وقلبتها على أوجهها لتجعل منها قرينة اتهام.

- قال حامد: قصصت عليه ما لم يكن قصة، ظلم وتهور من موظف أغضب جمهور قرية في يوم سوق، كان ينذر بفتنة. فأبرقت لرؤسائه أحذرهم، وحملت في ذلك مسؤوليتي الشخصية. وإلى من توجهت يا ترى، إلى أعداء فرنسا أم إلى أعلى رمز لسلطتها الحاكمة في العاصمة. على مثل فعلتي كنت أستحق الشكر. فإذا بها تنقلب جريمة أفصل بسببها عن العمل، وأُحال على محكمة عسكرية.

- المدير: جريمتك ليست من جنس أخلاقي، ولا هي مخالفة قانونية، فعلتك كالحصى وقعت بين دواليب المحرك فأفسدت عليه دورانه.

- حامد: لم أفهم؛ فدوران المحرك ليس قضاءً ربانياً. قد تفسد من ذاتها.

- المدير: أنت تطاولت على هيبة السلطة وأدخلت على برنامج عملها ما لم يكن في الحساب، وصاحب القرار يا حامد، تأبى عليه هيبته أن يباغَت برأي مخالف حتى ولو كان صواباً.

- حامد: كنت اعتقد ان صاحب السلطة في دولة ديمقراطية كدولة بلادك يتسامح مع الرأي المخالف ولا يحسبه جرما.

- المدير: ذلك من المفاهيم المثالية في كتب «مونتسكيو» .. ما نحن فيه شيء آخر، نظام عسكري صارم، بأرض شملتها سلطة عدوة، وبرقيتك في نظر هذه السلطة لها دلالة سياسية، هي التشكيك في سداد القرارات عند صاحب السلطة واتهامه بالغلط. وهذا خدش للهيبة. أما خليفتهم فشأنه في القضية كعود كبريت يشعل نار الموقد ثم يلقى به وسط لهيب الحطب.

- حامد: ولكن فعلته أشعلت بالقرية حريقاً كاد أن ينفلت معه الأمن.

- المدير: الحريق أنت أضرمت ناره وستكون أول ضحاياه، وللسلطة الفرنسية في هذه البلاد من الوسائل ما لا يزعزعها عود كبريت.

- حامد: من أين للمقيم العام بقرائن غير نص البرقية الموجهة إلى ديوانه.

- المدير: تقرير أحد مشائخ التراب يظهر أنه جمع ضدك من الشهادات ما يكفي محكمة سوسة من قرائن الإدانة.

وأضاف المدير بعد برهة صمت: ابحث لنفسك عن محامٍ قريب من السلطة فإني أشفق عليك من قساوة المحاكم العسكرية.

كان المدير مثقفاً يسارياً ينتمي إلى اليسار المسيحي المنتشر في منطقة «بروفانس» بجنوب فرنسا الشرقي، صافح حامداً واقفاً وراء مكتبه وهو يقول: سررت بصداقتك، وأشهد لك بالاستقامة والانضباط في العمل، وإني آسف لهذه النهاية غير المرتقبة لما كان بيننا من تعاون.

خرج حامد من مبنى الإذاعة، تتناوب عليه مشاعر الخوف والحيرة فيما هو سائر إليه، هل المستقبل بات اليوم ضباباً كثيفاً لا تنفع فيه التكهنات؟ أكلما خلّص من الوحل رِجْلاً غاصت الأخرى في الطين؟

لجأ إلى ركن مقهى بساحة الإذاعة اعتاد أن يرتادها مع الزملاء، ولم يرد على تحية النادل، غارقاً في محاولة الفهم. يسعى أن يصنف بين المشاكل المزدحمة ترتيباً، وقد انهالت عليه من كل صوب: شبح المحكمة العسكرية؛ مورد الإنفاق على العائلة، خصوصاً إذا صدر عليه حكم بالسجن مدة طويلة؛ وقْع المصيبة على الوالدة؛ على هالة وعلى أمها. خطرَ له أن الأولية الكبرى هي قضية المحكمة العسكرية. محامٍ قريب من السلطة. من أين له بهذا المنقذ الفريد؟ ومن أين له بأجر المحاميّ؟ الأولوية الثانية: حفْظ الأهل من تبعات العاصفة، وضمان مورد رزق، ولكن من أين؟ ثم من هو العميل الذي كتب فيه تقرير الإدانة؟ أيكون الشيخ عمار، ذلك المرتشي الممقوت من الجميع؟ من عبث الأيام أن والده الحاج هو الذي أشار على القائد بتعيينه لتلك الخطة وتوسم فيه الأمانة. هذه عينة من واجب المعروف والأمانة... طينة كدرة من بشر أقزام.

باغته الحسين وهو من أطيب الرفاق في الإذاعة، وجذب الكرسي أمامه وهو يقول: أراك غارقاً تسبح في بحر عميق.

- حامد: بجاه ربي أعفِني من البحر والسباحة، أنا بقعر مطمورة بدون سلوم ولا حبل نجاة أصعد به إلى ضياء السطح.

- الحسين: مطمورتك أدبية أم مطمورة سياسة؟ فالوسائل للنجاة من قعرها مختلفة.

- قال الحسين وقد أنصت إلى حامد، مقطباً صامتاً: تجربة قاسية ومهزلة مبكية مضحكة. شاهد على ما في كل استبداد من عبث وخلف.

فصلك عن العمل مظلمة باردة وقرار بليد ككل بادرة غضب ولكنه بمنطق السلطة قرار منطقي.

- حامد: منطقك وعبث الاستبداد يوقعاني في معضلة سوداء معقدة مركبة، أخطرها فقدان الحرية وغلق الأبواب للبحث عن عمل بديل، غداً تصدر محكمة سوسة حكماً يعفيني من كل رجاء، ونضوب مورد الإنفاق على الخبز والزيت، أما انسداد الأمل في مواصلة التعليم العالي فتلك قاسمة الظهر وانسدال ستار.

- الحسين: رمز هذه السلطة هو بطل رعاة البقر في أفلام هوليود، منطقه البدائي أنه يشهر المسدس أولاً، ويطلق النار، ثم يُقبل بعدها يتثبت هل الضحية عدو حقاً؟ وهل كان من الضروري الإجهاض عليه؟ جريمة خلف ومنطق الأنا الطاغي، المسكون بسكرة السلطة وخمرة الاستبداد.

- حامد: وما ذنبي أنا في هذا العبث السياسي.

- الحسين: انفصالك عن طابور الصنائع وانحيازك إلى شقّ العدو.

- حامد: أي عدو في هذه القضية؟

- الحسين: العامة، السواد، الآخر. ذلك هو العدو في منطق الاستبداد. تذكّر ديمقراطية أثينا اليونانية، لا حق إلا للخاصة ولا شرعية للآخر الوحش من عامة السواد ... البربري...

- حامد: دعني يا حسين من ديمقراطية اليونان وأفلام هوليود فمشاكلي تتدافع ضاغطة على المخ، ولست أدري بماذا أبدأ.

- الحسين: بالنجاة من السجن أولاً، لأن الحكم عليك بالزنزانة إذا صدَرَ يريحك من بقية المشاكل.

- حامد: وكيف النجاة من السجن وأنا انتظر الدعوة للمثول أمام المحكمة العسكرية؟

- الحسين ضاحكاً: بالطريقة ذاتها المعتمدة في التهمة، خارج القانون. بالوسائط أو بالرشوة. أذكر حالة مثل حالتك نزلت مصيبتها على رفيق من قابس، تخلص منها بأن أهدى والده فرساً أصيلا إلى بنت المراقب المدني، وهي لا تصلح لركوب حمار.

- حامد: إنك تمزح. لم يترك لي الوالد بغلاً في الحوش ولا حماراً والهدايا تصبح مني إقراراً بالإدانة... تدوَّن في البطاقة عدد ٣ وتتبعني مدى الحياة.

سكت الحسين برهة ثم وضع إصبعه الشاهد على الصدغ الأيمن، كمن تذكَّر أمراً منسياً، ثم بادر يقول: الوزير السابق في عهد المقيم (فوازار) سي عبد العزيز، ألم يكن جليساً للمرحوم خالك.

- حامد: أذكر أنه كان من خاصة جلسائه.

- الحسين: للرجل منزلة مرموقة عند السلط الفرنسية هنا وحتى في باريس، هنا يكمن الحل.

- حامد: أفصح ما تعني.

- الحسين: تسعى لديه وتترجاه أن يعمل بالوساطة لدى المقيم العام. باسم عائلة القضاة التي تنتسب إليها، عائلة محترمة لم تكن معادية للدولة أم الوطن، ويشهد بأن ابن هذه العائلة المحترمة شاب مغرور لم يرع ولاء العائلة لدولة الحماية ولم يقصد إلى العصيان وركوب مركب الخروج عن الطاعة.

- حامد: ثم ماذا يا حسين، لم يبقَ إلا أن أبعث برسالة توبة وولاء.

- الحسين: إما هذا ومحافظتك على هامش من الحرية المقيدة، وإما زنزانة في سجن خمس نجوم بشارع ٩ أفريل لإقامة مجانية لا تعلم مداها.

حسين صديق نصوح أدرى من حامد بمداخل مدينة الغلبة في أدب الفارابي، اغتنم سنوات الحرب فالتحق بكلية الحقوق في الجزائر وعاد يتربص بمكتب أحد المحامين بشارع باب البنات وله في كل أسبوع حديث في التاريخ يرقع بفرنكاته جرايته الزهيدة.

- حامد: أشهد أنك من فقهاء الحل والعقد.

- الحسين: هات الأجر على طريقة أهل جلاص.

- حامد: الخرفان أودعها الوالد رحمه الله في كفالة الأخ الأكبر، فهو أحرص على رعايتها من بخلاء الجاحظ.

- نهض يودع، وهو يقول: النسوة في قريتك يذبحون الخرفان قرباناً عند ضريح الولي، ليشفع في وليدهم فينجو من التجنيد في عسكر فرنسا، لا تنسَ أن تحافظ على التقاليد.

- حامد: ما عهدي بك، لبطنك كل هذا الشغف بلحم الخرفان!

نجحت نصيحة الحسين، ولم يبخل الوزير السابق محمد العزيز عن الوساطة لدى المقيم العام الفرنسي، وجعلها هذا السياسي الماكر منَّة يمنها على أحد رموز النخبة التونسية، يحتسبها عنده لاحقاً في ما يكون أنفع لدولته من تسليط العقاب على «شاب متحمس مغرور من عائلة محترمة»، استنكر الإسراف من جانب موظف غبيّ في قرية مغمورة بفيافي الوسط، عند شرذمة معدودة من «الأهليين» نصفهم من العملة في حقول المعمرين.

وقد ضحك كثيراً هذا الحاكم المحنك يوم أخبره المراقب المدني بقصة أحد الفلاحين الأغبياء من أهل الجهة، راح يدلل في السوق لبيع جرّار كبير للحراثة. فسامه أحد مواطنيه، وحصل الاتفاق على الثمن، ذهب صاحب الصفقة مع سوّاق خبير، ليتسلم الجرّار. فعرّى عليه البائع من تحت كوم تبنٍ كثيف، فإذا هي دبابة معطبة من مخلفات الجيش الألماني.

بدأت معضلة حامد تنحل عقدتها وقد تخلص من خطر المحكمة العسكرية. وبقي عليه أن يطلب الحل للعقدة الثانية: مسؤولية الإنفاق على العائلة. واستأذن ذات عشية على الوزير في بيته بالمدينة. ليعرب له عن الشكر والامتنان، باسمه، وبالنيابة عن أرملة صديقه وأولادها. فهش لاستقباله في غرفة واسعة نظيفة، بأركانها أرائك مريحة، وعلى بلاطها زرابي مبثوثة، قيروانية الصنع وإيرانية، ومن سقفها الخشبي المنقوش تتدلى ثلاث ثريات، مصابيحها في زجاج كعناقيد العنب، وعلى الجدران صور مصفوفة للوزير، إحداها مع رئيس سابق للحكومة الفرنسية، وأخرى على مائدة أحد المطاعم الفاخرة برفقة رئيس الحزب الاشتراكي الفرنسي، وثالثة للوزير في برنوس وحرام جريدي وعمامة صفراء، وهو على ظهر حصان من كرام الخيل. قال الضيف وهو يشير إلى صورة له صحبة المنصف باي:

- هذه من أطيب الذكريات عندي للمسيرة السياسية.

قال حامد: وهي أصدق صك لإخلاصك للقضية الوطنية في أعسر مراحلها وأخطر ظروفها.

- الوزير: الله يفرج على محنته القاسية في منفاه بفرنسا. سيدنا كان أخلص أمراء البيت الحسيني.

- حامد: هو عند شباب تونس بطل من أبطال الكفاح التحريري، معدود كواحد من أبناء الشعب، في صفوف المستضعَفين، لا كأمير من وجوه العائلة الحسينية.

- الوزير: صدقت، كانت لسيدنا مواقف ومغامرات في سبيل الشعب لا يقفها إلا واحد من جيل الشباب. جيلكم أنتم، لا جيلنا نحن.

- حامد: وأنت يا عمي، معدود عندنا في منزلة أخلص رفاق سيدي المنصف، وأصدق أنصاره في خدمة الشعب. الإخلاص أوسع مجالاً وأعمق جذوراً من موازين الإعمار.

- سكت الوزير برهة، وقد جيء بكؤوس التاي وطبق الحلويات. ثم أنشأ يقول: يا بنيّ، خالك، الله يرحمه، كان من أقدر رجال القضاء، تفتخر بمثلهم العدالة التونسية. ولو بقي بقيد الحياة لنصحك بدراسة القانون في كلية باريس، وقد عاد السفر إليها متيسراً. فالمحاماة هي اليوم أنفع مهنة يتعاطاها نفر من جيلك، وأنسب بمنزلتك العائلية، وهي خير عون على ما تتطلع إليه من العمل السياسي.

- حامد: وأنت يا عمي درست القانون، ولكنك عدلت عن المحاماة إلى الوظيفة الإدارية السامية.

- الوزير: لكل جيل سبيله في تعاطي السياسة وخدمة البلاد. والأنسب للعمل السياسي لا يتيسر اليوم في نطاق الوظيفة العمومية. ولا سبيل لذلك غير المهن الحرة، كالمحاماة والطب والصيدلة. وتلك هي المهن التي اختارها زعماء الحركة الوطنية، عدا نفراً قليلاً مال إلى التدريس في المعاهد الثانوية كالصادقية والخلدونية.

- حامد: أبوح لك بسريّ وأنت عمي ومنقذي، تمردت على الوالد وقد كان يسعى لتوظيفي في خطة خليفة، وطموحي الذي دعاني إلى التمرد هو أن ألتحق بالتعليم وأتحصل على الإجازة من السربون.

- الوزير: طموح سديد. وثماره أبعد آفاقاً، وأبقى نفعاً. وأنت تميل إلى الأصعب والأعلى... وما هي إلا نصيحة لك وتعبير عن ثقتي في قدرتك على النجاح. وإخلاصك للواجب.

- حامد: الواجبات في زماننا هذا المكفهر متشعبة وتتدافع جميعها وفي زمان واحد.

- الوزير: لكل أجل كتاب، الإخلاص للوطن لا يستقيم مع التفريط في واجبات الأهل. وأنت قد غدوت مسؤولاً في الأهل بعد وفاة أخي المرحوم الشيخ محمد، أعلم أنه ترك أرملة وثلاثة أولاد، الأيام صعبة وأعلم أن جرايات الأرامل قد لا تكفي لتسديد الضروريات جميعها.

- حامد: يا سيدي الفاضل الكريم. أنت خلصتني من أكبر مصيبة ومَظلمة كانت تهددني في شخصي وفي مصير عائلة صديقك المرحوم.

- الوزير: أعلم أنك حامل لهذه المسؤولية المبكرة، فخبرني بما تعتزمه في هذا الأمر حتى لا يثقل على ظهرك الحمل. وقد غدوت اليوم عاطلاً بعد الذي تسلط عليك من قرار الفصل من العمل بالإذاعة الفرنسية.

- حامد: مشكلة أخرى لا بد أن يجعل الله لضيقها مخرجاً.

أمسك الوزير عن التعليق. فنهض حامد يجدد الشكر للوزير ويستأذن للانصراف.

- فقال الوزير أحضر أوراقك وابعث بمطلب ترسيمك في الكلية، وقدم مطلباً لإدارة التعليم للحصول على قرض دراسي. وإذا اعترضت مشكلة فخبرني ننظر معاً في حلها.

عاد حامد إلى البيت مستبشراً في غير إسراف وخلا بحجرته ينظم أوراقاً على المكتب مبعثرة. ورفع رأسه، فإذا بهالة على باب الحجرة ترقبه قائمة.

- هالة: عدتَ في غير أوقاتك المألوفة. من أين جئت؟ وما الذي عاد بك هكذا منشغلاً؟ الحدس يخبرني أن في أمرك سراً تجهد أن تخفيه، منذ أيام، وتفضحك أسارير وجهك وما تتكلفه من الضحك المزيف. قام حامد إلى الباب فأغلقه من ورائها ثم أنشأ يتلعثم لسانه.

- حامد: أسرار كثيرة، يا قارئة الملامح. سوداء منكرة، ووردية مريحة.

- هالة: إِبدأ بالسوداء، فنتخلص من أشجانها.

تردد حامد برهة وبصره إلى طرف الحذاء، فجاءت تلف بذراعها على كتفيه. فرفع رأسه وأقبل عليها في وجهها يقول:

- حامد: فصلوني عن العمل في الإذاعة. ولولا وجاهة عم العزيز لكنت اليوم أو غداً ماثلاً أمام المحكمة العسكرية في سوسة.

انفصلت عنه هالة وجلست على أريكة المكتب صامتة... برهة ثقيلة. ثم نهضت تقصد الباب وهي تقول:

- اترك الخبر بيننا، لا نزعج به الوالدة.. حتى نهتدي إلى الحل.

ثم عادت إلى الباب تغلقه وإلى حامد قائمة في وجهه تسأله:

- هالة: بأي ذنب أطردوك وعلى أي جريمة كانت ستقاضيك المحكمة العسكرية؟

أمسك بذراعها وأجلسها بمكانها على الأريكة وظل قائماً بين يديها كالمتهم أمام سدة المحكمة. يروي لها مغامرات الأهل في القرية وسلوك الخليفة في بحثه عن مخلفات الألمان من السلاح، ومبادرته هو ببرقيات الثأر للمظلومين.

- هالة: ألمثلِ هذا تحال على المحكمة العسكرية؟

- حامد: بلادنا بأيدي نظام عسكري، يحكمها جنرال من رواسب الحرب، غرور الديك اللاطيني، للثأر من هزيمة بلاده أمام الجيوش الجرمانية، أحفاد بزمارك، يلجأ إلى القسوة مع العزب وإلى الانتقام من الأبرياء المستضعفين. كشأن كل أحمق جبان. وعلى أية حال، فقد أنجاني

الوزير عم العزيز من المحكمة. وتدخل لدى المقيم العام، فأمر بحفظ القضية. وتلك مبرة أخرى من مبرات المرحوم خالي محمد.

- هالة: هذا هو الجانب الوردي من أسرارك. وورودك ألوانها باهتة أصابها الذبول.

- حامد: عمر الورد قصير. ما أنا إلا كالسائر في أرض طين مبللة، إذا جذبت كراعاً غرقت الأخرى.

- قامت هالة وقصدت باب الغرفة وهي تقول: ابنة خالك ستعينك على تخليص رجليك الاثنين من الوحل. احفظ السر إلى حين. ثم انصرفت إلى المطبخ وقد سمعت صوت الوالدة تناديها.

ظل يتردد أياماً قبل أن يخبر زوجة خاله بقرار فصله من الإذاعة. وقد سألته يوماً عما يؤخِّره في البيت إلى الضحى. وكان يغادره مع الفجر لنشرة الأخبار الصباحية. ولم تصدقه إذ أخبرها بأن المدير منحه أيام راحة. وانقلب الشك عندها يقيناً إذ تواصلت الراحة أكثر من أسبوعين. كان إفشاء الخبر امتحاناً عسيراً. وأخيراً جمع أنفاسه ولفظها جملة واحدة في كلمات مقتضبة:

- أطردوني من الإذاعة.

ما كان سهلاً أن يفصِّل السرد في قضية الخليفة وسوطه على ظهر المواطن العجوز، في يوم سوق وقد راح يجمع مخلفات السلاح الألماني، وأن يبرر ما بادر به هو من توجيه برقيات التذمر، مبادرة اتفاق على غير موعد، هكذا قام بها بدافع الانتصار للرجل المظلوم وأنه كتب البرقيات بخطه، وأنه أرسلها إلى المراقب المدني، وأن هذا المراقب هو الحاكم الأعلى لجهة الوسط، وهو الذي كلف الخليفة بجمع سلاح الألمان، وأنه قام بهذه المبادرة بواعز الحمية الوطنية. والاستجابة لنفر عديد من مواطنين لا يعرفهم، استنصروا به هو بالذات «نوارة الجهة» على جور خليفة مكلف

من جانب المراقب المدني... أفّ؟ ما أعسر التبرير لعقاب بلا ذنب ولقرار بلا معقولية. كان يشعر بحرج كبير. كأنما كان يتحدث عن شخص آخر، ويجتهد في تنظيم السرد، كأنما يروي قصة أطوارها منسجمة وخاتمتها معقولة. وما كانت أرملة رئيس محكمة عاشرت من خلال زوجها، قضايا الانحراف، لتستسيغ الرواية، دون ارتياب في براءة صهرها. لا بد أن يكون للحكم بهذه الخطورة قرائن إدانة مسكوت عنها لدى السلطة ومخفية عند حامد. اتفاقات كثيرة تلاقت كلها في حدث واحد وزمن واحد ومكان واحد... حكاية لا شك مفتعلة.

تحصحص الأمر في قضية الإنفاق لمجابهة الضروريات المعيشية. وقد بقيت بلا تسديد فاتورة الكهرباء منذ شهرين؛ باب من أبواب نفقات شتى تتزاحم على موارد مهددة بالنضوب وعلى ميزان سائر إلى العجز. لقد أراحته من هذه المشاغل جراية الإذاعة طيلة عامين أو أكثر، وما تعود الاحتياط لمثل هذه العقبة بتوفير قدر من الدخل، ولا بالتقسيط في الإنفاق. جلس على الفراش يحاول أن يروِّح على النفس ببعض نوادر بخلاء الجاحظ... وما كانت له في طعام العشاء شهية وقد دعي إلى المائدة. لحقت به في خلوته هالة تقول:

- هالة: ما كان للجوع من نفع وراحة إلا في شهر رمضان. قم بنا إلى طبق اللفتية. تعلم الوالدة أنها من أطباقك المفضلة. ثم إن لنا بعد الطعام شأناً على انفراد بيننا.

جاءته بكأس التاي الأخضر وهو على الأريكة جالس ينتظر.

- هالة: أريد أن أترشح للتدريس في التعليم الابتدائي. شهادة مدرسة الترشيح تؤهلني لذلك، هكذا نضمن للبيت جراية ثانية نرفد بها الميزانية... إلى أن تعود.

- حامد: أعود من أين؟ متى خبّرتك بأني راحل عن البيت؟

- هالة: خبّرتني الأوراق.

- حامد: أوراق ماذا؟ هذه قصة من بنات خيالك.

- هالة: بل من المشاهدة بعينيَّ هاتين.

- حامد: وما رأت عيناك يا جاسوسة؟

- هالة: شهادات الحالة المدنية، ورسوم المدرسة ونسخة من البكالوريا ومطبوعات القرض. تفعل ماذا بهذه الأوراق كلها؟ لا أراها إلا قرائن إدانة لمقاصد مبيَّتة.

- حامد: وأنتِ أيضاً يا هالة. لحقت بدائرة الاتهام. لا غرابة. فأنت من عائلة حكام العدلية.

- هالة: وأنت أيضاً، والدي الحاكم، أليس هو خالك؟

- حامد: ما بقي للتستر من نفع مع جاسوسة حريصة على أن لا تخفى عليها شاردة.

- هالة: وحريصة بالخصوص ألّا تسقط من ظهر الحصان.

- حامد: عن أي حصان تتحدثين؟ بدعة أخرى من أوهام خيالك؟

- هالة مبتسمة: حصان أمي عيشة أمانة غالية عندي من الوالدة العزيزة. وسر خصتني به في سهرتنا بدار العضلة، ليلة خمسة الذهب، هذه التي تراها في عنقي.

ما كان يحسب أن سره بات عارياً مفضوحاً لدى هالة، وأن طموحه العنيد أصبح بين صروف الميزان. وأن تحقيقه، ثمنه فراق الزوجة في عامها الأول من عمر الزوجية وإلقاء مسؤولية البيت، إنفاقاً ورعاية على عاتقها منفردة. أليس فراق الوالدة مهجورة بدار القرية أثقل الصروف في كفة الميزان؟ بات ليلته يتململ بين الوسائد، تشاطره هالة أرق الوسواس. وتتقلب به الحيرة، يتساءل: هل لا يدرك قصده المشروع إلا بالفرار من

الواجب؟ وهل تبقى ذرة من أخلاق لطموح يدنسه التخلي عن مسؤولية الأهل؟ أليس نكث العهد خيانة؟

وفي وجوه الفجر غلبته غفوة ثقيلة ما أفاقه منها إلا حر الضحى. تحامل إلى السفرة فإذا بظرف أوراق مرتَّبة بجانب فنجان القهوة. قرأ مطلب هالة إلى إدارة التعليم العمومي بصحبته شهادة مدرسية ومضمون الحالة المدنية. بادر بتقديم الملفين إلى الإدارة، مطلب هالة للانتداب، ومطلبه الشخصي للقرض المدرسي. وهو كمن يلقي في عرض البحر بمطلب النجدة في قارورة مختومة.

حضر ذات عشية من ذلك الأسبوع مراسم التعزية في بيت علم من أعلام الإفتاء بالعاصمة. فلقي الوزير محمد العزيز. فبادره بالسؤال وهما ينصرفان: أين وصلت المساعي؟ فأجاب حامد أنه أودع المطلبَين لدى الإدارة منذ أيام قليلة. ونسي أن مخاطبه لا علم له بمطلب هالة. وتفطن لزلة اللسان وقد لاحظ تقوُّس الحاجبين على وجه الرجل الكريم. فهمّ أن يستدرك الأمر. وسبقه السيد محمد العزيز يقول:

- محمد العزيز: الثاني لعله مطلب شغل.

- حامد: هالة البنت البكر للشيخ المرحوم ترغب في التدريس ولها ما يؤهلها للتعليم بإحدى المدارس الابتدائية.

- محمد العزيز: مبادرة حميدة، خصوصاً مدة غيابك عن العائلة ولا شك أن مطلبها سيحظى بالقبول عند مدير التعليم.

وأدرك حامد، وهو يودع الوزير، أنها كالإشارة اللطيفة من جانب السيد الكريم إلى إمكان التأييد لإنجاح المطلبين. وعاد إلى البيت مستبشراً. فقص على هالة ما كان يتكهن به، واستبشرت الوالدة ببريق الأمل في عيني كبيرتها. وأعادت الكرّة لطعام العشاء بطبق اللفتية ولكن بلحم الضأن هذه المرّة.

كان لقاء حامد بأمه في دار الجد بالقرية مثقلاً بالأشجان، معقوداً بالرجاء، كحوار مأساة. يراوح الجدل بين البوح ومناجاة الخفاء. قالت، ويجود ثغرها بابتسامة الرضى:

- كنت أترقبك، واثقة من زيارتك، بعد انقطاع صوتك عن إذاعة الصباح، الحمد لله على كل حال.

حاول أن يمسح عن الجبين الناصعة غمامة الكدر وسحابة الظنون. فطفق يحدثها بأخبار البلاد بعد انتهاء الحرب، وبمساعي زعماء المغرب في القاهرة، وبأنباء المحكمة الدولية المنتصبة لمقاضاة الجنرالات الألمان ويتكلم ويتوالى الكلام عساه أن يفلت من الإقرار بالحقيقة. استمعت إليه لاهية، ثم بادرته تسأل: ما بال صوتك انقطع عن المذياع. كان بيني وبينك حبل وصال كل يوم. أتزود منه للصبر.

سألها متكلفاً المرح: وتسمعين نشرة الأخبار وتهتمين بالسياسة؟

قالت: أنصت لصوت ولدي. تكفيني النبرة. لا شأن لي بما تقول. ينبئني الصوت أنك في صحة جيدة، وأن الأهل في الدار بحال الرضى.

أمسك حامد محتاراً. كيف يخفي الحقيقة، خوفاً من أن يزيدها غمّاً. وهل الكذب هو الحل، حلاً وقتياً، لا دوام مع فراسة قلبها؟

بادرته بنبرة الحيرة، وقد طال صمته: سكوتك غير معتاد بينك وبين أمك.

ألقى بنفسه في لجة الاعتراف، كأنما يقر بذنب: تذكرين يا أمي، رؤياك للحصان؟

قاطعته ويدها على القلب مبسوطة: يا ويلي. سقط الراكب!

- حامد: عثرة من عثرات الحياة، لم تتهشم على الصخرة عظامه. إن هي إلا فترة عسر، سيجعل الله بعدها فرجاً ويسراً.

- عيشة: كأنما تناجي نفسها: تراني باقية إلى يوم ذاك الفرج؟

- حامد: إنك باقية يا أماه. لا بد أن تبقي. فأنا متزود منك لباقي الرحلة، كما تزودت لأولها.

- عيشة: عاودك عزم الرحيل إلى فرنسا؟ هروبك ثمن الشهادة، كما حاولت يوم النجاح...

- حامد: لا يكون هروباً هذه المرة، بل سفرة منظمة لأجلٍ معلوم أعود بعدها لأستقر بجانب الأم العزيزة. أعطيها حقها المحروم من الرعاية والوفاء. أفرِّج عن قلبكِ ما تراكم من أنكاد البعد ووحشة الغربة. تنتقلين إلى دار ابنك ترعاك هالة ونحيطك بما فقدتِه عمراً طويلاً من الحنان والعناية، يا عيشة البية.

- عيشة: أمك الخضيرية كانت تدعوني بهذا الاسم، إذا أنا زودتها بقرطاس من التاي والسكر، وأذقتها قطعة من حلوى الشامية، ترى كيف حالها اليوم، وحيدة بذلك الحوش؟

تهللت للذكرى أسارير وجهها، وهي تستحضر أمسيات الصفاء في عشرتها لزوجة الحاج الأولى. ما كانت لها في دار العضلة من رفيقة سواها. ثم سألته، وقد عاد إلى الجبين أخدود التقطيب: متى تسافر، ومتى تعود؟

- حامد: لست أدري، يمكن أن أركب الباخرة أول الخريف. ذاك هو موعد انطلاق الدروس في الجامعة.

- عيشة: متى تعود، بعد كم من شهر، بعد كم من عام؟

- حامد: لكِ عليّ عهد يا أماه أن لا أزيد يوماً واحداً بعد الفوز بالشهادة. المدة القانونية هي ثلاث سنوات أو أربع. ولكني باذل كل الجهد لاختصار هذا الغياب الطويل.

- عيشة: طوله عندي بالليالي والأصباح. ما أثقل الساعات على من يحصيها جالساً يبتهل وينتظر، عامة يومه وشطراً من الليل...

- حامد: زوِّديني يا أماه، زوِّديني، فدعاؤك لابنك خير زاد وأقرب للاستجابة.

قالت، وأناملها الدقيقة وسط لمة شعره تجول: الله يحفظك يا حامد. الله يستجيب لدعاء أمك في جوف الليل وإثر ركعات الفجر، الله يحفظك من بنات النصارى.

- حامد: لا خوف علي من هذا الخطر، هالة حارستي ولو من وراء البحر، وأنت في القلب شمعتي المضيئة.

- عيشة: الصبر حبلُهُ في الغربة قصير، والوادي إذا حمل، ما تصدّه حيطان.

سكتت، وقد ترقرقت في الجفن دمعة يتيمة، أسرعت تمسحها بكمّ الملحفة، ثم عادت تقول:

- اذكرني يا حامد، واذكر هالة. النسيان أول الموت، نحن لك حرز من كل مكروه.

- حامد: الحرز أمانة في القلب، لا تمائم في العنق، ما الذي يخيفك بهذا القدر يا أماه؟

- عيشة: يخيفني أن يجرفك الوادي ويطمس الضباب ذكرانا. فتغويك شقراء عابرة. فكم من عائلة في القرية أو في القيروان، تقطعت أوصالها بسبب نصرانية عجماء، لا يطول مقامها، فترحل عائدة إلى أهلها وآفاق عيشها، فيتبعها المسكين صاغراً أو تتركه يترنح بالذكرى.

- حامد: ذاك خطر مشهود يتربص بالدارسين في أوطان الغواية والغربة. خطر مكتوب لكل ذات في صحيفة المصير.

- عيشة: مصيرك أنت مع هالة صحيفته مكتوبة من فجر الحياة، يوم ولدتك في دار العضلة، وزفّت لجدك البشرى بميلاد هالة في دار المدينة، أياماً قليلة بين الفرحتين: السابقة واللاحقة.

- حامد: وبأي قرار أبرم العقد يومها بين الرضيعين وقضي بالمصير؟

- عيشة: قرار جدك إمام الجامع وشيخ العائلة.

- حامد: عائلة كالقبيلة، الأمور كلها بأيدي شيخها، أفرادها كلهم تُبَّع لقراراته، تعليمهم وتزويجهم. أرزاقهم وما يكسبون. زوّجك أنت من الحاج عبد الله الفلاح الوسيم، وزوّج أخوالي والبنات، سوى خالي محمد أنجته دروس العدلية، وها هو الشيخ يقرر تزويج الأحفاد، يسبق قراره سن الإدراك وساعة الاختيار.

- عيشة: هل لك على اقترانك بابنة خالك اعتراض؟ متعلمة وسيمة كريمة النسب طيبة الأخلاق.

- حامد: يا أماه يا ريحانة القلب، جيلنا من أبناء الصادقية أصبح يؤمن بأن المصير اختيار فردي وحرية، مصير الشعب في طريقة الحكم ونمط العيش، ومصير الإنسان الفرد في بناء حياته الذاتية والعائلية، نباشر المصير بما أوتينا من الاقتدار والهداية وهو مغامرة يلذ لنا أن نركض أفراسها في مراحات التسابق إلى الخير والمصلحة.

- عيشة: جدك أدرى بالمصلحة، يشهد له بذلك أهل القرية جميعهم نسوة ورجالاً ونصيحته عندهم مقبولة ونافذة. منزلة اكتسبها بما اشتهر به من الورع والصرامة في الحق.

- حامد: لا أجادل في خصاله وبسببها أعتز بالانتساب إليه. الذي يحرجني أنه ينوب عن الناس في إدراك مصالحهم دون «مشاورتهم في الأمر»، ودون الإحاطة بجوانبها جميعاً. تماماً كما يفعل شيخ القبيلة.

- عيشة: المصلحة عند جدك هي ما وافق الشرع وحفظ من منكرات الحياة.

- حامد: منكرات الحياة، هل تراه قرأ حسابها يوم رماكِ أنت في دار العضلة رابعة ثلاثة، رفيقة خريف العمر لرجل طيب، نساء الحوش عنده متاع الحياة الدنيا كقطيع الضأن في الزريبة... كسب حلال «يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة». أما الآدمية المسخرة لنزواته تروح بين يديه كالشبح العابر لا يسأل عن سريرة ذاتها: عيشها بجانبه سمن على عسل، أم هل أن لياليها زفت وقطران. كبهيمة العرس، نصيبها من الوليمة زنبيل الحطب وقربة الماء؟

- عيشة: الوالد أحق بالنصح حتى مع القسوة وأجدر بالطاعة. وما قصد والدك الحاج إلا الخير.

- حامد: يا أماه يا ملائكة السماحة، زوجك الحاج أي خير كان يقصده لابنك ليلة أقنع خالي بالسعي للزج بابنك في وظيفة خليفة، وهو يعلم أنها لا تنطوي إلا على الظلم والرذالة والمسكنة؟ الخير عنده يومئذ كان يعني تسخير مستقبلي لإشباع غرور الافتخار بين الأنداد بنجاح ابنه، وتوظيفي في خطة تفدي ثأره من الإهانة والظلم. ما أنا في أمري هذا إلا كفرس سباق جزاؤه من الفوز تمسيح على الغرة ومخلة شعير.

- عيشة: لم أكن موافقة على تعيينك في هذه الخطة المكروهة، ولا استشارني أبوك قبل السعي إلى تحقيقها.

- حامد: ولا أنا أيضاً، لم أكن عنده إلا سلعة حانوت أو فرس رهان... تصرف كشيخ قبيلة، القرار قراره وأفراد القبيلة أتباع وعبيد طاعة.

قامت الوالدة إلى صلاة الظهر، وخلا حامد إلى هواجسه يتدبر. أدرك كم بين الأم في فطرة وجدانها وعمق وفائها وبين تطلع الوالد في حساباته النفعية، من بون لا يقاس كالمسافة بميزان الكم. بل هو من معدن مختلف،

قياسه بموازين الكيف. هذا يطمس الممكن، وتلك تفتح له الجناحين. هذا ينكر على الذات وجودها المتميز بين القطيع، وتلك تعينه على أن يختار طريقه المفضلة بين السبل. الوالدة رفيقة أنس إلى المستقبل، وحصان رؤياها مطيَّته إلى ذلك الأفق المنظور. ركضه تحليق، ووجهته أوساع بلا نهاية.

وصل أخيراً إلى مبنى الطلبة في شارع «فوجيرار» في قلب الحي اللاطيني، ليلتان وثلاثة أيام بين حلق الوادي ومرسيليا على الظهر المكشوف من الباخرة، يحرس صندوق الزاد وحقيبة الملابس، ويتفقد تحت القميص محفظة الوثائق وورقات الزاد من المال. ثم يوم طويل وسط معبر القطار قابعاً على الأدباش. نظرت إليه العجوز العابسة، حارسة المبنى، تفحصه بعين الاستنكار، وهو واقف بين أدباشه، يسألها، عن الطالب مصطفى. ما كانت له عندها هيئة تبعث على الاطمئنان. قميص نسيت رقبته بياض النظافة، من فوقه بدلة مكمشة، وسراويل أوسع من الخصر. أما الحذاء فقد نسي لمعان جلده الأسود بما غطاه من غبار السفر. ولا تحدث عن ملامح الوجه، عينان محمرتان من قلة النوم، وذقن مبثوثة بشعر لحية، تحن إلى الحلق، ولمة شعر كثيف لم تعرف أسنان المشط من أيام. كان الواقف أمام مكتب الحارسة يبدو لها في أمثل صورة مألوفة للمهاجر «الشمال الإفريقي»، وفد كغيره يبحث عن العمل، وقد لا يملك وثائق الهوية. قالت في نبرة جافة: ما شأنك به، لا يعود إلا آخر المساء.

- حامد: هو ابن عمي.

- الحارسة: بالطبع كلكم أبناء عمومة، وأقارب من قبيلة واحدة، جئت تستعين بالطبيب للحصول على بطاقة إقامة والفوز بشغل.

- حامد: لا بل طالب مسجل في كلية الحقوق، جئت للدراسة.

- قالت وقد خفضت من نبرة التقزز: هل مررت بمكتب شارع «سوفلو»؟

- قال، وهو لا يعلم ما حاجته إلى هذا المكتب: كما ترين، وصلت مباشرة من محطة القطار، بعد سفرة طويلة متعبة. وأنا محتاج إلى ماء وصابون قبل أي شيء آخر.

- قال مصطفى وهو يباغته من خلفه بمعانقة حارة: وصلت أخيراً، كنت أترقبك بالأمس. وعلمت أن الباخرة تأخرت عن الإقلاع من ميناء حلق الوادي. مرهق بالتعب كما أرى.

ثم التفت إلى الحارسة يقول: مدام كصاني، هذا حامد ابن عمي رغبت منك تمكينه من الحجرة ٢١ بجانب غرفتي.

- قالت: تعلم أنه لا بد أن يأتيني ببطاقة الترسيم من مكتب سوفلو.

- قال مصطفى: بلا شك، قبل الظهر تكون البطاقة على مكتبك. أعلم أنك حارسة منظمة. ثم التفت إلى حامد يقول: هيا خذ أكياسك إلى غرفتي، ضيفي إلى الليل، واصعد ورائي إلى الطابق الثالث. ولكن دعني أرفع عنك هذا الكيس. إن حبله يكاد ينحل. ما أثقله: بماذا حشوته.

- حامد: زجاجات من زيت الزيتون وبعض كيلوات قهوة وسكر طوابع.

- سأل مصطفى: تفعل ماذا بزادك هذا من القهوة والزيت؟

- حامد: نبيعه في السوق السوداء. أتمعش بثمنه، إلى أن تأتي فرنكات القرض، إن وافقت اللجنة.

- مصطفى ضاحكاً: جئت للتجارة أم للدراسة؟

- حامد: لهما معاً، ألم تخبرني بما عليه السوق من التقسيط في بعض المواد الغذائية مثل الزيت والقهوة والسكر وحتى لفافات التبغ؟ لكل مواطن نصيب مقدر في الأسبوع، مقابل بطاقات التموين الفردية.

- مصطفى: وستكون لك بطاقة مثل سائر الطلبة، نتسلمها من مكتب سوفلو مع بقية الأوراق: بطاقة الغرفة والترسيم.

دخل وراء رفيقه حجرة ضيقة، لا تكاد تجد للأكياس مكاناً بين السرير وطاولة المكتب، عليها عرصات من كتب ودفاتر، وفي الركن قرب النافذة حوض غسل تعلوه مرآة، وبالجانب المقابل أسفل السرير خزانة ذات باب واحد للملابس والأحذية.

- مصطفى: في مثل هذا الجناح الملكي ستقضي عشرة أشهر من السنة الدراسية. أما الحمام ففي المعبر بين الغرف. بابه الأخير على اليمين، خدمة مشتركة بين سكان الطابق.

بادر حامد إلى الحوض يتنظف ويحلق اللحية ويمشط خصلات شعره المتلبد. ثم استأذن ضيفه، فأخرج من الحقيبة بدلة مكوية وقميصاً أزرق نظيفاً، وأقبل على الحذاء يعيد للجلد بريقه. فلما فرغ من الاستبدال قال لرفيقه: الآن أصبحت جديراً بالتقدير في عيني مدام كصاني. هيا بنا إلى الشارع.

- مصطفى: إلى مكتب شارع سوفلو أولاً، لتصبح لك هوية طالب. نزل الدرج وراء مصطفى، ومرّ مزهواً أمام مكتب الحارسة وأتحفها بتحية انحناءة مسرحية. فردت عليه بابتسامة خفيفة وقالت: هكذا أنت الآن واحد من طلبة العمارة. عجّل ببطاقة التسجيل قبل الليل.

- مصطفى: ها نحن أمام أحد الأبواب لحديقة اللكسنبور، حديقة الحي اللاطيني الكبرى، ملاعب للصبيان ومخادع للعاشقين. ومن وراء الحديقة شارع سان ميشال الشهير، إليه تنتهي ومنه تفترق معظم شوارع

المعاهد العلمية، فما من صنف من أصناف المعرفة إلا ويمتاز بمعلم عريق في الحي اللاطيني. وعلى جانبي سان ميشال تفتح أشهر المكتبات التجارية. ومطاعم الطلبة ومقاهي التواعد والاختلاء للمراجعة. ولكن لنبدأ بشارع سوفلو ذاك الشارع العريض المنحدر من معلم البنتيون، مقبرة الأفذاذ والأبطال.

- حامد: من يكون سوفلو هذا المتميز بهذا المقام المركزي؟

- مصطفى: هو المهندس المعماري الذي عهد إليه لويس ١٥ ببناء كنيسة باسم سانت جنفياف، ثم قلبتها الثورة ضريحاً لعظماء الأمة وكبار رجالاتها من أمثال «فلتار وروسو وفكتور هوغو وأميل زولا ونابليون»... والرخامة المثبتة بأعلى المبنى منقوش عليها «إلى عظماء الأمة، إقرار الوطن لهم بالجميل».

- حامد: ليت لنا من يبني غداً مثل صرحه بساحة القصبة أو على ربوة الجلاز.

- مصطفى: في انتظار ذلك اليوم المأمول، تعالَ إلى مكتب الطلبة للتسجيل واستلام هويتك الجامعية.

تسلح حامد بالوثائق القانونية من مكتب نهج سوفلو، ووقف يسأل رفيقه عن مبنى السربون وعن كلية الحقوق، بشارع سان جاك.

مصطفى: هما وراءنا بأعلى الشارع مسار دقائق معدودة. ولكن عد بنا إلى مدام كصاني تتسلم منها الغرفة وتستأنس بفضائها.

بدت له أضيق من غرفة جاره، كزنزانة سجن، معبر متر واحد بين السرير والطاولة. بادر بالبحث عن ركن آمن بالخزانة يدس فيه رأس المال من الزيت والقهوة والسكر. ثم التحق برفيقه، يلتمس رغيفاً، وقد ذكّره الجوع أنه لم يصب طعاماً من ليلته في القطار. دخل مقهى «دانتن» بركن

شارع ميشال. أخبره مصطفى أنه ملتقى الطلبة يعج بجموعهم صباحَ مساء. وبه ركن غربي ترتاده ثلة من طلبة شمال إفريقيا. وما إن بدأت أسنانه تقضم رغيف الخبز مع القهوة حتى بادره شاب من رفاق الصادقية:

- وصلت متى يا حامد؟

- حامد: هو أنت يا شادلي... قذفني قطار مرسيليا فجر اليوم. أنت كنت من فوج المنصف وصالح والحبيب. ما فعل الله بهم؟

- الشادلي: بعضهم هنا، وآخرون في جامعات نيس أو منبلياي... أين سكنت؟

- حامد: غرفتي بجانب غرفة الطبيب مصطفى في مبنى فوجيرار، وأنت بأي قصر مقامك؟

- بفندق خمس نُجوم في نهج التانبل غير بعيد من سان ميشال.

- مصطفى: الشادلي مسكنه بجانب كنيسة نتردام. لا يغيب عن قداس الصباح يوم الأحد.

- الشادلي: غير بعيد، وراء النهر، أجتاز الجسر إلى ساحة الكنيسة، ربع ساعة عن السربون. وأنت بأي كلية ترسمت؟

- حامد: لم أفعل بعد، أرسلت ملفاً إلى كلية الحقوق.

- مصطفى: حامد يفضل الدفاع عن اليتيم والأرملة.

- الشادلي: ولكنك كنت من السابقين في الأدب عند أساتذتنا بالصادقية.

- مصطفى: لا زهد أبي العتاهية يدر ربحاً كمثل المرافعات في الجلباب الأسود، ولا معلقات الجاهلية.

- حامد: عليّ عهد قطعته لوزير سابق من وزراء سيدي المنصف أن أتعاطى المحاماة وأن أدرس العلوم السياسية.

- الشادلي: هو من الحزب، وزيرك هذا؟

- حامد: لا أظن، ولكنه خلصني من كماشة المحكمة العسكرية.

اقترب منهم طالب ضحوك، وأقبل على حامد يعانقه: ها قد تعزز بقدومك عرش الهمامة. فقد بقيت أعزل وسط هؤلاء البلدية أولاد باب الجزيرة والحلفاويين.

- حامد: سعيد بلقائك يا حبيب يا زعيم أولاد جلال. أين تسكن وفي أي كلية ترسمت؟

- مصطفى: الحبيب جارنا بالطابق الثالث. طالب الجغرافيا وأدرى الناس بخريطة باريس وبمعالم تاريخها. هو لنا جميعاً خير دليل وأمتع صحبة.

شعر حامد بالارتياح والاطمئنان لهذا العشير القديم، لما كان بينهما من ألفة مرحة، وما توطد طيلة أعوام الصادقية من ثقة عفوية. وأيقن أن مقامه في باريس سيتوطد بأنس الصحبة كالحلف بينه وبين جاره الحبيب، وأسرّ له وهما يصعدان إلى الطابق الثالث:

- تزودت ببعض المئات من الفرنكات للإنفاق، في انتظار القرض الشرفي، برأيك عند من أقوم بتأمين كنزي هذا؟

- الحبيب: عند مدام كصاني، حارسة المبنى، امرأة محافظة، أصيلة منطقة الألزاس، لها مسحة باقية من صرامة الألمان. جديرة بالثقة.

- حامد: أتطلع إلى معرفة معالم الحي اللاطيني. أعوّل عليك وأنت باريسي قديم. كم لك فيها من عام؟

- الحبيب: عامي الثالث، أعاني مع أهلها مخلفات الحرب. أنوي أن أنهي الغربة وأطوي المقام في نهاية العام الدراسي المقبل. أما أنت فلك

فسحة سنوات ثلاث أو أربع لإتمام الإجازة، إن كنت مقتصراً عليها دون الدكتورا أو التبريز...

- حامد: لو استطعت اختصارها في عامين فعلت. فمن ورائي بالوطن أم وثلاث نسوة، إحداهن زوجتي، عدا بقية العشيرة، وكلهم شوق وحرقة إلى نزول طلعتي القصيرة من باخرة العودة.

- الحبيب: صعب اختصار أعوام الحقوق فلا أقل من أربعة أعوام إذا ضمنت النجاح في كل عام. قد يتيسر الجمع بين شهادتين في كلية الآداب لمن كان مثلك يتعجل غلق فترة الدراسة.

- حامد: كم أود أن أتزود من كنوز هذه المدينة، أوسع ما أقدر عليه... القضية قضية فسحة الزمن... والزمان أكول.

- الحبيب: باريس مدينة ألفة وعشرة، تسكنها عاماً فتسكنك عمراً، ولا تفارقها إلا بشوق العودة إليها كأنما أبرمت معها عقداً، تحرص على الوفاء بذكراه، حتى وإن بعدت عنها بالمساكنة.

- حامد: علمتك حب آفاقها؟

- الحبيب: علمتني الخوف من قيود الأسر، ومن نكث العهد مع زيتون أولاد جلال.

- حامد: ولكن زاد المعرفة تحرير ورقي، وما نبتغيه من شهادات جامعية لا تتوفر في بلادنا أسبابه.

- الحبيب: اسمعني يا حامد، ما مقامك هنا للشهادات العلمية فحسب، ولا كان لها مقامي أنا، ذاك قصد ضروري ولكنه غير كافٍ، وتحقيقه متيسر في عواصم عديدة أخرى، بل في حواضر جامعية داخل فرنسا. حصادنا من الإقامة المتبصرة بهذه العاصمة من جنس آخر.

- حامد: إقامة متبصرة؟ دلني على عقاقيرها لأفوز بهذا الذي أتطلع إليه من حصادها.

- الحبيب: لا أنا ولا أحد غيري قادر أن يعطيك عن ذلك وصفة جاهزة إنه كسب الذات، كل ذات يقظة لها استعداد خاص، استعداد للتقبل، انتظار...

- حامد: أفصح يا رفيق السباسب.

- الحبيب: هو ذاك بالضبط. أرض السباسب العطشانة إلى الماء. من قطرات الغيث تروي عطشها، ومن جداوله تلتئم شقوقها... هكذا الأنفس ينبغي أن تكون.

- حامد: في القرآن صورة بليغة لذلك: **﴿وترى الأرض هامدة، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾** (القرآن الكريم، «سورة الحج،» الآية ٥).

- الحبيب: المهم ألّا تكون عديمة الاستعداد، أرضاً ميتة كالسبخ حول القيروان نباتها ملح أجاج.

- حامد: قل لي بما جعلت إقامتك متبصرة، وحصادك... من كل زوج بهيج؟

- الحبيب: هيا نخرج إلى حديقة اللكسنبور، نواصل الحديث.

خرج الرفيقان، ينحدران نحو سان ميشال، ودخلا حديقة بهية، معابرها نظيفة، وأحواض عشبها زاهية بأكمام النوار، وبوسطها مربع معشاب به حنفية توشوش وسط بركة رخام صافية، وعلى جنباتها مقاعد حجرية مريحة.

- الحبيب: تستهويني هذه السكينة، إذا طفحت الكأس أفرّ إلى أحد المقاعد، من ضيق الحجرة. ما وجدت كالآفاق المفتوحة دواءً للحرج. تعالَ نجلس هنا نستمع إلى حديث هذه البركة.

جلسا على أريكة حجرية، غير بعيد من عجوز متكئة على عكازها، وكلبها باسط ذراعيه بين ساقيها، وبيمينها كتاب مفتوح، وبطرف أنفها نظارات مشدودة بخيط أسود.

- حامد: باريس مدينة الغواية، اشتهرت بحرية المتعة الجنسية، وسهولة إشباعها.

- الحبيب: دع عنك هذه العناوين الإشهارية، المتعة الجنسية مبذولة في معظم الحواضر الغربية، لندن، روما، أمستردام، برلين. بل لعلها مفضوحة أكثر في غير باريس. معروضة في الشوارع، مثل أمستردام. الكثير من أهلنا في شمال إفريقيا وأوطاننا الشرقية، ليس لهم من حافز أقوى من الغريزة الجنسية لزيارة باريس، ولتبذير المال في حاناتها... وكان من الطبيعي أن تنتظم صناعة المتعة لابتزاز الأموال في المراقص والفنادق الخصوصية، في أحياء مثل منبرناس ومنمرط.

- حامد: كأنما أصبح ذلك شعاراً خاصاً بالعرب. لطلب الشغل أو لإشباع الجنس يرتادون عاصمة النور.

- الحبيب: أولئك وغيرهم عبيد متعة. لا شأن لي بهم. أرثي لحالهم، ولكوني من جنسهم. ولكن إنسانيتي أضعها بمكان أعلى من عانة بطني.

- حامد: صناعة المتعة أصبحت نشاطاً اقتصادياً مربحاً، يؤسس لصنف خاص من السياحة والابتكارات الحرفية في الهندام والعطورات والخمور وأزياء النساء. واقترن كل ذلك باسم باريس.

- الحبيب: بأفضل من ذلك اقترن اسمها وأخطر شأناً. ها هنا منذ قرن، انقدحت قريحة خير الدين بضوابط الحكم الرشيد، وبمبادئ دستور ١٨٦١، وتجمعت العديد من معاني كتاب **أقوم المسالك**. وفي أندية باريس نضجت مفاهيم الحداثة والنهضة في فكر محمد عبده وطه حسين وغيرهم من رواد مدرسة الإصلاح العربية... وأقرب منا عهداً نشأت مدرسة الثقافة

«الزنجية» بمبادرة ثلة من الشبان الأفارقة، طلبة الجامعات الفرنسية، من أمثال «ايماي سيزار» و«ليوبلد سنغور». وارتبطت الدعوة التحريرية بينهم وبين نفر من أعلام الزنجية الأمريكية من أمثال «ريتشارد ورايت»، ومبدع موسيقى الجاز «ديوك آلينغتن» الفارين من عنصرية الأمريكيين البيض.

- حامد: هل ننسى أن نخبة الأحزاب الوطنية المعارضة للحكم الفرنسي في شمال إفريقيا معظمهم تخرجوا في جامعات باريس وتزودوا من ثقافتها السياسية، وتزوجوا من بنات نسائها؟

- الحبيب: في غيرها من الحواضر الغربية غربتك عنوان إقصائك، لا في باريس الغربة في آفاقها من حصاد الثراء ومن أمارات المعايشة مع الاختلاف والتنوع. بل هذا التنوع هو العنوان المسجل لعالمية «بانام».

- حامد: هل أفهم من قولك أن العنصرية غير موجودة، وأن باريس أصبحت شبيهة بعاصمة رواية **العالم الأمثل** للكاتب الإنكليزي «الدوس هكسلاي»... الناس فيها سواسية، والسعادة موفورة للجميع والإنجاب متروك للأنابيب المخبرية خارج الأرحام.

- الحبيب: أبداً، ولكن الشعب الفرنسي يتوق إلى أن يجعل من عاصمته نمطاً للمدينة الجماعية الفاضلة، مع كونه في عمق تكوينه يظل معتزاً بأصوله النصرانية وبأعراقه الإغريقية - اللاتينية، وينطوي على جذور عنصرية عريقة.

- حامد: ولكن قل لي يا ولد بلادي.... باريس هذه التي نمجدها، أليست عاصمة فرنسا الاستعمارية، المحتلة لأوطاننا منذ أجيال، المبتزة لخيرات أرضنا، المكممة لأفواهنا، والمنتهكة لمراجع ذاتيتنا الثقافية من لغة ودين وتاريخ؟ أليس حكامها هم المسؤولون عن خلع محمد الخامس والمنصف باي، وعن أفدح من ذلك: عن مجزرة سطيف الجزائرية، وعن

قنابل النابلم فوق «ديان بان فو» الفيتنامية، وغيرها كثير من مجازر التمدين ونشر الحضارة، كما يدّعون؟

- الحبيب: ذلك وجه من وجوه غوايتها، ولون من أصناف تلوُّنها كالحرباء تدور مع المحيط كيفما دارت هيئته. ألا ترىٰ أن ما تقدر أن تنشره في صحافتها هنا، لا يمكنك نشر سطر واحد منه في صفحاتنا بالرباط أو الجزائر أو تونس في ظل السلطة الاستعمارية؟

- حامد: وما يفعلون بالحرية وحقوق الإنسان وأحكام المواثيق الدولية يفاخرون بها ويدّعون أن احتلالهم للمستعمرات إنما القصد منه إنقاذنا من جاهلية القرون الوسطى، وتوطين الحضارة بأرضنا؟

- الحبيب: بضاعة للاستهلاك الداخلي، غير قابلة للتصدير... الخطر مضروب على الأساسيات من القيم الإنسانية. لا تسمح الجمارك السياسية إلا بتصدير بضاعة الإشهار الترفي مثل خمرة الشانباني، وعطور «سان لوران» وفساتين الحسان... مصايد للعملة وملصقات للإشهار السياسي.

- حامد: لا أشك أن بهذه البلاد نخبة فكرية تغير على وطنها من وصمة النفاق ومن عار الازدواجية.

- الحبيب: فيه قولان كبعض أحكام الفقهاء، ما تسميه بلفظ الأساسيات أرى حجر الركن فيها هو الصدق، لا أعني به ضد الكذب، بل المطابقة بين الخفاء والعلن، بين الظاهر والباطن... ويبعد في رأيي أن تحصل المصالحة في أجل قريب بين السياسة كممارسة وبين الأخلاق كعامل تطهير للذات. كلاهما يسبح وسط دائرة منفصلة.

- حامد: كنت أظن مع ابن خلدون أن السياسة محتاجة إلى الأخلاق، لتكون ممارستها متلائمة مع الدساتير، ومقبولة عند المواطنين.

- الحبيب: مثالية طيبة نسأل الله أن يعين على تحقيقها. ولكن طبيعة الإنسان أن يعيش متردداً بين ثنائية الخير والشر، المعروف والمنكر... قرأت منذ أيام تحقيقاً حول «صناعة التعذيب» في السجون الغربية. وكان فيها نفر من أقطاب المعارضة السياسية. سئل السجان عن تعذيبه لزعيم الجماعة، وقد نكّل به أشد أنواع التنكيل: هل علمت بما لضحيتك هذا من منزلة علمية ومن إخلاص للبلاد؟ أجاب: ليس ذلك شأني. أنا أقوم بواجبي معه أو مع غيره. ثم سئل: هل لك خصومة معه أو مأخذ عليه؟ أجاب: لا أعرفه. هو عندي رقم نكرة، ثم سئل أيضاً: أنت ولا شك ربّ عائلة وأب لأولاد لك، إذا رجعت إلى البيت ماذا تفعل؟ أجاب: لي في البيت زوجة طيبة وطفلة صغيرة أقضي في ملاعبتها أمتع أوقاتي. وأخيراً سئل عن مشاعره كإنسان إذا احتضن ابنته يلاطفها، هل تذكِّره ضحكاتها البريئة صراخ العذاب من السجين، فقال: لكل حالة وقتها. ساعات للوظيفة والعمل، وساعات للراحة وللأهل؛ لا أخلط بين هذه وتلك.

- حامد: غني عن الشرح لا يحتاج إلى تعليق، بل يذكّرني بمقولة معروفة إنها للفيلسوف هوبس: الإنسان ذئب لأخيه الإنسان.

ليلة حامد الأولى على سرير الغرفة ٢١ في مبنى الطلبة، بعد العشاء بمطعم النادي رقم ١١٥ من سان ميشال، وقد عاد صحبة الحبيب ومصطفى، يواصلون الحوار حول مفاهيم المدرسة الوجودية بزعامة جان بول سارتر. وما كانت مبادئ الالتزام الثقافي تجاه قضايا التحرير في الأوطان المستعمرة، لتعينه على النوم بهذه الحجرة الضيقة. حاول أن ينام وتقلَّب على جنباته. ولكن من أين له بغفوة نعاس، وخده في خصام مع هذه الوسادة الملبّدة، وذاك الشعاع المتسرب خلال النافذة من مصباح الشارع، والعادة عنده من الصغر أن لا يفوز بالنوم إلا في ظلام دامس.

وشعر بما كان للسرير من وسع يشكو الغياب، اهتاجت له الأشجان من ذكرى غرفة النوم برادس.

حاول أن يستنجد عنها باستحضار ما كان ينتظره في غد من ساعات القانون الروماني، ومحاضرة شعر «بودلار» في «كولاج دي فرانس» ومن زيارة معرض الرسوم الانطباعية وقد قرأ الإعلان عنها بمدخل مكتبة «جلبار»، وأدركته موجة نوم وهو يعقد العزم أن يزور مكتبة «سانت جنفياف» بأعلى الربوة وراء «السربون»... وكان سأل رفيقه الحبيب، بين صحن السلاطة وجفنة المكرونة: أليس في الحي اللاتيني أعلام فكر أو سياسة غير قساوسة الكنيسة، فما من شارع إلا باسم قديس؟

- الحبيب: هذا الحي الجامعي؛ أتدري لماذا سمي بالحي اللاتيني؟ منذ القرون الوسطى كان عامراً بالمدارس الدينية، يطلق على كل واحدة اسم علم من قساوسة الدين المسيحي. وقد كانت اللغة اللاتينية لغة التدريس إلى جانب كونها لغة القداس الديني بالكنائس يوم الأحد. فحافظ الحي على هذا النعت التاريخي إلى يومنا. السربون نفسها كانت في الأصل ديراً للعبادة ومدرسة لثقافة الأناجيل أنشأها أحد قساوسة الملك سان لوي، «روبار دي صربن» أواسط القرن الثالث عشر. وضريح عظماء الأمة في مبنى البنتاين كان في الأصل كنيسة باسم سيدة باريس القديسة «سانت جنفياف». وأحد فروع الكنيسة الخلوة أصبح يؤوي مدرسة هنري الرابع، الذي يُعد الطلبة لمناظرات الدخول لمدرسة «بوليتكنيك»، مثل مدرسة لويس الكبير.

- حامد: غريب هذا التمازج بين أقطاب الكنيسة وبين معالم الحداثة والإبداع العلمي.

- الحبيب: هو أكثر من التقاء جغرافي، بل هو المراح المفضل لممارسة الحرية الذاتية، حرية الضمائر، المؤسسة لكل إبداع.

- حامد: كنت أظن أن الكاثوليكية هي أصولية الدين النصراني تمثل التمسك بالنص والصرامة في التعبد، والمواظبة على قدّاس الأحد حتى ولو كان باللغة اللاتينية المجهولة اليوم لدى معظم المسيحيين.

- الحبيب: في التاريخ الوسيط كانت فرنسا البنت المفضلة عند كنيسة الفاتيكان. بينها وبين السلطة السياسية في باريس ميثاق ولاء أخلاقي... يمارس الملك سلطته بتفويض من السيد المسيح.

- حامد: وباسمه أيضاً يستبد بالحكم ويزهق الأرواح، ويرسل المعارضين إلى سجن «الباستي».

- الحبيب: ثورة ١٧٨٩ أعفت صاحب السلطة من هذا النفاق والافتراء على الدين. وحررت الضمائر، فأصبح التعبد اختياراً فردياً ومسؤولية ذاتية، أعفيت من الإكراه وتطهرت من عقدة التأثيم... وبذلك حقق المجتمع الفرنسي المصالحة التي كان ينادي بها فيلسوف قرطبة ابن رشد، بين العقل والدين، بين الحكمة والشريعة...

- حامد: منها جذور اللائكية المؤسّسة لنظام الجمهورية.

دخل حافظ في الجدل بدون استئذان وبادر الحبيب بالغضب المفتعل: من جرّأك على التاريخ يا ولد الفيافي الجغرافية والقفار؟

- حامد: جرَّأتنا الرحمة المسيحية. عيسى ابن مريم أهدى لحمه ودمه للمؤمنين ليكفِّر عنا الخطيئة الأولى من أبينا آدم وأُمّنا حواء. كما تقول الأناجيل الأربعة الصحيحة، ورضي بأن تخرق المسامير جسمه يوم صُلب بجبل الجلجلة.

- حافظ: أنت حفظت درس التاريخ جيداً. ولكنك تجهل أن بعض الأناجيل المطموسة لها رواية أخرى لا تبعد كثيراً عن الرواية القرآنية ولا تقر بثنائية الذات عند المسيح، بين المنزلتين الربانية والبشرية.

- الحبيب: الغريب في جانب المذهب الإصلاحي، البروتستانت الذي نشأ أواسط القرن السادس عشر أن أتباع كلفن ولوثر لا يقولون برمزية شكل الصليب، مع أن هذا يشير إلى صلب المسيح وقد ضحى بذاته القدسية للتكفير عن ذنب الإنسان، ومن شعائرهم تبعاً لذلك إطعام المؤمنين الخبز والخمر خلال قداس الأحد، رمزاً إلى لحم المسيح وإلى دمه. تذكيراً بالرحمة أساس العقيدة النصرانية.

- حافظ: الرحمة النصرانية! دعني أضحك وأشبع ضحكاً من هذه الكذبة في حجم جبال «الألب». هل نسيت مجزرة سطيف الجزائرية في ماي ١٩٤٥. أتدري أن عدد ضحايا الرحمة النصرانية خمسة وأربعون ألفاً من الجزائريين المسلمين الفرنسيين، أطفالاً ونساءً، شباباً وشيوخاً؟ ومجازر مدغسكر بعد عام، أزهقت الرحمة المسيحية ما لا يقل عن ثمانين ألفاً من أبناء الجزيرة، وسهول الهند الصينية. كم أودت قنابل «النابلم» الحارقة من نفسٍ بشرية من شباب الفيتنام، باسم رحمة السيد المسيح أيضاً؟

- حامد: كلامك صواب يا معجم التاريخ. ولكن قل لي: هل سمعنا بأن سلطة الكنيسة في الفاتيكان أعلنت لأتباع المسيح ولغيرهم من أهل العقائد الدينية عن استنكارها لهذه المظالم البشعة التي تُرتكب باسم المسيح؟

- حافظ: ولا هي خرجت عن صمت القبور أمام محارق اليهود من جرائم السلطة النازية في الحرب الكونية التي لا تزال الشعوب تضمِّد منها الجراح. وهل إلى غير اليهود أرسل الخالق ابنه المسيح رسول الرحمة، ليكفِّر عنهم وعنا خطيئة لا ذنب لنا فيها؟ صدق من قال إن العقائد الدينية تأكل أتباعها... أتذكر قولة قرأتها للعالم الألماني «آنشتاين» لا أذكر أين

التقطتها يقول ما معناه: أشد الأخطار إفساداً للحياة، ليس مأتاها من جرائم المجرمين، بل من سكوت المشاهدين لأفعالهم وجبنهم عن الاستنكار؟

- حامد: قل لي حافظ هل صحيح أن الغزاة الكاثوليك الذين احتلوا ممالك كانت قائمة بأمريكا الجنوبية أواخر القرن الخامس عشر كانوا يعتبرون الأهليين من الهنود الحمر مخلوقات بلا روح؟

- حافظ: المضحك في الأمر أن رئيس الكنيسة، بابا روما، كان يشاطرهم هذه الحماقة، ثم اضطر أن يصدر مرسوماً، عام ١٥٥٤، للرجوع عن هذه الحماقة والإقرار بأن سكان تلك الأصقاع لهم صفة الآدمية، ولهم داخل جلودهم أرواح حية كسائر البشر.

- حامد: هل إن الرحمة النصرانية هي الأخرى بضاعة للاستهلاك الداخلي، كالحرية، غير قابلة للتصدير؟

- حافظ: بالعكس، الكنيسة حريصة على التبشير بتعاليم السيد المسيح وتعمل على نشرها بجميع الأصقاع حتى بين الأمم التي لها دين يُغْنيها. فهل نسيت الحماقة الأخرى التي قامت بها الكنيسة عام ١٩٣٤ في تونس، لما عزمَت على عقد المؤتمر الكنسي على مرمى حجر من جامع الزيتونة معقل الدين الإسلامي في الشمال الإفريقي؟ ويخبرك إخواننا الجزائريون عن طابور القساوسة المنتشرين في جبال الأوراس وبلاد القبائل يبيعون آيات الإنجيل للفقراء.

- حامد: وتلك أيضاً من آيات الرحمة المسيحية.

- حافظ: أنت بدوي عنيد.

- الحبيب وهو يضحك: بدوي في حاجة إلى الرحمة.

- حامد: شريطة أن لا تكون سلعة من «الفاتيكان»!

عاد من مدرسة «سان غيوم» للعلوم السياسية، واختار في مطعم ١١٥ سان ميشال مقعداً بجنب الحبيب يبثه من حصاد يومه.

- الحبيب: يومك الأول بين أبناء النخبة الباريسية، كيف كان؟

- حامد: أدركت منزلتي من ساعتي الأولى بين بدلات القماش الإنكليزي والفساتين المزركشة. واتفق أن كان مقعدي في المُدرج بجانب شقراء معطرة. سألتها عن اسمها، فإذا هي حفيدة «باومغارتنر» محافظ البنك المركزي. وسألتني بدورها عن أصلي وعن إقامتي في باريس، ورمقتني بنصف حدقاتها الزرقاء إذ أخبرتها عن أصولي القبلية في سهول جلاص القيروانية.

- الحبيب: تلك المدرسة معقل أبناء العلية، يتخرَّج فيها من يتقلدون مناصب النخبة الإدارية والمالية والديبلوماسية. حضورك وسط هذا المجتمع المتميز نشاز، يفسِّر لك دلالة النظرة التي أتحفتك بها حفيدة رابع شخصية في الدولة.

- حامد: نسخة من جامع الزيتونة في بلادنا، طلابه من كل رقعة أما مشايخه فمن نخبة النخبة أسياد عائلات بلدية أصيلة، لهم وحدهم دون الناس خطط التدريس في الجامع والإفتاء والقضاء في المحاكم الشرعية.

- الحبيب: قل لي بماذا عدت من حصاد يومك الأول؟

- حامد: بكذبة علمية مشينة.

- الحبيب: أي كذبة؟ ففي مثل هذه المدرسة المشهورة ينتدب للتدريس فيها أبرز علماء النخبة الجامعية.

- حامد: اخترت شعبة العلوم السياسية، وبدأ أستاذ تاريخ المفاهيم السياسية يشرح الفرق بين هذا الصنف المعرفي وبين تاريخ الأحداث السياسية. ثم تطرق إلى تقديم برنامج المحاضرات لهذه السنة الجامعية،

فذكر أن العناصر الكبرى تقف عند المراحل الحاسمة من أطوار الفكر السياسي، انطلاقاً من جمهورية أفلاطون في العصر اليوناني ووصولاً إلى عصر التنوير وتآليف «مونتسكيو» عن دلالات القانون.

- الحبيب: وأين الكذبة في هذا؟

- حامد: في القفزة الزمانية بين المرحلتين. إذ أكد الأستاذ أن تاريخ المفاهيم السياسية عانى فجوةً طويلة دامت أكثر من خمسة عشر قرناً من أفلاطون إلى مونتسكيو، لم يتزود فيها هذا التاريخ بإضافة تستحق الوقوف عندها.

- الحبيب: وما الافتراء في هذا؟

- حامد: يكمن الافتراء في قتل ابن خلدون وطمس نفائس المقدمة في المرحلة الوسطى من هذه الألفية والنصف، يزخر الفكر السياسي بمساهمات عربية من أقلام عبد الرحمان بن خلدون والفارابي وابن رشد والماوردي وغيرهم كثير.

- الحبيب: سوف لا تلبث أن تدرك أن منطق المركزية الذاتية الغربية ليس حصراً على المجال السياسي كعلم أو ممارسة. بل يشمل التاريخ كعنصر من ذلك العلم، ويعم حقولاً معرفية عديدة أخرى كالفلسفة ولكن قل لي ما فعلت بعد الدرس؟

- حامد: استأذنت على الأستاذ وقلت له بأقصى ما أقدر عليه من اللطف: يا سيدي، أنا طالب من تونس. ومن أعلام بلادي عالم مشهور اسمه عبد الرحمان بن خلدون، ألّف في العلوم السياسية في منتصف الفترة بين أفلاطون ومونتسكيو... أجاب الأستاذ: بالطبع أعلم ذلك. ولكن سترى من بقية الدروس أن ما نعنيه بالفكر السياسي هو علم مستقل عن التاريخ وعلم الاجتماع... وهذا ما لم يأتِ به مؤلف بلادك في ما ترك من كتب. وعقبت على كلامه باحترام كبير أن الفكر العربي أنتج في العلوم السياسية مدرسة

منتظمة في حلقات متواصلة على مدى ثلاثة قرون، وأن لهذه المدرسة أعلاماً مشهورين وكتباً مفيدة مثل **المدينة الفاضلة** للفارابي ومقدمة ابن خلدون. و**فصل المقال** لابن رشد... وأدركت أن الأستاذ بدأت تظهر على وجهه أمارات الاستثقال لدرسي التاريخي، فتخلصت من حلبة النزال بأكثر ما أوتيت من قاموس الاحترام والاعتذار، وانسحبت من المعركة مهزوماً.

- الحبيب: خذ حذرك لموعد الامتحان، مرافعتك الوطنية هي عند أستاذك كالقشة في سبيكة الحديد. ولا تحسبنَّ مخاطبك مغيِّرًا رأيه أو منقِّحاً مادة دروسه بسبب ملاحظاتك. ثم إنه ليس من طبع أستاذ جليل في مدرسة مرموقة الإقرار بأن أحد طلابه أدرى منه بالمادة التي يدرسها، خصوصاً إذا كان هذا الطالب عربياً، إفريقيا، مسلماً، من بلاد هي في حماية «أم الوطن».

- حامد: كنت أظن أن النقاش العلمي في مدرسة مرموقة منزَّه من المقاييس العنصرية.

- الحبيب: أصبح قول الحق كلباس الزينة لا نرتديه إلا في محافل موقوتة. خارج هذه المناسبات ينقلب ثلباً وغروراً.

- حامد: جرَّبت ذلك منذ سنة ودفعت ثمن الصدق بالحاضر.

- الحبيب: كيف ذلك؟

- حامد: دع الحكاية لفرصة أخرى، الذي يحز في نفسي اليوم هو أن تقديري للأستاذ وثقتي في نزاهة علمه أصابها شرخ يعيقني عن الاستفادة من الدروس، استفادة صريحة خالصة. قل لي هل تقدر أنت أن تفيد من درس إذا خالطك الشك في نزاهة قائله؟

- الحبيب: يا مهبول أنت هنا طالب للعلم في مدارس شهرتها عالمية على ثلة من الأساتذة في أعلى منازل التقدير العلمي، وسط عاصمة

تلقَّب بعاصمة النور لغزارة ما ينتج فيها من علوم. وباريس اليوم هي من أبرز أقطاب عقلية القطبية الحضارية الغربية. العلم في مدارسها هو العلم، والثقافة في نواديها ومسارحها ومعارضها هي الثقافة، والذوق في متاجرها هو الذوق، صرة الجانب المتحضر من المجتمع البشري، والنمط الأمثل للحداثة والرقي. لا يحق لنا أن ننسى أن الثورة على الاستبداد حدثت في باريس قبل سائر «الحواضر الأوروبية»، وأن إعلان حقوق الإنسان والمواطن صدر هنا في باريس، وفي بعض ساحاتها تم إعدام لويس السادس عشر في جانفي ١٧٩٣، وكُتبت أبلغ صفحات الحرية على مدى العشرية الأخيرة من القرن الثامن عشر. فخذ من ذلك كله ما جئنا نتزود منه وغربل بغربال العقل والموضوعية، لا بغرابيل الانحياز والعصبية. تماماً كما فعل شعب اليابان من عصر الامبراطور «الميجي» أواخر القرن الماضي.

- حامد: لكن إذا كان النمط مختلاً وكان العلم ناقصاً، والمقاصد الله أعلم بحظها من النزاهة، أنأخذ بها هكذا؟

- الحبيب: تروق لي غضباتك البدوية. اسمعني يا حامد. أنا وإياكَ طلاب معرفة نتزود منها بالقدر الأوفى المستطاع. هدفنا الرجوع إلى أهلنا بالشهادات الجامعية وبالحصاد الأوفر من الزاد الثقافي والانفتاح المعرفي وصقل الأذواق. لم نأتِ إلى باريس لنصلح من عقائد الناس ولا لاستنقاص مناهج تفكيرهم، ولا لتصويب نظرتهم لنا ولأنفسهم. ذاك حقل سياسي له مواعيده وماعونه الخاص.

- حامد: الموضوعية صعبة عند من تسكنهم حميّة وطنية، هي من بعض جوانبها حجاب وانحياز.

- الحبيب: الحمية هي السلاح ما بقي استعمالها تحت السيطرة، إذا لم تحكم توظيفها انفلقت في وجهك. إذا كنت راغباً في الاستفادة صدقني

أن هذه البيئة من حولنا تزخر بما يستحق أن نتزود به من الإبداع في ميادين العلم والفن والثقافة شريطة أن نتحلى بما يتحلى به كل طالب معرفة.

- حامد: ما هي هذه الصفة السر الواجب أن نتحلى بها؟

- الحبيب: التواضع والتحكم الرصين في عقلية الاحتجاج واجتناب الاستنقاص المسبق.

- حامد: أشبعتني نصحاً اليوم يا رفيق الصادقية.

- الحبيب: ذلك بعض حصاد الأعوام الباريسية، أهديك إياها بدون مقابل، لوجه الله وللحمية البدوية.

جلس حامد بآخر مقاعد المدرج ينتظر أستاذ القانون الروماني، ويتفحص الوجوه. فبصر بصديقه الجديد حافظ صاعداً نحو مجلسه.

- حامد: تفعل ماذا في درس الحقوق وأنت خبير في التاريخ الوسيط ومكانك بالسربون؟

- حافظ: أضرب عصفورين بحجر واحد. وقت الغربة ثمين، أستثمره قدر ما أستطيع حتى يكون حصادي غزيراً.

- حامد: أنت تحسن الرماية.

- حافظ: بل أُحسن الهضم، أرأيت إلى المعزة تلتهم العشب وبراعم ورق التفاح دائماً على عجلة من أمرها. كأنما كان يومها يوم القيامة، هكذا أخوك، ألتهم وأختزن، ثم تأتي ساعة الاجترار والهضم.

- حامد: ما دعاك أن تختار فترة التاريخ الوسيط. لو خيرت أنا بين الفترات لفضلت التاريخ المعاصر يعينني أن أتفهم دواخل زماني الذي اعيشه.

- حافظ: كلِ فترات التاريخ البشري غنية بفتوحات الإنسان وغواياته. ومتحف الذاكرة التاريخية حافل بالشواهد.

- حامد: أغناها بهذه الشواهد الحقبة العصرية. فما أظن أن فترة مثلها جمعت ما يقوم في الآفاق حولنا من شواهد التقدم العلمي والاختراعات التكنولوجية والإبداعات الفنية، وقاست في الآن نفسه فواجع الحروب ووحشية التخريب والبطش. كأنما بنيت الحضارة العصرية على زوجية متعاكسة: ما يبنيه التقدم اليوم من صروح الإبداع وآيات الرقي تهدمه غداً معاول الأحقاد وشرور الحماقة.

- حافظ: لا شك أن نسق التاريخ في الزمن العريض يجعل الشأن الإنساني يتطور بمنطق التناوب بين الخير والشر. فترات للبناء العمراني والرخاء والأمن، تعقبها أيام الشدة والخوف والخصاصة.

- حامد: ما الذي أغراك بفترة محارق الأحكام الدينية وزمن الكسوف الحضاري؟

- حافظ: اخترت شعبة العصر الوسيط، ما بين القرنين الثالث عشر والسابع عشر لأمرين متلازمين: كانت فترة زرع بذور النهضة على سواحل الحوض الغربي من المتوسط بفضل حصاد العلوم والثقافة العربية اللسان.

- حامد: ولكن هذا القطب العربي للمعرفة قد بهِتَ بريقه بسبب التقليد والمعاودة.

- حافظ: ومن هنا انطلق التحول التاريخي الكبير بمراكز الإبداع الحضاري.

- حامد: صحيح شهدت بوادر التحول لمركز الحضارة من أقطابه الجنوبية بإفريقيا والأندلس إلى أقطاب شمالية بإيطاليا وإنكلترا وفرنسا. وسار الجانبان في اتجاهين متعاكسين، حضارة في تراجع فقدت أدوات المبادرة والريادة الفكرية ونخرتها ويلات الركود والفوضى، فاستعجمت عليها كوامن العقلانية في دينها وفترت حوافز الريادة الفكرية، فبات التديّن قرين القعود والانتكاس وانفصم ما بين زمانها الرديء وزمان

شموع الإبداع من أسلافنا، وحضارة صاعدة بدأت تكتسب آليات الهيكلة والتنظيم واستفادت من ميراث العقلانية والنهضة الفكرية. حقل ثقافي في الآفاق الجنوبية عاد المجتمع فيه إلى الأصولية الدينية يتخذ منها منازل العطالة الفكرية والانزواء التاريخي، يقابله في الآفاق الشمالية حقل لصنع التاريخ والسير حثيثاً إلى استئناف البناء الحضاري بأدوات العقل والثقة في قدرة الإنسان، والتصالح بين الحكمة والدين...

- حامد: تحوَّل الأصل فرعاً، والفرع أصلاً. تداول الحضارة بين الأمم.

- حافظ: من أبرز شواهد هذا التحول في الأوطان الغربية الانشقاق الثوري في الكنيسة المسيحية بين الأصولية الكاثوليكية الصارمة وبين المذهب الإصلاحي المجدد. وكما حدث في ديار الإسلام عقب الانقسام المذهبي بين سُنّة وشيعة انقسم الفضاء الإسلامي بين دول معدودة بقيت على مذهب السنّة ودول أخرى مثل العراق وفارس أصبحت دياراً لمذهب الشيعة.

- حامد: غريب أن يقدر رجلان متدينان على الخروج عن سلطة الفاتيكان وتقسيم جغرافية الديار النصرانية قسمين منفصلين، فضاء للمذهب الكاثوليكي يشمل أوطان الجنوب اللاتيني: فرنسا وإيطاليا واسبانيا والبرتغال بالدرجة الغالبة؛ وأوطان الشمال: ألمانيا وإنكلترا ومن بعدها الولايات المتحدة الأمريكية تتبع مذهب «لوثر» وكلفن...

خطرت بهما طالبة ضحوك، مربوعة القد، ناهدة الصدر كستانية الشعر، طلقة المحيا، بادرت حافظ تقول:

- هللو هفيز، أين غطست منذ أسبوع؟

- حافظ: هاي غاب! بين المدارج والمكتبة كالعادة، لكن دعيني أقدم لكِ حامداً طالباً قادماً من سهل القيروان.

- غاب: جئت تتزود للدفاع عن الأرملة واليتيم.

تلعثم حامد أمام فصاحة الابتسامة ووقاحة النظرة الفاحصة.

- حامد: وأيضا للتزود من مدرسة سان غيوم.

- غاب: أنا أيضاً، مصادفة طيبة، نتلاقى هناك، أي شعبة اخترت؟

- حافظ: حامد حيوان سياسي، اختار التسلح بنظريات الأنوار استعداداً للدفاع عن المظلومين ضحايا الاستعمار. أما غابرياله فهي قد اختارت شعبة الدبلوماسية، عساها تصبح سفيرة النرويج ببعض عواصمنا في شمال إفريقيا.

- غابرياله: سفيرة؛ ولِم لا؟ وإن كنت لا أحب شراب الوسكي. ولكن قل لي حامد: هل تسمح تقاليدكم أن تنفلت الأنثى من عش الحريم فتخرج للناس، وتتقلد مسؤولية عامة، فتصبح سفيرة أو عضواً في الحكومة، وتتمتع بجميع حقوق المواطنة، متساوية فيها مع الرجل؟

- حامد: ذلك عزمُنا يوم تفوز بلادنا بالاستقلال وينفرد جيلنا بصنع القرار.

- غاب: المجتمعات المحافظة لا تغيِّرها القرارات السياسية.

- حامد: هي جسر عبور وماعون التحول، والالتزام بأحكامها بداية الطريق.

- غاب: دعني أقل لك إن أساس التحول ساكن في العقول لا في النصوص، إذا صدق الرجل في تغيير نظرته إلى المرأة، من خليلة الفراش إلى رفيقة الحياة، يوم تنصرف عينه عن عجيزة جسمها ونهود صدرها إلى منهج رأيها ومضمون قولها. يومها تكون بداية الطريق. دعني أصارحك إني ما وجدت نماذج كثيرة من هذا الصنف الإنساني بين من أعرفهم من طلبة شمال إفريقيا.

لم تفت حامد ملاحظة ما حدقت به عينا الفتاة النرويجية في وجه حافظ وما لاح من بسمة ثغرها. بادر حافظ إلى طيّ صحيفة الحديث عن الجنس، وقال ضاحكاً:

- حافظ: هل تعلمين يا غاب ما حصل لزميلنا الجديد من جدل مع أستاذ تاريخ المفاهيم السياسية منذ يوم؟

- غاب: مهما يكن فهو أستاذ معروف عند الطلبة بالانغلاق العنصري. أنصحك أن لا تحتك به كثيراً. ليس له في المدرسة من منزلة إلا لدى المخنثين من سكان الدائرة السادسة عشرة، أبناء موظفي البنوك والدواوين الوزارية.

- حامد: لو خبرتك عما وقعت فيه من حماقة ساعة درس هذا الأستاذ. جلست بجانبي شقراء ململمة، سدى عطرها كادت تنسد به خياشيمي. أخبرتني إذ سألتها أنها حفيدة رجل اسمه «باومغارتنر»... وما دريت أن ذلك اسم محافظ البنك المركزي. وكان جهلي هذا أولى قرائن الاتهام لدى جليستي المرصعة بنقود جدها المحترم.

- غاب: ستجد نماذج عديدة من هذا الصنف المزيف، بشر نسَوا فتوة الصدق دوماً في أدوار الفرار من الذات. قد لا يعود أحدهم إلى جلده إلا بين وسائد النوم.

- حامد: هم أقرب إلى شخصية «بيرغنت» وأبعد ما يكونون عن صدق «سلناس البناي».

- غاب (بنظرة استغراب): أوَقرأت أدب «إبسن»؟

- حامد: دلني عليه أحد أساتذتي في الصادقية، فالتهمت ما وجدت بالمكتبة من رواياته.

- حافظ: ما الداعي إلى معاشرة هؤلاء المزيفين؟

- غاب: هم عندي كفيران المخابر الطبية. أدقق النظر في أقوالهم وسلوكهم لأعلم إلى أي قعر سحيق تهوي بعض الذوات البشرية. استفدت كثيراً من دراسات العشائر البدائية للمقارنة بطبائع الجيل المعاصر.

- حافظ: بين الطرفين مسافة أجيال من عمر الحضارة.

- حامد: مثلهم كمثل الأجيال الثلاثة من عمر العمران عند ابن خلدون، جيل البنّائين صنّاع التاريخ، ثم جيل المكملين المحسنين، وخاتمة العقد جيل المترفين، المستهلكين القاعدين عن كل هَمّ.

نظرت إليه غاب ملياً، ثم أردفت تقول: في كل الأحوال لكل جيل مبلغه من اكتمال إنسانيته.

دخل الأستاذ وانتصب وراء المكتب العريض، فقام الطلبة يصفقون، ثم شهروا الأقلام وانطلق الدرس. وعند خاتمته اقتربت غابريياله من حامد تقول: الأجيال الثلاثة عند ابن خلدون، هل لك أن تحدثني عنها أكثر، ساعة القهوة، بعد الغداء، مثلاً.

- حامد: كما تريدين، أنا تحت الطلب، يا سليلة «الفايتكنغ».

كلمات عادية ألقاها تأدباً، كأتفه ما يتبادله الرفاق في المدرج وما كان يدري ولد عيشة البية أنها بداية السطور في صحيفة جديدة من الحياة في باريس.

خرج من درس عن الأحزاب السياسية ألقاه أكبر أستاذ في تاريخها. وقد وجد مرة أخرى مرارة الخيبة من طابع التقصير والانحياز لدروس هذه المدرسة المشتهرة عالمياً بشمولية مادتها ومنزلة مدرِّسيها. فكأنها لم توجد أحزاب معارضة لنظام الحكم أو منتصرة له إلا في الأقطار الغربية؛ بعضها لا كلها. وكأنما اقتصر على الفترة المعاصرة ظهورها في الساحة السياسية، وتساءل في نفسه، وهو يتوجه إلى المشرب: ألم تكن الفرق الإسلامية التي

نشأت عقب الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية أحزاب سياسية منتظمة حول «زعيم» متبع، يقول جميعهم بنظرية الحكم القائم، وينادون بمشروع بديل؟ وخطر له أن فرقة المعتزلة تشكل حزباً سياسياً يقول بحرية إرادة الإنسان في أفعاله، حتى ذهب بعض الغلاة منهم إلى القول بأن إرادة الإنسان تقوم ضد إرادة الله، وكان له مذهب في خمسة عناصر أساسية أهمها القول بالعدل في عدم تكليف الإنسان بما لا يقدر عليه ليكون لحسابه معقولية، وهو أكبر فريق سياسي كان يؤمن بسلطة العقل وقدرته على التمييز وترشيد السلوك.

وفجأة بصر بالطالبة النرويجية تلوّح له بيدها تدعوه أن ينضم إلى مجلسها صحبة شاب آسيوي، أخبرته أنه كوري الجنسية.

- قالت: يبدو من ملامحك أن حصادك من العلوم الغربية لم يفِ برضاك اليوم.

- حامد: حدسكِ لا يخطئ يا قارئة الفنجان، خرجتُ من درس حول الأحزاب السياسية، بحصاد زهيد لم يُشبع.

- قالت: دعني أقدم لك كين لي من كوريا، يدرس معي في شعبة الدبلوماسية. والآن قل لي ما الذي رأيته من تقصير في درس الأحزاب السياسية؟

- حامد: حكاية طويلة أخشى أن تكون خارج الموضوع، وأنتما فيمَ كنتما تخوضان؟

- غاب: كين لي كان يحدثني عن المؤامرة ضد مشروع التوحيد بين شمال شبه الجزيرة الكورية وجنوبها.

- كين لي: مؤامرة يشترك في حبكها الجانبان السوفياتي والأمريكي، نحن منحناهما فرصة للمهادنة والاتفاق.

- حامد: التقاء المصالح المادية. هل علمتِ يا غاب بالمشروع القانوني المعروض على النقاش في رحاب جمعية الأمم المتحدة؛ قانون شرعية التدخل في شؤون أي دولة ذات سيادة، إذا كان سلوكها متناقضاً مع أحكام الميثاق؟

- كين لي: قرأت عن ذلك في بعض النشرات. شاهد آخر على القطبية الغربية في حقل السياسة العالمية. لن يبقى معها لمبدأ السيادة الوطنية من فاعلية ولا مضمون.

- غاب: منطق العصا الغليظة. شأن كوريا في أمر توحيدها كشأن بلادي النرويج في المنازعة مع الدنمارك، كوريا والسويد. قطب سياسي يجلبنا إلى «ستوكهولم» بحكم قانون الغلبة، وقطب ثقافي يجذبنا إلى «كبنهاغ» بقوة الموروث اللغوي والإبداع الفكري.

- حامد: ما أراكِ إلا ميالة للقطب الثقافي في الدنمارك.

- غاب: لا نجاة من كماشة السياسة إلا بالإبحار في أغوار الثقافة. هي السلاح، قارب النجاة من الغرق والفناء في الآخر. أسطورة سفينة نوح، على ظهرها نجت من الطوفان بذور البقاء ومشاتل الحياة، ونجت حرمة الإنسان من بطش الآلهة، وبقيت للإنسانية أوساع المستقبل.

- حامد: وقد تكون الثقافة أيضاً ماعون استلاب، مضى أكثر من قرن والاستعمار الفرنسي بوطننا المغربي، لا ينفك يعمل على تجفيف أصول الثقافة العربية، تجنيساً للغة وترسيخاً للفرْنسة، وتزييفاً للتاريخ، والتشكيك في منابع العقيدة.

- غاب: لولا يقين السلط الاستعمارية بقدرة الثقافة على تأصيل الذات في المراجع الثابتة من الخصوصية الحضارية لما فتحت عليها واجهات التزييف والاستئصال. صدقني، الثقافة هي قارب إيزيريس وأمضى سلاح. فإنه لا يشتد الهجوم إلا على القلاع الحصينة.

- كين لي: ما أبعد أحزابنا السياسية في كوريا عن الوعي بالقدرة النضالية الكامنة في الثقافة. يحسبون النضال مقصوراً في غاياته على تبديل نظام حكم أو تغيير قوانين الممارسة. وينسون الإنسان المواطن في ما له من إرادة البقاء لا كذات نكرة، مواطن الكون بأسره بل كذات موصوفة لها جذور.

- غاب: لذلك أقول إن الإنسان مخلوق ثقافي، وليس حيواناً سياسياً كما يقول بعضهم في دروس هذه المدرسة. بالثقافة يكون أو لا يكون.

- حامد: ذاك بالضبط ما وجدته من مأخذ على درس أستاذ الأحزاب السياسية. اقتصر على القشور السطحية من رسالة الأحزاب، ونسي أو سكت عن أن قيامها يجب أن يعمل على نجاة الزورق من الغرق، وعلى حفظ مقومات الذات من الطمس وصون الخصوصية الحضارية من الذوبان في ما يدعى اليوم بثقافة العولمة.

- غاب: لا أكره عندي من أن أسكن المدينة السواسية في رواية أفضل العوالم لألدوس هكسلاي، الإنسان فيها ذاتٌ مزيفة تطهرت من القيم جميعها، وقصر وجوده على إشباع غرائز البطن والفرج وسقط في عيش بلا مقصد وحياة بلا إرادة.

- حامد: لذلك أنا معجب بشخصية «سلناس البناي» في رواية «إبسن».

- غاب: ما الذي يعجبك في روايته؟

- حامد: كان يرى أن الوجود إرادة، يعتزم أن يشيد بها في السحاب قصراً، يخلو فيه إلى بنية بريئة، ويتخلص من الكذب الوجودي.

- غاب: كتب يوماً في إحدى رسائله: أن كل إنسان في الحياة كربّان البحر يقود سفينته وعليها راية خاصة.

- حامد: شعاره مقاومة الكذب الذي كان يتمرغ فيه «بيرغنت»، بطل روايته الأخرى، خليط من اتباعية وانخذال. ألم يقل إن الأساس هو الصدق، وأن نريد ما لا بد أن يتوجه إليه العزم. ما سوى ذلك كذب ورداءة.

- غاب: مسرح «إبسن» مدرسة للإرادة وتربية على تمجيد العزم.

- حامد: تذكرني رواياته بغيلان الدمشقي أحد أبطال المعارضة السياسية في تاريخ بني أمية، أول دولة مدنية أواسط القرن الثامن. أنشأ في السياسة مذهباً قائماً على مبادئ العقلانية والتحرر من الخضوع لاستبداد الحاكمين.

- غاب: غريب أن يظهر مثله في زمان الحكم المطلق الناطق باسم الإرادة الربانية.

- حامد: دفع الثمن بالحاضر، قتله السلطان شر قتلة: اقتلع لسانه من بين فكّيه. لسانه الذي كان يدعو به الناس في أسواق دمشق أن لا يتولى أمرهم إلا من ارتضته الأمة بالإجماع على أساس قيمته الشخصية وأخلاقه؛ لا على أساس انتمائه القبلي أو انتسابه إلى فئة الحاكمين.

- كين لي: من مبادئ جمهورية أفلاطون اليوناني استقى...

- حامد: نعم ولكنه وليد بيئته الإسلامية، إذ كان المتنافسون في عصره يبررون مذاهبهم بتعاليم الدين وسيرة الرسول وأحاديثه.

- غاب: هل خلّف أتباعاً لمذهبه هذا.

- حامد: ويا لهم من أتباع، مدرسة فكرية ونهج في الثقافة السياسية عمّت أراؤهم جميع الأقطار العربية وانتشرت في عواصم الأندلس، ولم ينقطع إلى اليوم أتباعها. هي مدرسة المعتزلة. هذا بعض ما لم يذكره أستاذنا لتاريخ الفكر السياسي ولا ورد في مذكراته كلمة عن المدينة الفاضلة للفارابي، ولا عن مقدمة ابن خلدون.

- غاب: لا شأن عندي لثقافة منغلقة، لا يؤمن أهلها بالتلاقح بين الإسهامات المختلفة ولا تحصد لخصوصيتها من زاد التراكم. فلا ثقافة مع الغرور ونوازع الاستعلاء. أرأيت إلى النازية، إنما هلكت وخسرت الحرب لأنها كانت تقوم على ثقافة الاستعلاء وتقول بتفوق الجنس الآري على الأجناس كلها. انغلقت ذاتها الجرمانية واستخفّت بالقيم الإنسانية فاستهانت بالحق في الحياة وزرعت الموت والخراب بجميع أنحاء العالم.

- حامد: لو لم يكن أدب إبسن قد جمع بين طابع الثقافة النرويجية السلتية وبين أوساع القيم الإنسانية المشتركة ما كان لرواياته من انتشار خارج عاصمة أوسلو. إنما هي أسماء مختلفة وأوضاع متباينة والمأساة واحدة. ويبقى لكل إبداع لبوسه الخصوصي ينجيه ويفرزه. فلو ألبستكِ فوطة وبلوزة هل تُراكِ خارجة من جلد المرأة النرويجية فتصبحين امرأة تونسية؟

ضحكت غاب وبرقت عيناها، وانصرفت وهي تقول: لا بد أن أجرب يوماً لباس المرأة التونسية.

تركها حامد وخرج يطلب رغيفاً بمشرب للطلبة قريب من شارع سان جرمان.

اعترضه حافظ، وهما خارجان من مطعم ١١٥ سان ميشال، فبادره يقول: لم أرك منذ أسبوع. ما فعلَت بك النرويجية سليلة الفايكنغ؟

- حامد: غير الذي فعلت بها. عِشرة طلابية، متّنتها مشاركة في المراجع وتوافق في الذوق.

- حافظ: هكذا تكون بدايات كل مغامرة، مشاركة ثقافية بريئة، وتوافقٌ في تذوق موسيقى فاغنر وبرامس، ثم مآل العشرة إلى الفراش.

- حامد: على مهلك يا ابن العم، دعك من الظنون، هذه الفتاة ليست عندي صيداً للمتعة، على ما بي من جوع، وأنا زوج أمين لمن تنتظرني في تونس.

- حافظ: لكنك أنت عندها صيد وفريسة سهلة بسبب صومك، وقد لا يطول بك في صحبتها الجوع الجنسي، فتفيق ذات صباح وأنت عارٍ بين دفءِ الوسائد.

- حامد: وما العيب إن بلغت بنا الصحبة هذا المآل العابر، أليس لكل واحد من الرفاق خليلة عشرة، ولعامة الطلبة بهذا الحي الموعود لإشباع الغذاءَين الفكري والجسدي؟

- حافظ: ما كل الخليلات بمثل هذه النرويجية مهارةً في الصيد وصبراً على الفريسة.

- حامد: اطمئن يا ابن أمي، ما أنا وإياها إلا كرفيقَي سفر في قطار المترو، ربط بينهما أنس الحديث، حتى إذا بلغ كلانا محطة النزول، ذهب كل في سبيله.

- حافظ: اسمع يا حامد، نفر عديد من رفاقنا أبناء بلدنا لم تنتهِ بهم الرحلة المشتركة عند المحطة المقصودة. وتواصلت العشرة، ولم تبقَ عند الكثير تجربة عابرة، بل انقلبت إلى ميثاق دائم وأسر متين، خاصة إذا أسفرت العشرة عن إنجاب بريء. ونحن لم يرسلنا أهلنا إلى هنا لنعمل على تكثير النسل في عائلات البلد، ولا كذلك لنوسع بالتجارب العابرة من ثقافتنا الجنسية.

- حامد: ما أثقل نصحك يا حافظ وأطيبه، يذكِّرني وصية الوالدة أن لا أنسى الغرض الذي يبرر عندها الغربة ويصبّرها على مرارة الفراق.

- حافظ: نصيحة الأم صدى أمين لصوت الوطن، ليس أصدق منها صدى ولا أكثر تطابقاً، يقتضينا الوعي الدائم بين المهم والأهم. أنا لا أحملك، بالوعظ الكاذب، على الإمساك والعفة، وأنت مراهق مثلي وسط هذا الحي الجامعي، نصفه من الحسان انتصبن للصيد. فلأجسامنا حق علينا، كما لعقولنا، يتطلب كلاهما الإشباع. ذاك هو المهم.

- حامد: والأهم ما هو يا فيلسوف التاريخ.

- حافظ: الأهم ساكن في سويداء الضمير. لكل واحد ميثاق مكين بينه وبين الأهل، وعلينا جميعاً عهد مشترك، أن نكون من جيل البناة، المؤسسين للمدينة الفاضلة الجماعية بربوع الوطن المعوّل علينا.

- حامد: قل لي هذا بصيغة أبسط، يا حفيد ابن خلدون، فإنها لا أثقل على النفس من المواعظ المنبرية؛ فالأخلاق عندي أمانة في سويداء الذات، تزيفها لغة الدعوة.

- حافظ: وكذلك هي عندي، وما قصدت أن أتباهى عندك أو أذكِّرك بما نعلمه جميعاً من فصول **المقدمة** الخلدونية أو **مدينة** الفارابي... إنما أردت أن أبثك حصيلة تجارب سابقة فيمن أسعفهم الحظ بالتعليم الجامعي، يتأهلون به لحمل الأمانة ويسخرهم لخدمة والوطن.

- حامد: طيب وما علاقة الفارابي بالحسناء النرويجية.

- حافظ: المدينة الفاضلة إنما يبنيها جيل الصرامة والشدة، لا جيل العزائم الرخوة عبيد البطن والفرج.

- حامد: أرى أنك لم تنسَ أدب الأجيال الثلاثة في مقدمة ابن خلدون

- حافظ: ولا كذلك ما يسميه الكاتب النرويجي هنريك إبسن، الذي تخبره غابرياله باسم الكذب الوجودي، خليطاً من العزيمة الرخوة ومن الرضى والاتباعية، أنصافاً من بشر بلا هدفٍ مقصود ولا عزم مريد.

- حامد: وهل وراء كل رداءة الذات مفاتن أنثى، وفي كل سقوط هزيمة جنسية؟

- حافظ: صدقني يا حامد، تأملت طويلاً في دراساتي التاريخية عن سقوط الأندلس وانقراض حضارة عربية عمرت بالجزيرة الإسبانية ثمانية قرون، ما علّة هذه المأساة.

- حامد: وما هي حصيلة تأملاتك الأندلسية؟

- حافظ: عاملان اثنان بارزان بين عوامل سقوط دولة بني أمية وانجلاء الحضور الإسلامي، التكالب على السلطة والإفراط في إشباع الغريزة الجنسية، وفي كلتا الحالتين خروج عن تماسك الذات.

- حامد: عبرة جليلة من حصاد التاريخ، ولكن ما شان أخيك بتداول الدول، وما أنا إلا عابر فراش، إن فشلت نصائحك الغالية.

- حافظ: فراش وفراش، واحد للعبور، كما تقول وفراش للغرق والأنكاد.

- حامد: أرى لك بشؤون الفراش دراية ما أحسبك قطفتها من كتب التاريخ.

- حافظ: ومن التجارب أيضاً. إذ ليس أخوك راهباً من النسّاك الزاهدين في نهود الحسان.

- حامد: وكيف خلصت نجياً من تجاربك السريرية وصنت حرمة الذات؟

- حافظ: بشعرة سيدنا علي كانت درعي الواقية. أيقظت من غفلتها كرامة المستضعفين أمثالنا.

- حامد: هكذا بمحض الصدفة كانت الشعرة حاضرة على الموعد في ساعة الغرق؟

- حافظ: القصة بسيطة. إذ في تجربتي قصة وقعت بيني وبين الفتاة النرويجية نفسها. فقد تحدتنا في نفر من إخواننا المشارقة في خاتمة سهرة ذات كؤوس، ورمتنا أبناء الأوطان الحارّة بأننا عبيد لغرائزنا. ما منا أحد إلا وتكفي في قوده من أنفه خصلة شعر شقراء أو صدر ناهدة، وكانت تتحداني بكلامها أكثر من سائر الرفاق. فلما كانت ساعة الفراق تحديتها.

- حامد: كيف كان الرهان؟

- حافظ: دعوتها إلى حجرتي وعرضت عليها أن تقاسمني السرير. فقبلت. وتجردت من ثيابي وتعرت واضطجعت بجنبي واضطجعت وشغلتها ببعض ذكرياتي من مقامات الهمذاني، وسلحت بها صبري ودام النزال الصامت إلى أن انبثق شعاع الفجر، فنهضت عنها أغتسل وتركتها في الفراش منكمشة ثم غادرت الحجرة.

- حامد: كان امتحاناً لها وبطولة من ولد المناطق الحارة.

- حافظ: وعند أخيك أيضاً كان امتحاناً عسيراً. إذ لا أخفيك حقيقتي، ما استعنت بالهمذاني وأبي نواس إلا لأغالب العطر المتضوع من إبطها وأصرف البصر عن تكوم نهديها، وأتخلص من هجوم خصلات من شعرها كرّة بعد كرّة. وكلما قاربتُ من الهزيمة ذكرت شعرة سيدنا علي واستنهضت مشاعر الكرامة.

- حامد: ساعة صدق ستبقى محفورة في ذاكرتها.

- حافظ: وساعة الثأر للشرقي المتخلف من نوازع الاستعلاء وغرور التفوّق لدى الإنسان الغربي، ذكراً أو أنثى، في نظرته لمجتمعنا العربي.

- حامد: كيف آل الأمر بينكما بعد ليلة الاعتصام؟

- حافظ: أضحى بيننا عقد مسكوت عنه، هدنة كالحرب الباردة بين ندَّين يشتركان في طبيعة العناد والإصرار. لا يرضى أحدهما من الآخر إلا بالإذعان والاستسلام، كما فعل الأمريكان مع اليابان عقب محارق هيروشيما ونكزاكي، بصلف غرور الأنا الغربي أقدم قائد جيشهم على إهانة الشعب الياباني في شخص امبراطوره رمز الدولة العريقة في البطولات والأمجاد.

- حامد: ذلك شاهد على حماقة الغرب في القول بقطبية الذات وبمركزية ثقافتها فوق الثقافات جميعها.

- حافظ: ما النصر إلا بالذود عن الثقافة وما الفشل إلا بفقدانها وتزييف مراجعها، وما هزمنا الغرب إلا لأننا ارتضينا بالهزيمة ووطّناها في النفس ومددنا لسيفها الأعناق، يوم زهد بعض أسلافنا في إشراقات ثقافتنا. ورضوا بتحنيطها وجنوا عليها بما كان بالأنفس من داء القعود. شأننا في ذلك كشأن الأثوار الثلاثة في كليلة ودمنة، إلا أننا أُكلنا يوم أكل الثور الأبيض.

- حامد: هذا يعني أن التمسك بأصالتنا الثقافية وفك أغلالها هي بداية النهضة.

- حافظ: وهي بالخصوص مضمون المسؤولية. وإني وإياك في عداد النخبة الوطنية المؤتمنة على هذا الرزق الثقافي النفيس، مسؤولية نحملها لمجرد انضمامنا لزمرة الطلبة بهذه الجامعة. رضينا بالرسالة أم كرهنا. هو واجب وطني منزلته كمنزلة التكليف الديني.

- حامد: أفهم من هذه الخطبة المنبرية أن سلوكي الشخصي، أنا الطالب بمدرسة العلوم السياسية، القادم من ريف القيروان، سلوكي هذا مندرج في جهاد الوطن ضد التخلف والاستبداد. ألا ترى يا حافظ أنك رفعت سقف الرهان عالياً فوق الاقتدار؟

- حافظ: ألم تتزود من أدب الالتزام في فلسفة سارتر الوجودية. وسترى أن زميلتك النرويجية ترفع سقف الرهان أعلى مما فعلت؟

لم يفهم حامد ما قصد إليه زميله حافظ، وجعل ذلك الغلوَّ على حساب ما يضطلع به حافظ من مسؤولية في الشعبة الدستورية للطلبة بجامعة باريس.

صدق حافظ. فلم يعد يمر يوم دون أن يلقاها على باب الكلية أو في مكتبة المدرسة أو بين مقاعد المشرب؛ لقاء كالصدفة المحسوبة تولدت عنه ألفة كالحاجة إلى الرفقة وأنس المجالسة. دعته يوماً إلى الغداء بمطعم مدرسة «لويس الكبير». فطعامه أطيب من أطباق المكرونة في مطعم ١١٥ سان ميشال. لم يكن بين الموائد سوى بقعتين جنباً إلى جانب. جاء بطبق الوجبة وجلس إليها، يجهد أن يوسع في الفسحة بين المجلسين. ولم يمنع ذلك من أن يلفه تضوع عطر رقيق، يتلخص في شذاه حضور الجسم وإيقاظ الجوع المكبوت. وكانت تلحظ جهده متلاعبة كتلاعب القط بفريسة الفأرة المحصورة. بادرها بأتفه كلام فراراً من ذلك العطر المشاغب.

- حامد: مدرسة لويس الكبير مدرسة عريقة. أظنها من مآثر القرن السابع عشر تخليداً لمجد لويس الرابع عشر.

- غاب: هي بوابة المدارس الهندسية العليا. لا يترشح لبوليتكنيك أو للمناجم أو الجسور إلا من تزوّد في هذه المدرسة بأمتن زاد من الرياضيات.

- قال: الكثير من طلبتها غير فرنسيين، من شمال إفريقيا والسنغال وحتى من أقطار آسياوية بعيدة.

- قالت: وكذلك من النرويج والدنمارك والسويد، وإن كانت لنا بحواضرنا الشمالية مدارس عديدة تضاهيها في الإعداد للمعاهد العليا.

- سألها: ما بالك لم تواصلي دراستك بجامعة أوسلو، وهي من أعرق جامعات أوروبا، في بدايات القرن الماضي على ما أظن؟

- قالت: صحيح. ولو بقيت في أوسلو ما كنت ألقاك ولا ألقى حافظ وآخرين من طلبة شمال إفريقيا وآسيا.

- سألها: هل قولكِ هذا مدحٌ بمناسبة، أم حشرٌ لنا في نماذج الفيران المخبرية؟

- ضحكت وقالت: الاثنان معاً. أهوى المعاشرة وأتزود بما أقدر من حصادها. بكل عشرة كتاب لمن يحسن القراءة، وبكل كتاب مغامرة وجودية.

همّ أن يسألها عن كتابه هو ما حصدت من زاده. فأمسك.

- فواصلت تقول: الشهادة غاية كل واحد منا في ختام الفترة الدراسية وأهم من الشهادة عندي زاد الطريق والحصاد الثقافي، أغنم من ثماره طوال فترة الدراسة.

- حامد: أما وجدتِ في جامعة أوسلو نماذج مخبرية من شباب ألمانيا والسويد والدنمارك؟

- قالت: بشر سواسية من أنماط متماثلين، كالملابس الجاهزة في رواق «لافايات» أهم الطموح عند معظمهم أن يتجرد من الطموح ويدخل في القطيع ويسلك بين مسامير الشارع.

- حامد: عجباً أنتم تدينون بالبروتستانتية وهو مذهب أدعى من الكاثوليكية إلى الفردانية ومغامرات الذات العاقلة.

- قالت: وأين المغامرة إذا كان الناس قطيعاً يقلد أحدهم الآخر، ويقلد جميعهم فحل الأكباش.

- قال: النمط هو دوماً الحافز على التقليد، الداعي إلى الارتقاء الاجتماعي يقلد أدنى الناس نمط أعلاهم. وقد جعله ابن خلدون قاعدة أساسية في الحراك الاجتماعي.

- قالت متعجبة: قبل دركايم بكم سنة؟

- قال: بأكثر من أربعة قرون.

- قالت: لا أحب أن أترك ثنايا المغامرة وأقنع بتقليد وثن محنط. ألا ترى أن وثنية النماذج هلاك للديمقراطية، وطمس لإمكانات الذات الخصوصية؟

- قال: ولكنكم في الغرب تسعون جاهدين أن تطمسوا التنوع وتمحو الخصوصية لفرض قطبية النمط الغربي للحياة، فهذا مصبوب في قالب الفردانية الليبرالية من وحي «آدم سميث» وذلك مخبوز بعجين الماركسية متطوع لبناء المدينة الجماعية، مدينة التماثل والاستقالة.

- قالت: ثقافة الاختلاف والزركشة البشرية هي حقل الإبداع. لولا التسامح مع الاختلاف في باريس ما كنا نتمتع بأدب المدرسة الزنجية ونتغنى بشعر سانغور، وما كنا نتذوق جمال الأقنعة السنغالية ونرقص على موسيقى «البلوز». هذا ما يشدني إلى عبقرية باريس.

- قال: وما هي عقاقير هذه العبقرية التي لم تجديها في أوسلو؟

- قالت: عقاقير كثيرة لكل واحد منا خلطته المفضلة بحسب ما له من جوع معرفي وما جاء به من زاد الطموح. من التنوع الثقافي الخصب

أطلب إشباع الجوع الثقافي ومن حصاد التراكم التاريخي أتزود لطموحي. وأنت بأي عقاقير تمزج خلطتك؟

- قال: خليط من حمية سياسية ومن تنظير ثقافي؟

- قالت: الحمية السياسية أفهمها وأرى أن من تؤهله الجامعات إلى منازل النخبة يحمل من ذلك مسؤولية سياسية تجاه قومه كمثل الالتزام الوجودي في أدب سارتر. أما التنظير الثقافي فلم أفهم مقاصده.

- قال: سألتِني من حين عن مفهوم التقليد. كم بين دركايم وابن خلدون من فجوة زمانية، أنت تقدِّرينها بأرقام الحساب التاريخي، وهي عندي رحم لمشاعر الاعتزاز القومي بما كان للعالم التونسي من سبق علمي. ليست هذه المناظرة مقصودة لإثارة هذه المشاعر، إنما هي نزعة تلقائية لا أملك دفعها.

- قالت: ألا ترى أن هذه النزعة التلقائية قد تعوق عن الاستزادة من منابع المعرفة؟

- قال: هل تعلمين أن للغرب ولعلمائه بالخصوص مسؤولية في ذلك؟ تحملهم القطبية الحضارية إلى تجاهل مساهمات الحضارات الأخرى أو إلى التحقير من منزلتها الفكرية. عن قصد أو غير قصد فقد حدثتكِ بما أدهشني وحزّ في نفسي من استخفاف أستاذ تاريخ المفاهيم السياسية بمساهمة ابن خلدون رغم أهميتها العلمية وشهرتها العالمية.

- قالت: ما اختلطت السياسة بالثقافة إلا كانت الغلبة للسياسة ولتجفيف منابع الإبداع. أين اليوم في الثقافة الروسية أمثال أدب دستويفسكي وموسيقى رمسكي كرسكوف؟ أخشى أن لا يتيح النظام السوفياتي مجال الإبداع لغير الأنماط المزيّفة المسخَّرة لخدمة سياسة ستالين، أبِ القوميات المزركشة.

- قال: ما كل تطوع سياسي أرض سباخ، أديمها عقيم. وتعلمين أن الثورات القومية تنبت جذورها في قصيدة شعر، من أمثال شعر أبي القاسم الشابي في وطني التونسي أو شعر فكتور هوغو بفرنسا. وتذكرين ولا شك ما في معزوفة «البولونية» على بيانو شوبان من حمية وطنية. ألم يُروَ عن الطاغية أدولف هتلر أنه كان يستمد من موسيقى فاغنر مشاعر القوة الجرمانية؟

- قالت: قد تكون على حق. ولكن الأثر الفني الخالد تنبت جذوره في أديم الحرية الناجية من كوابح الانضباط السياسي، حرية جنون وانعتاق وجودي.

- حامد: لذلك كان الشعراء مصنفين في عداد السحرة وحتى نبي الإسلام عدَّه معاصروه ساحراً وكذلك موسى بعصاه.

ونظرَت إلى ساعة معصمها ثم نهضت تقول: قَرُب موعد الدرس في السياسة فهي تطوقنا من كل جانب؛ لا شكر بيننا على لحمة البطاطا المقلية. كان لي في حديثنا متعة وأعجبني فيه تنوع اهتماماتك الثقافية... غير مألوف.

- قال: نمط شاذ عن فيرانك المخبرية.

- قالت وطبعت شفتيها على جبينه: بل رفيق في حقل التراكمات الثقافية، أتزود منه.

خرج إلى «سان ميشال» يتلمّس جبينه ويتساءل عن القبلة المفاجئة ما فحوى رسالتها، إن كانت لها مقاصد؟

خرج ثلاثتهم من مشاهدة رواية «الأيدي القذرة» لزعيم المدرسة الوجودية «جان بول سارتر» ولاذوا من مطر رذاذ إلى مقهى قريب من شارع الأوبرا.

ـ غاب: ما رأيت أروع من أداء «جيرار فيليب» في دور «هوغو» ولا أعسر منه في الازدواجية، للشاب البرجوازي يسعى أن يكفر عن أصوله في طبقة الموسرين ليكون مقبولاً عند رفاقه في الحزب الشيوعي.

ـ الحبيب: معضلة الصدق الممتنع في كل مغامرة وجودية، بين الأصول المتجذرة وبين اللباس الوظيفي. المأساة في الرواية جدار الفصال بين الطبقات الاجتماعية، يجتهد «هوغو» أن يخرقه ولا ينجح إلا أن يخرج من جلده، فيصبح مجرماً يقْدم على قتل «هيدرار» رئيسه أمين عام الحزب.

ـ حامد: يذكِّرني هذا الدور بعقدة الممثل عند «ديدرو» الفجوة بين الأنا في الذات القارة بكل خصائصها وبين الذات المتقمصة في الدور التمثيلي.

ـ غاب: حَبَك «سارتر» عقدة المأساة حبكاً، إذ جعل قتل «هوغو» لرئيسه يحدث بعد أن أصبح معجباً بخصاله القيادية، وينفذ «هوغو» الفعلة بعد أن ثبت لديه براءة «هيدرار» من الخيانة، وأصبح «جثة نكرة» ضحية لجريمة عبث بلا مبرر.

ـ حامد: وتزداد العقدة حبكاً إذ حامت الشبهة حول علاقة غرامية بين الزعيم الفذ وبين زوجة كاتبه المهرجة الساخرة «جسيكا».

جاء النادل بفناجيل القهوة، فالتفت الحبيب إلى حامد يقول وبيده ملعقة الصحن: هل لكَ في ملعقة زيت كبد الحوت على خاطر الجدة المقعدة، وخذ لك معلقة أخرى على رحمة البناي سقط من أعلى سرير البناء.

أضافت غاب ساخرة: وملعقة ثالثة على نخب المقاوم المعذب في سجون الاستعمار.

- حامد: ثقافة المقاومة انبعثت من ساحات الصدق في زنزانات السجون وفي غيران الجبال، كأسمى مراتب الالتزام الوجودي في كفاحنا ضد الاستعمار.

- غاب: أُعجبت كثيراً بدور «ألغا» المناضلة النصوح، لم يطمس الانضباط الحزبي زادها من الإنسانية وخوفها على «هوغو».

- الحبيب: مات هيدرار عبثاً بسبب خيانة أخلاقية لم يقترفها، ويموت «هوغو» غلطاً بعد ان قتل قائداً أحبه بتهمة خيانة غير التي أمر من أجلها... مأساة؛ كل ثورة تأكل أخلص أنصارها.

- حامد: لا أذكر من قال: إن الثورة يصنعها الأبرار، وتُزيِّفها السياسة ويجني حصادها الفجّار. أرأيتم إلى المساومات الصارمة بين «هيدرار» و«كارسكي» وزير الدفاع والأمير «بول» مساومات على تقاسم ثمار الثورة غداة نهاية الحرب، ومزايدات بين الفرقاء الثلاثة كمزايدات الدلال في سوق الدواب.

- غاب: ضحايا الثورة قطيع الدواب. شعرت مع «هوغو» كم كانت تلك المساومات خسيسة، فضلاً عمّا كانت في رهاناتها من خيانة لمبادئ الحزب.

- الحبيب: نجاح «هيدرار» في المفاوضات أراه يرمز إلى المصالحة الواجبة بين الفرقاء: بين الماركسية الجماعية وبين الليبرالية الرأسمالية؛ لرتق الفجوة إيذاناً بتحقيق المصالحة بين الشعوب.

- حامد: خرجت أوروبا وخرج العالم بأسره من ورائها من حرب مدمرة، أزهقت الملايين من أرواح شبابها، وخربت مئات المدن العامرة وحطمت أركان الاقتصاد في المزارع والمجمعات الصناعية. اقترف قادتها هذه الحماقة للمرة الثالثة في الفترة المعاصرة، بعد حرب «بزمارك» ضد فرنسا وامبراطورها عام ١٨٧٠ وبعد الحرب الكونية الأولى عام ١٩١٩

ثم حرب ١٩٣٩. ما من أمة في العالم كانت ناجية من طوفان الجنون وأصبحت جميعها تتطلع إلى سلم دائم على أساس التصالح بين الأعداء وإرجاع السيوف إلى أغمادها.

- الحبيب: الأمل ضعيف في أن يتحقق الصلح بين المتحاربين حتى بعد إنشاء منظمة الأمم المتحدة، فإن جدتها السابقة جامعة الأمم التي بعثت بميثاق «فرساي» منذ ثلاثين سنة لم تُفلح في إطفاء حمية الثأر بين ألمانيا وجيرانها، ولا منعت أدولف هتلر من أن يركب جنونه الجرماني، ويشعل فتيل حرب كونية طاحنة.

- غاب: عن أي مصالحة تتحدث يا ولد القيروان. هل هي بين فرقاء من الملائكة المطهرين ستقوم المصالحة؟ أم بين بشر أهل حمية وطنية، ضحايا استبداد وتعسف؛ قلوبهم عامرة بالضغينة تنادي بالانتقام؟ كيف المصالحة مع أتباع طاغية مختبل، آمنَ بحماقة التفوق العرقي للجنس الآري وناصب العداء للبشرية قاطبة، وباسم جنون الاستعلاء ومنطق القوة أرسل طوابير دباباته تكتسح أوطاناً ذات سيادة، وأسراب طائراته تدكّ معالم المجد وديار الأمن في عواصم عريقة في الحضارة، ولم يتورع عن إفراغ متاحفها وقصورها من كنوزها الفنية، كما فعل في أوسلو عاصمة بلادي، «موطن الآلهة» كما كان يسميها الأجداد؟ وهل ينسى الجيل القائم من نساء لندن وشيوخها وأطفالها ما كابدوه من هلع وصبروا عليه من جوع وظلام وخصاصة، طيلة ليالي الإغارة من طائرات «الشتوكا»، تتناوب على رؤوسهم أسرابها ليلاً طويلاً؟ وها هنا في باريس كيف يرضى الفرنسيون بمصالحة عدو أسقط دولتهم وأجلى عنها رموز الجمهورية إلى مدينة استشفاء، وقسموا بلادهم شطرين وأجبروا نخبتهم على الهجرة؟ هل تعتقد يا حبيب أن الهولانديين قد طوى النسيان ما عاشوه أعواماً أربعة من هلع مما كان يهددهم به هتلر من هدم جسر «الزويدرزاي» وإغراق

أرضهم الواطية تحت أمواج بحر الشمال، الجراح غائرة في الأنفس، ولا تزال دماؤها تنزف. وما أظنها ملتئمة سريعاً؟ جيل آخر يمكن أن يجنح للمصالحة، أما جيلي أنا فليل الضغينة في النفس طويل.

- الحبيب: كان أجدى لو أرسلناكِ شاهداً بليغاً أمام محكمة «نورانبرغ» ولكن هلّا سألتِ النفس: أي مصير للأجيال القادمة من بني آدم إن لم نحصِّنها بثقافة الصلح فنحميها ونحمي الحضارة من مجنون آخر معتدٍ بقنابله الذرية وبطائراته العابرة للقارات أو الصاعدة إلى القمر أو للمريخ، فيمعن في الأرض خراباً وتقتيلاً، كما فعل هتلر بيهود بلاده في محارق «داشو»، فنعود بالحضارة إلى بدايات القردة عند «داروين»؟ المصالحة يا سليلة الفايتكنغ، ضرورة لثقافة البقاء وقارب النجاة، لما تراكَمَ من حصاد الحضارات الإنسانية، كسفينة نوح.

- غاب: المصالحة حوار من منطلق الإقرار بالجريمة في حق الإنسانية كلها. ومن العبث الاستنجاد بالثقافة لمن لا يؤمن بأولوية العقل على الدبابة. قل لي يا حامد: هل تفيد الثقافة الإنسانية قومك لحملهم على إغماد سيوف المقاومة والتصالح مع الاستعمار الجاثم على صدوركم؟

- حامد: سأسأل المقاومين من أهلي في الجبال: هل تكفيهم قصيدة «المقبرة البحرية» من شعر «بول فاليري» للمصالحة مع المعمر الذي أفتك بأرض أجدادهم، ومع ضابط المحكمة العسكرية الذي تكرَّم على إخوتهم بسنوات الإقامة في زنزانات الفيران... الحق في ما قلتِ يا غابرياله، المصالحة لا تقوم بين أقوام لا يزالون منفيين خارج التاريخ: التاريخ الماضي بما يجحده المستعمر من جذور انتسابهم الثقافي؛ والتاريخ الحاضر بما يصدهم الاستعمار عن الانضمام إلى قافلة المستقبل.

- الحبيب: لولا القواسم الثقافية المشتركة والقيم الإنسانية المؤصلة لكل ثقافة خصوصيةً، ما كان يتيسر التصالح بين النرويج بلادك يا غاب

وبين المملكة السويدية بعد أن استعمرت بلادكم قروناً طويلة، رغم الفروق في اللغة وفي المسار التاريخي. فهل بقيت في أنفسكم ضغينة على أجواركم رغم أن انفصالكم السياسي حديث العهد؟ بل انظروا ما يزخر به الحي اللاتيني حولنا من معالم المصالحة الثقافية بين الدين والحداثة العقلانية. أكثر من نصف الشوارع تحمل اسم قديس أو أحد قساوسة الكنيسة، أكثر من مئة قديس نمرّ بأسمائهم كل صباح.

- غاب: نزل المقدَّس إلى الشارع، ناجياً من منابر الكنيسة، واختلط بالمألوف المبتذل من حياة الناس. ولا أقول بأن العقلانية بددت ظلمة العقيدة، وأن الحداثة قتلت الله كما أعلن عن ذلك الفيلسوف الألماني «نيتشه»؛ ولا أقول إنها جفت في الأرض منابع الشوق وغرقت في الظلمة السرمدية شموس الحياة. فإن «فاغنر» الذي كان يسميه «نيتشه» ساحر «بايروث» قد وطّن المقدَّس في الموسيقى وجعل من معزوفة أسطورة الحب بين «تريستن وإزلط» إنجيل العشق في الغرب، في أنغامها المتواترة يمتزج ولَهَ العاشق بابتهال المؤمن المتعبد.

- حامد: أما هنا في باريس فيلتقي المقدَّس بالحداثة وتصبح كنيسة سانت جنفياف مقبرة لأقطاب اللائكية من أمثال «فولتير» و«روسو» وضريحاً لرفات زعماء الثورة الكبرى من أمثال «مارا» و«ميرابو» صاحب الجملة الشهيرة: «قولوا لمن أرسلوكم إننا هنا بإرادة الشعب ولن نبرح المكان إلا بأسنَّة البنادق».

- غاب: هذا وغيره أطيب ما يشدني إلى باريس وأمتن ما بيني وبينها من روابط أنس. أشعر هنا وأنا أنحدر صوب مقاهي سان جرمان أني أتنفس ملء الرئتين... إنسانيتي تجد هنا غذاء اكتمالها.

شعر حامد وهو منصرف إلى حجرته صحبة الحبيب، بعد وداع الرفيقة النرويجية، أن لقول هذه الطالبة وقعاً في نفسه متناسقاً. هو أيضاً

بدأ يلتذ بالسير على خطى تأملاته نازلاً من ساحة السربون، ماراً بمكتبات سان ميشال، صوب رصيف «السان». دبيب ألفة بينه وبين هذه الأرصفة العامرة، أواصر معاشرة خفية تدفعه نحو مقهى «فلور» يتصيد ملامح «ألبير كامو» أو نظارات «جان بول ساتر»، معرِّجاً إلى مدرسة العلوم السياسية في «سان غيوم». كل ذلك أهي ألفة عابرة وعشرة موقوتة بينه وبين الأحجار والنقوش والتماثيل وصخب الطلبة في المقاهي ووسط المطاعم، أم هي روابط كالأغلال الوثيقة تشدني إلى باريس، أسكنها عاماً فتسكنني عمراً، كما أنذرني رفيقي الحبيب؟ يا إلهي، ألهذا الجماد لسان ناطق وللألوان المترقرقة خطاب مقصود؟ ذكر أنه كان يحب إذا انحدر من الصادقية أن يعبر أمام واجهة الزيتونة من جانب سوق الفكة ويشرب مشاعر الأنس من النظر إلى الحجر المرصوف والأقواس المرفوعة على جانبي المدخل العريض. هل في كل ذلك فخ أم خلاص؟ خلاص من ماذا يا ولد عيشة البية؟

بادره مصطفى صباح السبت، وهما ينزلان إلى مقهى «دانتن» لقهوة الصباح: ستكون معنا في عشاء رأس السنة، ليلة ٣١ ديسمبر، حافظ مكلف بتنظيم السهرة بمطعم اليوناني نهج كلية الطب، لا عليك إن هو طالبك بنصيبك من ثمن السهرة.

- حامد: مع من يكون العشاء والسهرة.

- مصطفى: الرفاق المعتادون، حافظ والحبيب وأخ مغربي، زميل في كلية الطب وقد يلحق بنا الشاب الكوري لا أذكر اسمه، ومع كل واحد تسهر خليلة أو زميلة دراسة.

- حامد: ولكنّي بينكم كالأعزب.

- مصطفى: خبرتني «غاب» النرويجية أنها أصلحت فستاناً سكرياً. فهذه مناسبة تدعوها لمرافقتك، تتبرج في فستانها الجديد. فلمثلها أعدّته، أليست زميلتك في المدرسة؟

كانت الساعة التاسعة والنصف من الليلة الموعودة، عندما اجتاز الباب خلف غاب، يتسللان إلى الموائد. وقد اكتظت بروادها وتعالت الأصوات بالمرح والضحك بين الطلبة المتجالسين وبلغت إلى مائدة مستديرة جمعت رفاق السهرة. فتعالت تصفيقات مرحة عندما وقفت الفتاة النرويجية تجذب كرسيها بجانب مجلس حبيب، وأشارت إلى كرسي مجاور. وقامت إليها جارة حبيب في فستان أبيض رحيب قطاب الصدر، تقبلها، وتشيد بجمال فستانها وملاءمة لونه السكري مع لون الشعر المنسدلة خصلاته على الكتفين العاريتين.

- غاب: بياض فستانك يا كريستينا أفخر جمالاً مع سواد شعرك المرسل.

نهضت جارة حافظ تقول وأقبلت على غابرياله تقبلها وتقبل حامد: أنا ديانا لا شأن لي ولكم بأبطال التاريخ المتوسطي، يكفيني بطلي حافظ هذه الليلة، لو ذكر هذه الليلة اسماً واحداً منهم لقطعت لسانه.

- مصطفى يخاطب حبيب: خذ السكين من جانب صحنها حتى لا تنفذ هذه الجرمانية تهديدها!

- ديانا: بالقبلات أقطع لسانه يا طبيب لا بسكين أو مشفر. أما رفيقنا الجديد حامد فله في غابرياله أطيب عشير.

- ناداها مصطفى من الكرسي المقابل: على مهلِك يا ديانا، وأنتِ يا غاب. خذي حذرك، البدوي بجانبك سليل قبيلة عريقة، الرجل منهم لا يقنع بأقل من أربع زوجات!

- حامد (يحاول أن يخلع الصمت ويدخل في اللعبة): لا تصدقيه يا ديانا فالطبيب بلدي مكبوت، تربى على الملعقة الصباحية من زيت كبد الحوت. يود لو أن له مثل ابن البادية، حريماً عامراً بالحسان يختار كل ليلة مع من يبيت من نسائه.

- صاحت رفيقة الطبيب إليزابث: وإني خانِقَتُه بيديَّ هاتين لو همَّت به نزواته أن يهجر الفراش.

ونهضت إلى طبق الإوزة المجمرة بالفاكهة المحشوة بالأرز، وانغرست أسنان الشوكة في الأسلاك البيضاء، وجالت السكين بين قفص الصدر وشحمة الوركين ومغارس الجناحين. وقسمت الطبق شرائح متقاربة فأدارته بين الحضور تعين كل واحد أن يفوز بنصيبه من اللحمة البيضاء ومن الحشو المزيت.

ونهضت ديانا إلى قارورة الخمر تملأ الكؤوس وهي تقول:

- حافظ جلبها من بائع تونسي في «منبرناس» ويسميها في الكأس بنت شمس وفي النفس نجماً وضياءً.

- التفت حامد إلى غابرياله كالمستنجد، وهو قد جرب ضعف احتماله للخمر. فأسرّت إليه: شراب أبيض خفيف لا تصديع منه ولا ثقل. لا حرجَ عليك من الكأس أنا بجانبك. وضغطت بأناملها على معصمه. فسَرَت من ذلك قشعريرة كالنذير لأمر داهم.. جيء بطبق ثانٍ لمكرونة إيطالية محشوَّة بشرائح لحم عليها حلقات ملونة من الفلفل الأخضر والطماطم الحمراء والبصل الأبيض، فقال مصطفى: كلوا هنيئاً آمنين. فقد سهر الطبيب على أن يكون الفلفل بارداً واللحم منزوع الدسم والطبق حلالاً.

ودارت الكؤوس من قارورة ثانية وتعالت صيحات المرح وتنادت الأصوات بين الموائد وأخذت النشوة مأخذها من حامد تدب في صدره،

وتطغى بالنسيان على ما بالنفس من مخاوف وأوجاع، وهو لم يعرف في حياته من قبل في ريف البداوة، مثل هذا الاختلاط العفوي بين الجنسين، ولا جلس كالليلة تحفّ به صدور ناهدة وأكتاف عارية ووجوه رقراقة وقدود هيفاء، ولا سكرت مناخره من صنوف الطيب المتضوعة. حياته كلها كانت مطبوعة بصرامة الواجب، وأوقاته جلها عامرة بعبوسة الجد. حتى لكأن مثل هذا المرح البريء إثم في حق الذات وجناية على المستقبل.

ثم أفرجت بين الموائد عن فسحة صغيرة للرقص، وانطلقت أنغام الأسطوانات، وتسابق إلى الفسحة أزواج من الندامى بالموائد المجاورة. وتمارى الحبيب وكريستيانا في رقصة «التانغو» . وكانت للراقصة براعة وصنعة في ثني الخصر مع وصلات النغم، وفي تناسق الأوراك بينها وبين مراقصها... وصفقنا لهما عند نهاية الألحان. ثم عزفت المسجلة بموسيقى «الفالس» النمساوية. فنهضت غابرياله وأخذت بذراع حامد ليراقصها وهي تقول له هذه رقصتي المفضلة. فأَسَرَّ لها وهو يخطو خطواته المحتشمة: أنا جاهل أميّ في فن الرقص وأخشى أن أدوس بحذائي الغليظ على حذائك الرقيق.

- غاب: لا عليك، لي حذاء غيره ولكن انزع الخوفَ وارخِ عضلاتك ودعني أقود الرقصة. ستجد الرقص أسهل مما كنت تظن.

- حامد وهو يضحك: تقودين الرقصة والراقص الجهول.

- غاب: لا بد لكل عمل مشترك من قائد مسؤول... أليس كذلك؟

وأخذت بذراعه اليمنى حول خصرها ودنت بصدرها إلى صدره ولانت بعنقها البض إلى خده فكاد أن يصيبه الدوار. وقد ذاع أريج عطر خفيف قرب أنفه من خصلة شعر منفلتة. وتمايل جسم الفتاة مع مقاطع الكمنجاة فازداد جسمها بجسمه التصاقاً وأيقظت فيه ما ظل يغالبه ليالي

طويلة من الجوع والشوق... ولسرّ لم يتأوله ظهرت ملامح الأم في ذلك الحين بنظرة حيرى وظهر الحصان يتسلق السفح...

أظهرت الفتاة براعة ذكية في تجسيم أنغام «يوهان شتراوس» ونجحت في تصنيع الخفة برجلي حامد وعلى عتقه من الخوف ومن جهد الانسجام مع النغم. وكادت حلقات الاستدارة مع الإيقاع أن تطير بجسم الفتاة، وتنقلع من البلاط رجلاها، في خفة كأجنحة الطير وكف النغم، وعادا ضاحكين لتصفيق الرفاق إعجاباً.

- غاب: أرأيت ليست الرقصة صعبة. تجربتان أو ثلاثاً وتصبح ماهراً في هذه الرقصة وفي غيرها.

- حامد: كدت أطير وإياك في سبح بلا جسم. الرقص عندك تخفف من الجسم وترك للجوارح تستجيب لمقاطع النغم.

- غاب: لا بل من الأرض أتخلص لا من الجسم ومن الزمان وما حوى. فبالجسم وحده يكون الرقص هندسة إبداع، وفيه يبلغ الأداء أقصى مراتب الدلالة. وبالجوارح يؤدي الجسم أعلى درجات الفصاحة، بالأذرع والساقين، بالأنامل والعنق وحتى بخصلات الشعر. أما رأيت إلى رقص الهنود، بدون هندسة الأنامل والذراعين وأمشاط الرجلين وانحناء العنق، فلا رقص ولا فن؟ ورقصة الدراويش في تركيا، أليست تناسق القدمين وحلقات الدوران حول الجسم قطباً للنغم يتكرر على مقطع واحد كموسيقى «البوليرو» عند «رافال»؟ دوران حتى فقدان الوعي والانفلات من أسر الحضور في الزمن.

- ديانا: الرقص بأوطاننا الغربية صنعة عريقة من عهد الفايكنغ في أدغال النرويج وألمانيا تخفيفاً للخطاب الفني من حجب المادة في الأجسام.

- غاب: ولكن بالجسم وفي طاقاته الفنية وكنوزه الجمالية يلحق الرقص إلى منازل التجريد والتصوف، كما في أوبرا فاغنر أو سنفونيات «بيتهوفن».

- حافظ: كل ذلك رهين الموسيقى. لست أدري إنْ كان لكم رقص بلا موسيقى... أما نحن في أوطاننا فالرقص وليد الطبل والمزمار في موسيقى أحادية النغم مجعولة لرقص الأجسام من آدميين وخيول وإن في تمايل الصدر والعنق عند المرتل للقرآن نوعاً من تطويع الجسم لنشوة الابتهال.

- الحبيب: يا غابرياله اسألي حامد عن رقص الأعراس في سهول بلاده حول عاصمة القيروان.

التفتت إليه غابرياله بنظرة سائلة.

- حامد: الرقص بين فتاة وفتى هو كالإعلان عن عقد بينهما. وإفصاح خجول عما يتقاسمان من عاطفة حب فيه اختيار المعاشرة للحياة والموت. لا اتصال في الرقص بين الجسمين؛ بل مراوحة ودوران. تدور الفتاة حول رفيقها في خطى متقاربة يزينها اهتزاز الصدر والتواء الخصر وانفراج الذراعين. ويدور الفتى حولها كالصياد يراود الفريسة، يسعى أن يضيق من حولها فسحة الدوران والفرار.

- غاب: وهل تبلغ الرقصة في النهاية إلى التقاء بين الجسمين؟

- حامد: إذا ضاقت دائرة المراودة وأعلن الراقص على الفوز نزع اللحفة من عنقه ولفها على عنق الفتاة عنواناً على عقد الترابط.

- الحبيب: حدثنا يا حامد عن قصة طرق الصيد التي رويتها لي يوماً من أيام العشرة في الصادقية.

- حامد: قصة طويلة هي من توابع المراقصة بين شابين في ليلة النجمة.

- ديانا: أي نجمة في أمر الرقص؟

- حامد: هكذا نسمي ليلة الزواج، يجري الحفل بمراح مفتوح تحت سماء مرصعة بالنجوم، ويجتمع الناس حول موائد الطعام، ويصطف الشبان والصبايا صفين متقابلين وقد ينبري أحدهم يركض فرسه وسط المراح أو يتابع بالفرس قرع الطبل ونغمة المزمار. فيحصد موجة من زغاريد البنات.

- الحبيب: هات القصة بعد هذه المقدمة.

- حامد: صالح فارس في أهله يهوى ركوب الخيل ويرتاد الأدغال ومواقع الصيد. رقية إحدى بنات عمومته فتاة جميلة بها أنفة الحسن وكبرياء الحسب. وسبق أن حصل الاتفاق بين الأمهات على تزويجهما. وكانت المراقصة بفضل ذلك مباحة بين صالح ورقية في ليلة النجمة. ولم يكن والد صالح موافقاً زوجته على هذا القران فلما شهد المراوحة أرسل إليهما من أنبأهما برفضه للزواج واستنكاره للمراقصة بينهما على رؤوس الأشهاد. وما كان من صالح إلا أن أسرّ لحبيبته بالعزم على شق عصا الطاعة والفرار بها إلى بيوت أخواله وراء الجبل. فيقترن بها عندهم ويضع العائلة أمام الأمر المقضي. كانت لرقية منزلة خاصة عند والدها وله في قلبها عاطفة ولاء وإعجاب. فشق عليها أن يصدر منها ما يأباه أو يغيظه ولكن حبها لصالح كان من قوته ينازع ذلك الولاء فقالت لحبيبها:

- رقية: لقد علمت يا ابن العم منزلتك في مهجتي بين الضلوع ولا أرى لي في الحياة عنك بديلاً، ولكنك تعلم حبي لوالدي ومنزلتي عند عمك، فكيف لي أن أخلص من هذا إلى ذاك دون جرح وتمزق؟

- صالح: حب عمي لك ولي أيضاً سيجعله يجنح إلى الرحمة والرضى يوم يبلغه زواجنا في ديار أخوالنا. فنحن لا نقترف حراماً إنما نريد أن يبارك الله في اقتراننا على سنة الدين وسنة الرسول.

- رقية: أرى أن نتوسل إلى أخوالنا في الحي وراء الجبل أن يتولى كبيرهم التوسط لدى الوالد لاسترضائه. وعندئذ لا حرج عندي أن نلحق بديارهم الليلة بعد النجمة.

وتزود صالح للسفر بحاجتهما من البسيسة والتمر وجعل السيف في غمده بمكانه وراء ظهيرة السرج، ثم أردف رقية وراءه وأرسل للفرس عنانه في جوف الليل على غفلة من الأهل.

- غاب: وما دور الأسد في القصة الجميلة؟

- حامد: ركض صالح جواده شطراً من الليل. وثنايا الطريق أليفة عنده ومألوفة عند الفرس. فلما بزغت من قمة الجبل أشعة الفجر توقف الفارس في بطن الوادي قرب عين ماء وأنزل رفيقته وبسط لها قرب الماء جناح البرنوس لتصيب غفوة من نوم. وفجأة أفزعهما زئير أسد كان يرابط للصيد بأجمة قريبة من العين. فصهل الفرس وصاحت رقية. وانصرف صالح إلى الفرس فأحكم ربطه في جذع صنوبرة، واستل من الغمد سيفه وانتصب واقفاً في وجه الآجمة ينتظر العدو، ويحتسب من أين يكون القفز. وبرزت هامة صفراء من شجرة الخميلة عليها رأس متوّج بسباسب مرسلة حول عينين متقدتين وأنياب مكشرة، وبدأ النزال بين الفارس والأسد، يراوده بالسيف تارة ويقفز من دونه على صخرة قريبة وعينه على رقية بمجلسها ترتعش صابرة. وأصاب صالح في إحدى قفزاته غفلة من الحيوان فغرز سيفه في المغرز بين الرأس والعنق بطعنة قاتلة، فخرَّ الأسد يتخبط في دمائه، وزئيره يملأ الوادي فجعاً. وتعالت زغاريد رقية ونهضت من مجلسها إلى فارسها تعانقه وتضمه في غير حشمة إلى صدرها...

وجلس إليها صالح يمسح نصل السيف من دم الفريسة. فقالت: ما رأيك لو قطعت رأس الأسد؟ وحملته في الخرج، ورجعنا به إلى الحي، فقدمته إلى عمك مهراً غالياً لابنته ليس كمثله مهر؟

- صالح: وإنه، لحقٌّ، أنجع رأي يا ابنة الحسب والنسب، وما أنا إلا فاعل ما أشرت به.

ثم عاد إلى الجثة وقد فارقتها خلجة الحياة، فعمد إلى الرأس يعالجها بالسيف ساعة طويلة حتى احتزّها ثم جاء بها إلى العين فاغتسلها ثم أدخلها الخرج وارتمى على المجلس بجانب رقية ينعم بالهناء ونشوة الفوز وبسمة الأمل. وأيقن أنها نهاية المحنة، وأن عمه ورجال الحي جميعهم، شيوخها وشبابها، سيفخرون بالفارس الشجاع، وسيبارك عمه تزويج ابنته فخوراً بما أظهره خطيبها من شجاعته.

وعاد صالح إلى فرسه يُصلح السرج ويحكم ربط السيف خلف الألباد، ثم أردف رقية وبجانبها المخلة الثقيلة برأس الأسد وتوكل على الله راجعاً إلى الحي.

وارتفعت حرارة الهاجرة وشعرت رقية بالإنهاك من طول الرحلة وقلة النوم ومن موجات الخوف المتلاحقة والإشفاق على ابن عمها. فقالت لرفيقها وقد بلغا شجرات نخيل على عين جارية: أراني بحاجة إلى أن أغتسل وأُبرد الوجه وأُشرب الفرس فإنه ليس وراءنا ما يستعجلنا للسير المضني في هذه القائلة.

فوافق صالح وعاج إلى العين وأنزل رقية وترك الفرس يشرب ويرتع طليقاً... فجأة انتبه لصهيل الفرس وقد سهم بأذنيه وشخص ببصره نحو خميل النخل، ثم اندفع كالسهم راكضاً وسط الثنية لا يلوي هارباً... والتفت صالح إلى الأجمة يستطلع فإذا بلبوة تدفع بفسائل النخل مزمجرة ينذر زئيرها بالموت والفناء. وصرخ صالح: رقية احذري يا حبيبة... وما

أتم الكلمات حتى رأى الوحش ينقض على المسكينة وهي جالسة على حافة الجدول تغسل ساقيها. واندفع صالح للنجدة فوقع في الفخ والتفتت إليه اللبوة تنهش ذراعه العارية وقد غدا أعزل بعد أن فر الفرس بالسيف مشدوداً وراء السرج.

إن هي إلا دقائق كارثية، فامتزجت في مياه الجدول دماء ثلاثة: ما نضح من رأس الأسد وقد ألقت به المخلة عندما قفز الفرس هارباً ودماء صالح ورقية. انقضت عليهما أنياب اللبوة وهما متعانقان يتشهدان من هول المصير.

أردف حامد بعد برهة: معذرة لهذه القصة السوداء فهي خارقة لأنس هذه السهرة.

- الحبيب: كيف انتهت المعزوفة، لأن القصة معروفة من أولها لآخرها على الناي، والمعزوفة تنعت بكلمة «طرق»؟

- حامد: ومن الغد عاد الحصان يقود نفراً من الأهل إلى العين مسرح الكارثة. فإذا بأشلاء صالح ورقية على حافة العين، في هيئة المقبل على الجدول يكرع من الماء. ورأس الأسد مغروس في التراب عند رِجلَي عروسة الموت.

- غابرياله: عرس الموت كعرس «كرستان وازالط» في الأسطورة السلتية بالشمال الأوروبي.

- حافظ: رأيت إعلاناً في واجهة مكتبة جلبار عن رواية فاغنر بمسرح الأوبرا عن قريب.

- نادية (تخاطب حامد): قصتك صالحة أن تكتب فيها موسيقى «أوبرا»، هل تحسن العزف على الناي؟

- حامد (ضاحكاً): هات لي بحصان ورأس أسد ببطن وادٍ ثم أنصتي.

- غابرياله: رأس الأسد في قصتك رمز غزير الدلالة عزيز المقصد.

- الحبيب: رأس شؤم لولاه لما اقتفت اللبوة آثار العاشقين، لا أرى له من دلالة غيرها.

- غاب: اقترن الحب بالفناء، فناء الذات عند بلوغها أقوى مراتب الشوق، تلك هي الدلالة الرمزية لرأس الأسد الغنيمة القاتلة بعد أن كانت في خرج صالح مهراً استثنائياً فاتحاً لأبواب الرجاء والفوز.

بلغت الساعة منتصف الليل ونهضت ديانا من مقعدها تعلن: العادة أن نسجل انتصاف ليلة رأس السنة بقبلة مرصوصة من كل رفيق لرفيقته.

ثم أقبلت على حافظ فألصقت شفتيها بفمه في قبلة كانت بالفعل مرصوصة، ونهضت كريستيانا إلى الحبيب تعانقه وتدس وجهها بين الذقن والشفتين، وأخذ الطبيب المبادرة وطبع على شفتي «إليزابث» قبلة حارة. وكان قلب حامد يجبّ في الصدر وجيباً وهو يميل بوجهه إلى رفيقته النرويجية. فقرأت في عينيه كالإشفاق والحيرة. فاكتفت بقبلة خفيفة لم تزد على ملامسة خاطفة بين الشفاه ولكنها كانت كافية لتبعث في جسمه قشعريرة شاملة كالتي انتابته ساعة الرقص. وتواصلت السهرة إلى الثانية بعد منتصف الليل بين رقص وملح وغناء. وحانت ساعة الافتراق وقد خلت الموائد من معظم الساهرين، فخرج الرفاق متعانقين. وأخذت غابرياله بذراع حامد وهي تقول: هلمّ.

- قال: إلى أين؟

- قالت: غرفتي قريبة من هنا، ولم يبقَ المترو مشتغلاً لتعود إلى نهج «فوجيرار».

دخل وراءها حجرة فسيحة يتوسطها سرير عريض وعلى يمينه مكتبة وراءها خزانة كبيرة. وهي مجهزة بحمام خاص.

قالت: خذ راحتك أنت ضيفي الليلة وأنا في بيتي، صاحبة الحكم والمبادرة.

ثم لاذت بالحمّام ضاحكة، وما لبث أن سمع دفق «الدوش» ينهمر. وأدرك ما كان عليه من موقف مخجل. فخلع الفستان والحذاء ثم جلس على حافة السرير في سراويله وقميصه ينتظر الأحـداث، وانفتح باب الحمام وبرز جسم بض ململم في غلالة رمادية شفافة فأقبلت تلمّ عليه بذراعين من عاج مفتول، وتقول:

- علمي بأن السامراي الياباني هو الذي يترك للمرأة مهمة تجريده من الثياب.

وشرعت تفتح أزرار القميص فتنحى عنها ودخل الحمام يغتسل. ثم برز بعد دقائق في تبان قصير وتمدد على الفراش، فارتمت على الصدر تلثمه بقبلات جنونية عطشى، واشتعل في الفريسة لهب الوصال وتسارع اللهث وسقطت الغلالة على الوسادة واتقد جسمها البض بشهوة كالابتهال وغاصت بهما الوسائد فكانا من المغرقين...

وأفاق من نومه ضحى ونظر فإذا هو بفراش غير فراشه وفي حجرة غير حجرته وإذا هو عارٍ وبجانبه ضفائر شعر أجعد مفروش على الوسادة، وجسم بض مبذول المحاسن، ونهدان مفتولان قد تحجبا في برقع خصلات شعر منفوش. وقد اجتمع الوركان من دونهما على عجيزة مكومة في استواء هندسي عجيب. فلم يتمالك وأجال بإصبعه على نهد متوَّج، حلمته قائمة وسط هالة عسلية، تدعو للرضاعة، وميض من الوعي انطلق يدعو على غير موعد يا ويلتي، أماه على الإثم، مالي تذكرني نهدك الطاهر، هذه الحلمة الساهمة، أفي كل حب أمومة وفي كل نهد رحيق كيان؟

وفتحت عينيها وأهدته مع بسمة الثغر نظرة رضى، وسألته وهي تتمطط بين الوسائد: كم الساعة، منذ كم أفقت؟

- قال: الحادية عشرة، وأنا منذ ساعة، لا تنفك عيني ترتوي من جوع طويل.

قالت (وقفزت في خفة ظبية إلى الحمام): لن تجوع بعد اليوم.

انقضت عطلة آخر السنة في مباريات جنسية كالجهاد وفي عطاء عنيف كالنزال، وفي ملاحم جسدية كالمس من جنون. كشفت غابرياله عن مخزون غزير من العطف تغدق به عليه وعليها بلا كيل ولا حذر، وتغمره وإياها من الزاد المخزون بإرادة عنيدة إلى إشباع فوق الإشباع، عطاء صدق وجود ابتهال.

كانت تقول مستشهدة معتزة بأقوال من رواية «براند» من أدب «إبسن» المهم هو الصدق مع الذات، أن تريد ما أنت ساعٍ إليه؛ إرادة عزم وإشباع أن نحذر مما كان يسميه «سلناس البناي» الكذب الوجودي.

- قال: ألا تخافين أن يقتل هذا الإشباع الجوع وأن يصيب الفتور حمية الشوق؟

- قالت: أعلى ذروة في الصدق أن نصون الجدة كل مرة أن نصعد إلى ذرى الاستثناء. ونحفظ لكل لقاء طعم المغامرة، كلقاء أول.

خرج من درس القانون الروماني، وقد ملأ سمعه استشهاد طويل من رسائل الخطيب «سيسرون» واستطراد الأستاذ عن فصاحة لسانه اللاتيني. وقد كانت هذه الفصاحة اللاذعة سبباً في بتر هذا اللسان بين فكَّيه، كما فعل هشام بن عبد الملك بالمعارض زعيم الفرقة القدرية غيلان الدمشقي أوائل القرن الثاني للهجرة. وتساءل حامد عن حصاده الثقافي من هذه المحاضرات. وتبادر الإشفاق من طول ما تستوجبه الدراسة من أعوام

الغياب عن وحيدة الانتظار بدار الأخوال في القرية، وعن صبر هالة وحمْلها مسؤولية البيت وحدها بلا رفيق. وتجددت الحيرة القديمة، حيرة الخيار بين ديار الواجب في تونس، وبين مدارج الطموح هنا في باريس. انحدر من نهج «سان جاك» قاصداً مقهى «دانتن». فصادفه حافظ جالساً بركنه، يطالع جريدة كمبا وجلس إليه. فبادره حافظ:

- كيف انتهت ليلة عيد السنة مع النرويجية؟

- حامد مازحاً: رويت لها قصصاً من بخلاء الجاحظ، ولم تشفع لي قصة القاضي والذباب، ولا أنجتني من عمق الفراش؟

- حافظ: أي عمق فراش في حجرتك الضيقة؟

- حامد: فراش حجرتها. يشق الوسط نهر عميق، خيل الملك جميعها ترد منه روياً.

- حافظ: أي خيل في فراش تشرب، أهي من أساطير جدتك؟

- حامد: تشرب الخيل وتركض، هي من أغانيهم في هذا البلد، أغاني العاشقين.

- حافظ: أراك بنهرك هذا قد غرقت في الأسر، وطوقت خصلات الشعر على رقبتك، والتفّت عليك ذراعا الجحيم.

- حامد: ما زلت أحن إلى هذا الجحيم، فاللحم حزين وكل الكتب قد قرأتها، كما أنشد «بودلار» وإلى خصلة الشعر المنفوش أحن على الوسادة ناعمة كلحفة الحرير حول عنق المرحوم جدي.

- حافظ: عجل بأفراسك أن تصدر عن النهر... ولكن قل لي، هل عندك من أخبار الأهل في تونس؟

أمسك حامد برهة وبصره إلى فنجان القهوة، ثم صافح بالنظر وجه رفيقه. وقال: أحبك يا حافظ، وأحب منك لطفك في تحريك مشاعر

الإثم... أتظن الوسائد في فراش النرويجية قد أصمّت أذني، وخففت من عقدة الذنب، تخلط مرارتها كل رشفة من رحيق الشفتين صفحة من «زهور الشر» بمرارتها يتعمق طعم اللذة؟

ربّ هذا الدمع نور في القلوب ذو هياج واضطراب ونحيب:

- حافظ: هو من أشعار الصوفية.

- حامد: بيت من ديوان محمد إقبال، كان هو الأخير يطلب النجدة من عباب الأنهر وينثر الزفرة شعراً.

- حافظ: ما النجدة إلا من ذاتك، لا من شعر وخيول نهر. أنت غارق لا محالة إن ثقلت عليك الحرية، ورضيت بالاستقالة، ونسيت من أنت، ولماذا جئت هذه الديار، وإنك راحل عنها يوماً وعن رفيقة الوسائد، وخيول الفراش.

- حامد: فراش عبور أنا راحل عنه ولا شك، وأيام ملهاة، كما قلت لك، مسروقة من زمن الجد العابس، كشأنك أنت وشأن غيرنا من طلبة هذا الحي، فلا تجعل منها مأساة تثقلني فيها بعقدة إثم.

- حافظ: عجِّل باللحاق بضفاف نهرك ولا تنسَ أنك لست وحدك بفراش العبور، فلرفيقتك في النجاة شأن، وبين وسائد سريرها كمّاشات مخفية وحبال.

- حامد: لم أنسَ نصحك يوم حدثتني عن ليلة النزال بينكما، وقد اشتد بك في الفراش أريج العطر وعصفت بالفجوة بينكما انتصاب النهدين وخصلات الشعر المنفوش. وما شفع لك الهمذاني على اجتهادك أن تذود به عن شعرة سيدنا علي.

- حافظ: دع عنك هذا، واذكر أنها سليلة جنس الفايتكنغ الشمالي، صلابتهم وشدة طباعهم، استمد منها «هنريك إبسن» كاتبها المفضل، خصال «سلناس البناي» وبضدها صور سقوط «بيرغنت».

- حامد: وأخوك في أي الفريقين تحشره؟

- حافظ: الحكم بعد فجوة العبور، ثقتي باقية في زادك من الحمية الوطنية هي درع لك حافظ، كتمائم الأمهات صرة من حبات الحلبة والبسباس ورجاء مكتوم.

- حامد: كان لي منها حرز من جلد مخيط، علقته الوالدة على الصدر يوم فارقتها إلى التعليم في تونس.

- حافظ: وقبل رحلتك إلى باريس ألم تجدد لك الحرز؟

- حامد: زودتني بأوثق الحروز، حدثتني عن خوفها من الرومية الشقراء، أعود بها إلى البيت، فنشقى وإياها جميعاً، كما حصل لبعض شباب القرية، هاجر للعمل في بلجيكيا، فما لبث أن عاد للقرية يتأبط ذراع صبية ململمة، وجد الأهل حرجاً ثقيلاً من ملابسها الكاشفة، ومن تجاهرها بالتدخين، ومن عجمة لسانها. فلم يطل بهما المقام وقفلت راجعة إلى بلدها صحبة ابن القرية... ثم انقطعت عن الأهل أخباره، وكأنما ثكلته المسكينة أمه لما بقي لها من عمر.

- حافظ: أراك تغامر بترك الوصية الغالية، وتغفل عن تجربة ابن بلدك المهاجر ضحية فراش.

- حامد: بل إن وصيتها لا تبرح في الخاطر حاضرة، منها جملة لن أنساها ما حييت، قالت: الوادي إذا حمل ما تصدّه حيطان.

- حافظ: ما أبلغها صورة، من صميم بيئتنا المناخية مقتبسة. أمطارنا هطل كالرجوم وأنهارنا جارفة كعاصفة داهمة، إذا حمل السيل ساقت

مياهه المتلاطمة الأنعام والنبات، وجردت من غطائه الأديم، وعبثت بالمباني الهشة وبالمنحدرات المزروعة. ثم ما هي إلا ساعات معدودة فتهدأ العاصفة وينقشع السيل وتقوم الحسرة على ما خلفته غضبات الهطل من خرابات ثم يعود بنا الأمر إلى جفاف عقيم.

- حامد: أنا في بلد المطر الرذاذ لم يحن بي موسم الجفاف، يا ولد النخلة والعرجون، وأنت هل رويت نخلتك من محاسن ديانا الجرمانية؟

- حافظ: ديانا، لم ألقها من ليلتنا على انفراد، إن هي عندي إلا نديمة كؤوس، تخففت في فراشها من حاجات الجسم، حتى لا يشغلني الجوع عن جمع العراجين.

- حامد: دعني من العراجين والكؤوس، أود أن أستشيرك في أمر الدراسة.

- حافظ: هل لك مشكلة مع كلية الحقوق أو مدرسة «سان غيوم»؟

- حامد: الدراسة في كليهما، مدتها أطول مما تسمح به الظروف العائلية من هجر الوالدة والغياب عن الزوجة.

- حافظ: متى كان زواجك؟

- حامد: أقل من سنتين، مذ حمّلني موت خالي مسؤولية العائلة واقتضت الأعراف والحاجة أن أتزوج من ابنة خالي، وأنا وإياها نقيم بمسكن واحد.

- حافظ: والوالدة.

- حامد: مات عنها الوالد وأودعتها في بيت أخوالي بالقرية، ويحز في النفس أن أطيل الغياب عنهما وأتخلى عن واجب الرعاية أعواماً أربعة، فترة أطول من الصبر.

- حافظ: ما الذي تعتزم؟ فإن مدة الدراسة في الحقوق أدناها أربع سنوات، ومثلها بمدرسة العلوم السياسية أو أكثر.

- حامد: ذكرت لي يوماً أن دراسة العلوم الإنسانية من آداب أو فلسفة يمكن اختصارها في عامين. لذلك فكرت في الانتقال إلى السربون. هل تعتقد أنه يمكنني أن أحسم أمري في عامين؟ وأصارحك أني أجدني أميل إلى التدريس من الميل إلى المحاماة.

- حافظ: ممكن إذا شددت الحزام وجمعت بين شهادتين في سنة واحدة وحفظت لياليك من ارتياد نهر الخيول الملكية... وأنا مثلك لا أفضل عندي من مهنة التدريس. عقول الشباب مزرعتي، وتطلع النفس زادي وإيقاظ العزائم البكر حصادي وسلاح للوطن.

- حامد: إني فاعل ذلك غدا بعد أن أتزود بنصح جاري الحبيب، فإن له عندي مثل مكانتك ... الصارمة.

- حافظ: صرامة أخوية، كما علمت.

هجر حامد مدارج كلية الحقوق والتحق بالصربون وحاول أن يبقى على دروس العلوم السياسية بسبب ما كان يجد لها من جسور تواصل بينها وبين التاريخ والشرائع الدينية، وما كانت تثير عنده من صدى لاجتهادات الفكر السياسي العربي. وهو لا يدفع عن عقله نوازع العصبية الثقافية لإبداعات الفارابي وابن رشد والماوردي وابن خلدون وخير الدين، ولأعلام غيرهم كثيرين يجهل آثارهم. وكان قد حدّث صديقه حافظ يوماً بمشروع دراسة موسوعية عن المدرسة العربية الإسلامية للعلوم السياسية، تكون لجهادنا السياسي سند جدارة علمية واعتزازاً ثقافياً، ولمشروعنا التحديثي زاد اكتشاف يعين على تأصيل الحداثة وينزع عنا وصمة التقليد والتبعية ويصل مستقبلنا الثقافي بأمجاد الماضي.

لم يكن من السهل التنسيق بين جدول الدروس في «سان غيوم» وبين محاضرات «غاستون بشلار» بمدرج السربون عن فلسفة العناصر المادية، وبين دروس الكولاج دي فرانس المتعددة، مثل الدرس الصباحي المبكر للمستشرق «لوي ماسينيون» عن زوجات الرسول، ودرس «بومياي» عن ديوان زهور الشر للشاعر «بودلار» ودرس «لوي لافال» عن فلسفة الطباع إلى جانب دروس مدرسة العلوم الشرقية في نهج «دوفور» للمستشرقين «بلاشار» و«لفي بروفنسال» عن فقه اللغة وتاريخ الحضارة الأندلسية.

دعاه الحبيب إلى فنجان قهوة وهما نازلان من ساحة السربون صوب «سان ميشال» وسأله: كيف حالك في دروس مدرج ديكارت؟

- حامد: هل تذكر قبيلة أولاد جلال في بلاد قمودة، لا يفتأ رعاتها يتنقلون بالأغنام بين مواقع الغيث؟ أخوك أصبح اليوم كواحد منهم، ساعات اليوم أمضيها بين المدارج، أركض من فلسفة الطباع إلى ديوان بودلار، بعد أن كنت بدأت صباحي باستعراض زوجات الرسول، قبل أن أتغدّى على أسلوب أبي الفرج في كتاب الأغاني.

- الحبيب: ها هي النرويجية تبحث عنك.

جلست غابرياله وقد دعاها الحبيب إلى فنجان قهوة. وأقبلت على حامد تسأله: ما بالك تفوت درس فقه القانون صباح الخميس؟

- الحبيب: أصبح حامد مشغولاً بزوجات الرسول.

- غاب: زوجات من؟ أي رسول تعني؟

- حامد: هو درس «ماسينيون» في كولاج «دي فرانس»، صباح كل خميس عن زوجات محمد رسول الإسلام.

- غـاب: وهـل كـان لرسـولكـم هـذا زوجـات كثيرة تكـون مـادة للمحاضرة؟

- حامد: خرافة قديمة حفر عليها المستشرقون، وشهّروا بصاحبها صفحة أخرى من صفحات الصليبية الثقافية.

- غاب: وهل بقيت اليوم بين أهل الأديان المنزّلة حرب صليبية؟ كفتنا الحرب التي خرجنا منها منذ أعوام قليلة.

- الحبيب: أشعل الاستعمار فتيلها بأوطاننا المغاربية، لترسيخ نفوذه السياسي واستنزاف الموارد الاقتصادية في اطمئنان. ورام أن يتوصل لذلك بالاستلاب الثقافي، من تنصير ديني ومسخ لغوي ومن تزييف لصفحات التاريخ.

- حامد: ودرس زوجات الرسول هو إحدى محاولات هذا التزييف يسعى إلى زرع الشكوك «العلمية» في رمزية الرجل المرجع، رسول الدين، ومؤسس الدولة، واضع الخط الأول في صحيفة الحضارة الثقافية الإنسانية في القرن السابع الميلادي.

- غاب: لا أفهم مضمون هذا التزييف لقيمة الرسول وعلاقة ذلك بزوجاته؟

- الحبيب: اللعبة بسيطة، جاء القرآن بتطوير نظام الأسرة السائد يومئذ بجزيرة العرب وبالإمبراطوريات الفارسية والرومانية وغيرها. فقضى أن لا يقترن الرجل بأكثر من أربع زوجات اقتراناً شرعياً. واشترط لذلك تحقيق العدل بينهن من جانب الزوج، ونبهه أن العدل عسير وفوق الاقتدار، ونصح الاكتفاء بواحدة.

- غاب: أعلم ذلك، ولكن ما دخل رسولكم في هذا؟

- حامد: هو تزوج بأكثر من أربع نسوة، وجمع بينهن في الحياة الزوجية. فتعلقت به من ذلك تهمتان مشينتان: تهمة الشهوانية والنهم الجنسي، وأنه لم يتورع في خريف العمر عن الاقتران بصبية عمرها تسع سنوات، بنت أبي بكر أقرب الناس إليه، والتهمة الثانية أن سمح لنفسه بما حرمه القرآن على أتباعه المؤمنين.

- غاب: بصراحة، أشعر بالحرج والاستنكار أمام مثل هذا الشغف بلذائذ الجسد في نفس نبيٍّ مبعوث لدعوة الإنسان إلى التطهر من ملذات الحياة، والزهد فيها لاستحقاق نعيم السماء.

- حامد: ذلك أحد الفروق الكبرى بين الإسلام والنصرانية، الجسم في نظر الإسلام ليس وعاء الخطيئة، وإشباع لذائذه المباحة؛ ليس إثماً يحرم من نعيم الجنة. الفكر الإسلامي موضوعي ودعوة محمد لا تجرد الإنسان من طينته الضعيفة، المهيأة للخير والشر إذ لو كان له طهر الملائكة لما أطرد من الجنة، طينته هي صخرة «سيزيف» لمعاندة ثقلها المتدحرج خلق الله سلطان العقل.

- غاب: ماذا تقول؟ الحداثة العصرية في مراجعها اليونانية هي التي تجعل العقل سلطاناً في الكون.

- حامد: عشرات آيات القرآن لا تنعت العقل إلا بصفة السلطان بل جعله الإسلام مفتاح الأمانة التي يحملها الإنسان في الكون.

- الحبيب: كشجاعة الثائر «بروماتاي» نفخ في الطينة الخرساء قبساً من نار الإدراك، ثورة للإنسان «الخصيم المبين» في وجه الإله «جوبتار» القاهر.

- غاب: ولكن الرسول - كالسيد المسيح - في منزلة أعلى من طينة سائر الخلق من بني آدم.

- حامد: محمد إنسان، خصَّه الله بالوحي وحمّله الرسالة ولكنه إنسان بشر كمثل سائر البشر يتألم ويحزن ويفرح ويلتذ ويتزوج وينجب الأطفال.

- الحبيب: هل تعلمين أن محمداً عاش مع زوجة واحدة، خديجة، مدة خمسة وعشرين عاماً، تزوجها في الخامس والعشرين من عمره وهي تكبره يومئذ بعشرين عاماً، بعد أن اقترنت قبله برجلين من أشراف مكة. واعتُبر عام موتها عام الحزن في السيرة النبوية، إذ فقدها وفقد عمه أبو طالب في آجال متقاربة.

- غاب: حزنه لم يمنعه من استئناف الحياة الزوجية والتمتع بأكثر من واحدة.

- حامد: محمد كان رئيس دولة اسلامية، بدأ ينشر دعوته الدينية في بيئة وثنية معارضة وسط قبيلة قريش الغالبة في مجتمع مكة، من حولها عصبيات قبلية متفرقة وكان يسعى إلى كسب الأحلاف والأنصار. وتعلمين أن التزوج من بنات الحليف أو المهادن طريقة مألوفة عند الملوك والقواد، هو زواج سياسي الطابع سياسي المقاصد.

- الحبيب: طريقة أفضل من سفك الدماء في ساحات الحرب لتحقيق المقاصد السياسية، فلو تزوج أدولف هتلر من باريسية رشيقة ومن حسناء إيطالية من بنات «فلورانس» وضم إلى حريمه نرويجية لعوباً من شقروات «أوسلو» لكفى أوروبا التضحية بالملايين من شبابها الأبرياء.

- غاب: الكابرال القصير كان يحب الغلمان من طابور «اس - اس».

- حامد: من أطرف ما حصل لي في درس «ماسينيون» أني لمحت في الصف الثاني من المدرج شيخاً متكمشاً في معطف قديم، ورأسه ملفوفة إلى الأذنين بلحاف صوف غليظة، وهو كالنائم يتكئ على عصا من خشب رخيص . فسألته: قل لي يا رفيقي، كيف وجدت درس الأستاذ عن

زوجات الرسول، أجابني بصوت أجش: زوجات من؟ ليس لي بالإناث شأن، أنا جالس هنا أتدفأ قرب السخان.

- غاب: هل وجدتَ مثل هذا الطالب المتدفئ في درس لافال عن فلسفة الطباع؟

- حامد: هيهات، جمهور هذا الأستاذ كأنما جاؤوا يحضرون حفل زفاف! رجال في أفخر البدلات، وحسناوات في أجمل الفساتين وأطيب العطور، لا تكاد تفرح ببقعة بين هؤلاء المتبرجين. يظهر أن بعض دروس «الكولاج دي فرانس» معدودة عند سكان الأحياء الفخمة من المواعيد المستحبة كما كان من قبل شأن دروس «برغسون».

- الحبيب: ودرس المستشرقين الآخرين بمدرسة العلوم الشرقية، كيف وجدتَها؟

- حامد: جافة لم تحرِّك في النفس كوامنها، مدارها على منهجية البحث أكثر من المادة المعرفية. هدف التزود منها النجاح في امتحان آخر السنة. ثم تسقط من الذاكرة كأسماء روافد نهر «لالوار» الفرنسية. قل لي حبيب هل بقيَت لك من دروس الصادقية ذكرى لهذه الأسماء؟

- غاب: أسمعكم تتحدثون كثيراً عن الصادقية، وعلمت أنها من ثانويات تونس القديمة. فما الذي جعل لها هذه المكانة في نفوسكم؟

- الحبيب: منذ ما يقارب القرن من الزمن زودت الصادقية بلادنا بأكبر عدد من أدلة الطريق.

- غاب: أدلة الطريق، ما هذا الصنف من النخبة؟

- الحبيب: ناس يتلمسون الطريق ويؤشرونها بالأمارات كفعل الرائد في مخيمات الكشافة.

- حامد: بل أكثر من ذلك، الصادقية كما عاشرت قبابها طيلة ست سنوات حصادها في النفس من جنس وجودي. تُخرِّج منها إنساناً غير الذي دخلها أول يوم. دروس علي البلهوان مثلاً، زودتني الوعي بذاتي، وأيقظت شروحه لقصائد الشابي حميَّة الإرادة والفعل؛ دروس المسعدي خلعت على خمريات أبي نواس دلالة الشوق إلى المغايرة وإلى السخرية من قعود الزاهدين في لذائذ العيش؛ ولا تزال إلى اليوم تحركني أحزان أبي العتاهية في يوم وداعه لصورة أخرى من ذاته تزود لرحلة الزهد بيوم غناء وشراب هدية من «مخارق» منشد بلاط الخليفة.

- الحبيب: هل تذكر كم شبعنا ضحكاً في درس عبد الوهاب بكير عن بخلاء الجاحظ ونحن نتابع حماقة البغدادي يتجرد من ثيابه قطعة قطعة أمام شريكه المروزي البخيل، حتى أشار إليه قائلاً: لو خرجت من جلدك ما عرفتك.

- غاب: يظهر أن هذا عند جيلكم زاد مشترك زوَّدَتكم به هذه الثانوية.

- حامد: بل صيّرتنا إليه وغيّرتنا في ذواتنا، فجعلت من البدوي الفض مثلي مخلوقاً ثقافياً تسكنه الحيرة، لا حيرة رومانسية عدمية بل حيرة التسلق إلى القمة.

- غاب: صورة من أسطورة «سيزيف» اليوناني يصارع صخرة السفح أبد الدهر.

- حامد: كان وزره الفشل عقاباً له من الإله الأعظم «زوس» على الإثم والعصيان.

- الحبيب: أما جيلنا فما له من إثم يكفِّر عنه كما فعل المسيح، يقدم لحمه ودمه قرباناً للتكفير عن الخطيئة الأولى. رب الإسلام قد غفر لآدم وتاب عليه وما أنزله من الجنة إلا نظيفاً بريئاً مكلفاً بخلافته في الأرض.

- غاب: خسارة إن فقد عقدة الإثم، فالبراءة لا تصلح زاداً للرحلات البعيدة؛ ولولا غواية «هيلدا» ما كان «سلناس» يبني الصومعة القاتلة في أدب الكاتب «إبسن».

- حامد: يبنيها ويسقط من عليائها فيموت.

- غاب: ولكنه قبل ذلك رام وأراد. وهو يعلم أن كل بناء يتصاعد إلى النجوم ساقط لا محالة، كما قال على لسان «براند».

دارت الأيام دورتها، حبلى بحصاد الدروس، وقاربت خاتمة موسمها الأسابيع، وحامد يغرف منها بلهفة العطشان وتزوّد المفارق القريب. وتقاطرت من البيت رسائل هالة، متطلعة إلى موعد العودة وليالي الوصل. وتباعدت عشاوات اللقاء مع غاب، بمبادرة منها، وكأنها خشيت أن يملها وقد أحاط بأسرارها كلها وأن يستنكف من الموائد البائتة يصيبان منها على غير جوع، ورفضت أن يجمعهما الفراش في المواعيد المألوفة من ليلة الأحد. كمن يرتاد قداس الصباح من غير إيمان، لأنه في عرف أهل الحي، موعد مألوف. وأمسك حامد عن ملاحقة رفيقة السرير، صوناً لذكريات ليالٍ صاخبة، محفوظة في الركن المختوم من الذاكرة. فمن القمم، في تجارب الذات ما لا تُدرَك ذروتها مرتين، ومن ليالي العمر ما لا يتجدد فجره ضياء أبلج كالضياء البكر.

خرج ذات صباح يتمشى وحده على ضفاف النهر، وقد تزينت باريس بضياء شمس هادئة، يغدق على الوجوه نسمات الربيع وتفيض الدور بساكنيها على الحدائق وأرصفة المقاهي، فكأنه حفل موعود للناس جميعاً، لقاء عرس يشع في الأعين بريقه وعلى ورق الشجر وحجر الحيطان وزجاج المتاجر. سار يتلهى عن هواجس النفس، يتصفح عناوين الكتب المعروضة في صناديقها على الرصيف. كان بحاجة إلى أن يخلو إلى نفسه بين زحام المارة. يتدبر أمره وما بات يدب في الذات، يدفعه

ولا ينكره يصبو إليه ويخشاه. مناظرة بين ضفتين، كضفتي نهر «السان»... الفجوة تنساب والبعد قريب، ضفاف الواجب هناك يرتسم عليه جبين عيشة وحصان رؤيتها والبسمة الهادئة على ثغر هالة، وضفاف الغنم الحاضر المتاح هنا وفي بعض الجوانب من النفس دبيب الحنين إلى رحيق الثغر وقوارب السفر مع الشوق بلا حقائب ولا متاع. أشرف من الجسر على مياه النهر تتدافع ألسنة الموج الهادئ تلحس حجر الرصيف. فبعث في الذاكرة المقطوعة من قصيدة «قيوم أبو لينار» عن جسر «ميرابو» فأنشد يترنم:

كمثل هذا الماء الحب ينساب　　　جارياً مع السيل ويغيب
تنقرض الأيام والأسابيع تزول　　　فلا لزمان مضى يوم يعود
ولا أشواق الحب ترجع وتؤوب

وكأنما كان بحاجة إلى قرينة تأييد، يستنجد بها لإثبات حقه في هذه الفرحة المهداة، ولتبرئة النفس من عقدة الإثم وتهمة الهروب، فحضرته صور الشقة التي قاده إليها جاره مصطفى، يوم بات يعاني انتفاخ الأمعاء جراء شحوم الطبخ في وجبات مطعم ١١٥ سان ميشال، شقة فاخرة لطبيب تونسي، مسكنه وعيادته بعمارة فخمة من شارع كليشي. حياته، كما بدت لحامد، أريكة جلد وثيرة، مفروشة بعناية زوجة مليحة من بنات «نورمانديا»، من حولهما بنيَّة لعوب؛ عيش منتظم مريح لا عوجٍ فيه ولا مباغتة، كورق معزوفة موسيقية؛ ناس نكرة بين ناس، لا جذور منغِّصة، ولا حرية يعوقها واجب؛ الواجب! ما الواجب في مجتمع الوفرة والنجاح؟ أليس الواجب أن تستكمل لإنسانيتك منزلتها وأن تفوز ببقعتك التي أنت جدير بها وسط هذا المجتمع بالذات. سألته «هلان» زوجة الطبيب: من العاصمة أنت من مدينة أم من الريف؟

- حامد: بدوي من سهل القيروان، يا سيدتي.

- هلان: أه، القيروان، مدينة جميلة، زرتها مع كريم مرتين، حرُّها شديد. أعجبني فيها الحوض المدور خارج الأسوار، وكذلك صومعة الجامع، كأنها برج لثكنة عسكرية.

عادت الصدارة في خواطره لجامع عقبة، ولفسقية الأغالبة، ومنها قفزت الذاكرة إلى زياتين العضلة ومراح الحوش في سهرات الأنس بين عيشة والخضيرية. ونسي النهر والضفتين، و«ميرابو» وجسره. سأل حامد، يخاطب مصطفى وهما في عربة الميترو عائدان إلى الحي اللاتيني: هذا الطبيب من أي بلد هو؟

- مصطفى: من مدينة تستور جهة باجة بلاد القمح والحليب.

- حامد: موطن هجرة قديمة من زمان الأندلس، أليف ظعن وفرار.

- مصطفى: قد يكون الفرار ضرورة مكرهة، ثم إن عيادته مقصد الطلبة المغاربة والعلاج فيها مجاني.

- حامد: لكل خطيئة ظروف تخفيف.

- مصطفى: لو درست الطب مثلي لتعلمت التريُّث في الحكم قبل إمعان الفحص والترجيح بين عوارض المرض.

لفت سمعه كركرة محرك يتردد بين أقواس الجسر، ثم برز قارب نقل طويل، يجر وراءه عبارة عريضة عليها أكياس من فحم وخشب المواقد، وتتوسط ظهر القارب حجرة ملونة، على نافذتيها محابس زهر معلقة، وبرزت من الحجرة امرأة كهلة هيفاء، أقبلت تنشر على حبل ممدود قطعاً من غسيل الثياب. تساءل حامد وهو واقف يشيِّع القارب ببصره: هل ترى هذه المسافرة تحن إلى أرض قرار، في بيت ثابت من حجر، حوله حديقة زهر وعشب ترقبُ فيها من شباك المطبخ طفلة تقفز على حبلها؟ أم أن

الظعن بين الضفاف الرطبة هو عندها ضرورة عيش، فتبني بتلك الحجرة الخشبية عشاً لإنسانيتها، عشاً موقوتاً دوماً بلا نهاية ولا قرار؟

لمست كتفه أصابع يد عريضة، فالتفت، فإذا بالحبيب خاطراً بالجسر يتأبط رزمة كتب، بادره يسأل:

- الحبيب: نزهة ربيعية أم مناجاة شوق؟

- حامد: بل تململ سمكة مرجان انغلق شدقها على الصنارة.

- الحبيب: الصيادة بارعة والجوع إلى الطعم... مهلكة.

- حامد: أسقني كأساً، تنسكب بها مع هذا النهر أشجاني، فذاك مقهى قريب.

- الحبيب: مقهى «الكماليون» الجزائري.

- حامد: اسمه كذا، مقتبس من قاموس الزواحف.

- الحبيب: بل من قاموس الهجرة، تركيب تلفيق، اسمه الأول كمال، ثم قضت الضرورة المعيشية أن يتستر تحت اسم «ليون»، فبات منعوتاً عند الطلبة باسم مركب من اللفظتين «كماليون».

- حامد: هل تعلم أن اللفظة يونانية الأصل وتدل على الأسد الجريح يجر رجليه على التراب، وفي الفرنسية دلالتها معروفة تطلق على الحرباء الزاحفة الصغيرة القادرة على التلوّن بلون ما حولها من خضرة ورق أو صفرة هشيم.

- الحبيب: وكذا شأن صاحب المقهى، السعي إلى لقمة العيش اضطره إلى أن يندس في البيئة، ويتشخص لكل حالة بلباس هوية. فهو دوماً في فرار؛ فرار من الذات؛ فاقد لمقومات الوحدة الشخصية.

جلس الرفيقان بركنٍ قرب النافذة، فأقبل كماليون مرحِّباً: عندي واحد الكافي الصافية، ما كائن مثلها قاع.

- الحبيب: متى عزمت على العودة إلى البلاد؟

- حامد: بعد الإعلان عن نتائج فقه اللغة، وأنت ما برنامجك؟

- الحبيب: بقي عليّ تقديم المادة التطبيقية من شهادة تصنيف الخرائط. لا أدري متى أفرغ منها مع الأستاذ «بيار جورج». وقد لا يتم ذلك قبل زفاف الطبيب.

- حامد: أي طبيب، تعني مصطفى، متى ومع من؟

- الحبيب: كنت أحسبك على علم، قرر أخونا أن يملك نصف دينه مع زميلته في الكلية «أليزابث» وأن يتم ذلك في جويليه قبل أن يسافر وإياها إلى تونس.

- حامد: يا لها من غنيمة، أتصور مسبقاً فرحة السيدة تراكي والدة مصطفى بهذه الهدية العائلية الغالية.

- الحبيب: هو الحب يا مولاي.

- حامد: هو مغامرة لهما وللأهل من حول عش الزوجية.

- الحبيب: هل علمت بقدوم فرحات حشاد عشية الجمعة إلى محاضرة بنادي الطلبة؟

- حامد: وهذا خبر آخر أجهله، ماذا يريد منا زعيم قرقنة، أن نقلب جمعية نجم الشمال إفريقيا إلى نقابة عمالية تابعة للاتحاد؟

- الحبيب: ألسنا عمالاً بالفكر، إلى جانب العاملين بالسواعد، على كلٍّ سنعلم يوم الجمعة ما في جرابه، فلا تتخلف؟

- حامد: أبداً، فرصة نادرة كهذه.

كانت محاضرة فرحات حشاد يوماً متميزاً في نشاط نادي سان ميشال للطلبة. وكان لقاؤهم بالزعيم النقابي التونسي مناسبة لحوار صريح بين شباب متحمسين عن بعد، يعيشون قضايا الوطن، مجردة في مضامينها

الإيديولوجية، وبين شاب من سن متقارب لسنهم، يتصارع مع هذه القضايا من قريب، مجسمة في جموع بشر من لحم ودم يتقارع وإياهم مع استعمار استيطاني مسلح ومع صقور رأسمالية عقارية وصناعية مكّن لها في الأرض السلطان السياسي في باريس، وبارك لسعيهم التمديني التنصيري سلطان الكنيسة.

فتح فرحات حشاد للطلبة في تلك العشية المشرقة أبواب الاستشراف والأمل لمستقبل الجهة المغاربية، في صف المناطق الأخرى المولّى عليها بإفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية من جانب الرأسمالية الاستعمارية، وبشّر بأن المعركة التحريرية باتت اليوم وشيكة الاندلاع، معركة سياسية أولى، تعمل على فك الارتباط الاستعماري، وتفسح المجال لإعادة بناء الدولة المستقلة. وأنذر فرحات أن هذا الاستقلال يمهّد للمعركة الكبرى. معركة تحرير الإنسان المواطن من الجوع والمرض. ومن الجهل والكبت، وتفتح للوطن أبواب الاقتدار على إشباع الحقوق الإنسانية كافة للجميع.

وكان مما لفت انتباه الطلبة، مغاربة ومشارقة، في عمق وجدانهم الوطني، ما أكّده فرحات في لغة المرح والجد، أن جيل المناضلين «الداخليين» هم اليوم متجندون في صفوف الأحزاب السياسية والتنظيمات المهنية لدفع ضريبة الجهاد لتحرير السيادة السياسية من التبعية لمراكز القرار في العواصم الغربية، وذكر أنها مرحلة الفوز القريب، في عشرية واحدة أو عشريتين اثنتين، وتبقى المرحلة الصعبة، مرحلة الزمن العريض. على جموع الطلبة، في الجامعات الغربية والوطنية أن يتجندوا لها غداً، وأن يجودوا بضريبة المعركة الكبرى؛ معركة تحرير الإنسان، المواطن، وبناء دولة العدل بين المواطنين جميعهم في الحقوق والواجبات، وبناء الحكم الرشيد، أو «حسن الإمارة» حسب عبارة خير الدين التونسي.

خرج ثلاثتهم من النادي، بعد أن افترقت جموع الطلبة، يتبادلون التعاليق على خطاب المسؤول النقابي.

- حامد: ما لك صامتاً، يا حافظ؟ أليس للمسؤول الدستوري تعقيب على هذه المحاضرة؟

- حافظ: ما كنت أحسب مسؤولاً عمالياً، على مثل هذا القدر من الثقافة السياسية، ومن عمق التحليل لأوضاعنا الوطنية حاضراً واستشرافاً للمستقبل.

- الحبيب: الرجل له حجم زعيم سياسي أكثر من حجم أمين عام اتحاد نقابي.

- حافظ: كنا نحسب الفكر الاجتماعي في الحركة النقابية مقصوراً على المطالب المهنية للعمال داخل الحقل والمؤسسة. ولا يخرج عن مسائل العقود المشتركة في الأجور والمنح وفي العلاقات المهنية وظروف العمل.

- الحبيب: وإذا بنا أمام شيء آخر، في سجل قضايا أوسع آفاقاً وأشمل مضموناً. لذلك فإني أخشى على صاحبنا هذا من أن يصير إلى ما صار إليه سلفه محمد علي الحامي.

- حافظ: أن يتخلى عنه الحزب السياسي في ساعة المحنة فيجابه القمع وحيداً أعزل.

- حامد: أنسيت ما ألحّ عليه فرحات من خصوصية الحركة العمالية التونسية في الربط الوثيق بين الجوانب الاجتماعية وبين بيئتها السياسية؟

- حافظ: هو على صواب إذ إن شركة الشعال مثلاً المالكة لعشرات آلاف الزيّاتين في صفاقس، أو المركب الكيمياوي المستغل لمناجم

الفسفاط في قفصة هي من معاقل الاستعمار السياسي فوق كونها مؤسسات إنتاج اقتصادي. والتميز بين الصفتين من باب الحماقة.

- الحبيب: أراه من جانب الزعيم النقابي تجديداً في الفهم السياسي لطبيعة معركة التحرير. أخرجها من الميدان السياسي المعزول، كما كانت حالها زمن الحزب الدستوري القديم، إلى الميدان الوطني العريض الشامل.

- حافظ: إذ الحقوق في بلاد مستعمرة، كالحرية لا تؤخذ بالتقسيط: شوية حرية نقابية نظيفة من كل شائبة سياسية، وشوية حرية تعبير لجريدة نقابية، شريطة أن لا يصدر بها مقال تشتمّ منه رائحة الانتقاد السياسي.

- حامد: السمة الأخرى للحركة العمالية التونسية التي أشار إليها فرحات هي الانفتاح على الكفاح الاجتماعي في الخارج، في أوروبا وأمريكا. وبموجب ذلك التحق الاتحاد بالفدرالية النقابية العالمية، فأعطى بذلك مقياساً عالمياً للكفاح الوطني التحريري.

- الحبيب: ولكنه انسلخ منها وانضم إلى ضرّتها الغربية في بروكسال.

- حافظ: لم تغب عن الحزب المقاصد البعيدة لذلك الانقلاب، أنت تنظر إليه من زاوية المبادئ الإيديولوجية، ولك الحق ونظرتك صواب. ولو نظرت إليه من زاوية عملية في باب الاختيار بين وسائل المعركة التحريرية لوجدتَ لقرار الاتحاد جانباً غالباً من الصواب.

- الحبيب: منك أسمع يا فقيه المقاصد الخفية.

- حافظ: أرى لذلك الموقف مقصدين اثنين على جانب كبير من الأهمية، الأول في الرتبة وفي الأهمية، فك الاعتزال عن القضية الوطنية مع صون خصوصيتها، وذلك بإدراجها في سجل قضايا تحرير الشعوب المولّى عليها. أحببنا أم كرهنا، فإن الميثاق الدولي المؤيد لمبدأ تحرير

الشعوب المصرِّح بعلوية حقوق الإنسان، إنما أُبرم بمدينة «فيلادفيا» بالولايات المتحدة، ولم يبرَم في موسكو أو بيكين.

- حامد: ولكن الدول الشرقية هي طرف في هذا الميثاق.

- حافظ: صحيح، ولكن هل تعلم لماذا نفض الحزب يده من صف الدول الاشتراكية وتبعه في ذلك الاتحاد العمالي؟ ذلك أن القاعدة الكبرى في السياسية العالمية للماركسية أن إثارة قضايا التحرير الوطني هو انشقاق عن صف الشعوب المولّى عليها وتوهين لمعركة البروليتارية العالمية وأن تحرير الشعوب المولّى عليها سيحصل ضمنياً بحصول الطبقة العمالية على النصر في معركتها التاريخية مع الرأسمالية.

- حامد: يوم تقوم الساعة وينهق البهيم في البحر كما تقول جدتي.

- حافظ: الأهم من نهيق بهيم جدتك هو أن يتم استقطاب أغلب الشعوب المولّى عليها من جانب موسكو. فتصبح القطب المركزي لتجنيد معظم شعوب العالم الثالث ضد الرأسمالية. ويأبى الحزب أن تصبح بلادنا فريقاً مندمجاً في طابور معركة ليست معركتنا الوطنية، وسط أجناس بشرية ليس بيننا وبينهم ذرة مشتركة من مراجع الهوية.

- الحبيب: طيِّب، وما هو المقصد الثاني من انضمام الاتحاد العمالي إلى جامعة بروكسل الغربية؟

- حافظ: مقصد أدَقُّ مضموناً وأبعد مدى، يسعى من ورائه الاتحاد إلى توثيق جبهة التحالف بينه وبين الحزب. حتى لا تكون دولة الاستقلال إعادة بناء لدولة الاختلال الاجتماعي ونظام الليبيرالية الاقتصادية المجحفة.

- حامد: ذاك مطلب عسير إذ لا ترى في العالم حولنا أمثلة كثيرة على النجاح في بناء نظام ثالث، يقوم على التوفيق المقبول بين الجانبين:

جانب الرأسمالية المغالية في قيمة الفردانية المرسلة بلا قيود، وجانب الاشتراكية المغالية هي الأخرى في علوية أهداف المجتمع على إشباع حاجات الإنسان الفرد.

- حافظ: هذه القطبية الثنائية بين جانبين متعاديين هي ظاهرة تاريخية غير قابلة للاستمرار طويلاً.

- حامد: ما نقرأه اليوم عن تطور العلاقات الدولية يحمل على الشك في قيام التوازن بين القوتين الاشتراكية والرأسمالية.

- الحبيب: الذي فهمته من خطاب فرحات أن المعركة وشيكة بيننا وبين الرجعية والاستعمارية. سوف لا تكون باردة وأن جيل المقاومة سيدفع فيها ضريبة دماء ساخنة.

- الحبيب: لا أعتقد أن مئات الألوف من الفرنسيين والإسبان والطليان الذين نبتت جذورهم بأرضنا سيحبكون حقائبهم للرحيل عن طيب خاطر لمجرد أن يعلن فيهم الحبيب بورقيبة أو مصالي الحاج أو علالة الفاسي أن قد انتهت مدة الغفلة، فعودوا إلى أوطانكم سالمين. لن يغادروا أرضنا إلا إن تقتلع جذورهم منها اقتلاعاً.

عاد من كتابة الجامعة ظهراً بعد أن تسلم نظيراً من شهادة النجاح. وبدا له أن يعرِّج على حجرته، ليتخفف من دفاتره قبل اللحاق بالحبيب في مطعم سان ميشال. وما إن جاوز مدخل عمارة «فوجيرار» وأقبل يتسلم مفتاح الحجرة حتى ناولته مدام كساني مع المفتاح برقية مختومة، أسرع بفتحها واقفاً على عتبة الدرج. فإذا هي صادرة عن هالة تخبره بوفاة الوالدة في القرية، وأن خاله الصالح تولى دفنها بجوار قبر الجدّ أسفل صومعة المسجد. سألته مدام كساني: آمل أن لا يكون في البرقية خبر شرّ، إني أتطيّر منها دائماً.

- حامد: بل هو كذلك، خبر بموت والدتي.

تركها تتكلف المؤاساة: المسكينة، ارتاحت من الأسقام وبرد المفاصل، أعاد قراءة البرقية وهو وسط الدرج يجرّ الرجلين، كأنما أصبح عاجزاً أن يتحامل إلى الطابق الثالث. وارتمى على السرير يطلب البكاء من وقْع الفاجعة فما جادت عيناه بدمعة... ضغطت على الصدر غصة باردة كجدار ثلج، دونه حزن مكبوت. وتدافعت في الضمير مساءلات شتى، في اختلاط وفوضى. ما أُخبرتُ بأنها مرضت... جاوزت إلى القبر هادئة بدون مرض؛ هذه الشهادة بالنجاح لمن أبشّر بها سواك؟ ما أفعل اليوم؟ التعجيل بالسفر؟ وأي تعجيل يتيسر؟ القطار إلى مرسيليا ليلة كاملة، ثم الإبحار على باخرة «شانزي» في يومين وليلة. وهل أجد على ظهرها كرسياً شاغراً في موسم عودة المهاجرين إلى أرض الوطن؟ وما الفائدة في التعجيل وقد توارت عني تحت اللحود، ولن أرى وجهها الهادي بعد اليوم، ولن أقبّل جبينها تحت عقصة الشعر. هذه الحجرة ما تراني فاعلاً بكل ما فيها من كتب ودفاتر وغسيل... هل تراني عائداً إليها بعد الصيف؟ وهل في الإمكان العودة، بأي مال؟ نجاحي اليوم كنجاحي الأول محفوف بالكدر مقترن بالواقع الحزين... وهالة، بعد أشهر فراق طويل يعود إليك زوج مهاجر حزين... تمتم بهذه المناجاة وأنامله تلامس صورة هالة عند رأس السرير.

انتبه إلى نقرات خفيفة على الباب، فنهض يفتح فإذا هو مصطفى يقف سائلاً: هل صحيح ما أخبرتني به مدام كساني.

– حامد: هذه البرقية أُرسلت صباح اليوم.

– مصطفى: الله يرحمها، ويصبِّرك أنت على الفراق... هل كانت مريضة؟

- حامد: ما علمت لها من مرض، تركتها في حالة جيدة، امراة كتوم، تستحي من الشكوى، البوح بالألم أو بالحزن كان عندها كالهتك من حرمة الذات.

- مصطفى: كذا طبْع الأمهات، بشر من طينة متميزة... هيا بنا إلى المطعم نصبّ غداءنا، وبعدها ننظر في ما يقتضيه الأمر.

- حامد: الحلق مسدود حتى على البكاء، فكيف ينفتح لطبق المكرونة؟ أعتذر عن ترك المصاحبة، خبّر الحبيب، فنحن على تواعد من البارحة. وخلا إلى نفسه، ولد عيشة، وتمدد على السرير، لا يدري ما هو فاعل اليوم وغداً.

وشعر بدمع يترقرق في العينين، فأكب بوجهه على الوسادة. وانفلق مع اللوعة سيل الدموع. وظل يتخفف بالبكاء ساعة من الظهر، حتى كادت تأخذه غفوة من استرخاء الجسم، بين نوم ويقظة. ونهض يفتح الباب وقد سمع عليه نقرات متخافتة فإذا بالحبيب واقفاً ترافقه غاب. أفسح لها الكرسي الوحيد وجلس الحبيب بجانب السرير، يعانقه كالأخ الحنون.

- الحبيب: لا معنى لمواساة، كل مصاب تحمله النفس على انفراد، ومع ذلك أودّ أن تشعر أننا بجانبك... وقد رأت غاب أن تصاحبني إذ خبرتها في المقهى بعد الغداء، أترككما وأعود بعد حين، أرتِّب غرفتي.

نهض الحبيب إلى الباب وجاءت غاب تجلس بجانبه على السرير وتمسح بكفها على شعره المنفوش، صامتة.

سألته بعد حين: متى تسافر؟

- حامد: أسافر لأقف على قبرها. وقد كنت أمنّي القلب أن ألثم جبينها وأدسّ رأسي بين كتفيها... هي بائتة تحت اللحود من ليلتها

البارحة... وحيدة إلى الأبد... الموت وحده يلقننا معنى الخلود، الفراق السرمد هو أوضح دلائل الخلود. برزخ أوسع من الرجاء.

- غاب: لا موت كالنسيان، خلود من فارقونا، دوام حياتهم في المهج، انتساخ بسمة ثغر في الذاكرة أو بريق حنان في العين. الزمن العريض زمن الفراق. هو صحراء للغياب أو حديقة أنس للمعاشرة.

- حامد: فارقتها طويلاً للدراسة عند جدي بالقرية، ثم في بيت خالي بالمدينة وقبل السفر إلى باريس. أبرمت معها عهداً صارماً، أن أمسح عنها بالحضور وحشة العزلة، وأن أخفِّف من ثقل زمان الرجاء. وأراني ناكثاً للعهد وحاملاً من ذلك عقدة إثم.

- غاب: ولكنه الموت، ما عليك فيه غير زاد الألم.

التفتت إلى الصورة عند رأس السرير فتناولتها بين يديها تتأملها.

- قالت: بسمة الثغرة وصفاء النظرة ينطقان باعتدال في الطبع وثقة في النفس مع قدر من التواضع، هي أختك.

- حامد: هي زوجتي، اسمها هالة، من لفظ الهلال أول بريق ضيائه.

جمدت الحركة في أنامل اليد الماسكة على طاقم الصورة وظلت صامتة برهة، ثم قامت فأعادت الصورة إلى مكانها، ثم ذهبت إلى الكرسي لتجلس.

- غاب: متى كان زواجكما؟

- حامد: أكثر من ثلاث سنوات، قبل القدوم إلى باريس.

- قاب (بعد تردد ظاهر): تزوجتما وبينكما حب؟

- حامد: ولا يزال، هي بنت خالي، تربينا جنباً إلى جنب من عمر الطفولة.

- غاب: هل لكما أطفال؟

- حافظ: أرغمتنا الحرب على أن نرجئ الإنجاب وكذلك أعوام الدراسة.

- غاب: زوجتك صبورة، رضيَت بالوحدة كل هذه الأشهر الطويلة.

- حامد: عهد قديم في مجتمع البداوة، الظعن قد يفرق بين الأزواج أشهراً طويلة.

- غاب: أنت إنسان مثقل بالعهود، عهد لأمك قبل موتها، وعهد لزوجتك مدة الدراسة، فهل عليك عهد آخر تلتزم به؟

- حامد: نعم، لوطني تونس، أن لا أرضى بغيره أرضاً مستقراً ولا لسواه إخلاصاً ووفاء.

أمسكت برهة طويلة، ثم تناولت من الطاولة كتاباً تتلهى بتوريق كراريسه، بأنامل هادئة ثم أقبلت على حامد تسأل.

- غاب: كيف ترى الأمر بيننا بعد اليوم؟

- حامد: لنا مَثل سائر يقول: اليوم خمر وغداً أمر، عليّ اليوم الوفاء بعهدي الأول لأمي عيشة، أن أسافر إلى قبرها فأناجيها وأبثها بما لها عليّ من دين، أراني عاجزاً عن الوفاء به ... وأنتِ ما هو برنامجك؟

- غاب (بعد تردد): كانت بيننا بداية تجربة، حسبت أن من ورائها مستقبلا مّا؟

- حامد: حسبتِ.. إلى ماذا يؤول حسابك؟

- غاب: الآن أراني قد أنزلت إلى الأرض، أبحث لي فيها عن واجب وأعانق منها واقعاً غليظاً.

- حامد: لكنك لم تستهليّ بعد موسم الجحيم، مثل «رامبو» التي ذكرت قولته المشهورة.

- غاب: لست أدري... أستأذنك في الانصراف عسانا يتجدد اللقاء بيننا يوماً.

وانغلق الباب من ورائها، وكان آخر عهد لحامد بها قبل سفر العودة إلى تونس.

خلص نجياً من زحمة الوافدين، نازلين مع سلم الباخرة، يتدافعون بين الحقائب والإصرار وجاوز بوابة الشرطة والجمارك، يتطلع إلى وجهها بين المرحبين ولقيته هالة بين عبوس وحنين، وفي العينين دمع يغشى بريق الفرحة. وما إن خلَت به في البيت بعد تحية والدتها، حتى انفلق الشوق، تضمه وفي الحلق زفرة ما قدرت أن تحبسها. وهدأت نفسه بمشاعر الأنس، وهو على الأريكة الأليفة، يعمر السهرة بحديث متقطع عن معالم المعرفة في باريس، وعن حصاده منها ومن المعارض وروايات المسرح، وعن المكتبات الفائضة بالمراجع، وعن زيارة فرحات حشاد ووقع خطابه في جموع الطلبة.

ومن الغد كان الوصول إلى القرية ظهراً في حماة السموم، وقد أصرَّت هالة على أن تصاحبه، فتقف على قبرها وتقرأ عليها الفاتحة ومن آيات الكتاب. دخلا المسجد وقد فرغ من المصلين عقب العصر. وجلسا أسفل الصومعة بين يدي القبور الثلاثة، قبر الإمام الجدّ في الوسط، وقبر الابن الأصغر عبد الرحمن، وقبرها هي في طرف اليمين. وطفقت هالة تتمتم بالقرآن... وأخذه وجوم أخرس، كعطالة نفسية، مثل الذي انتابته يوم البرقية، في غرفة مبنى «فوجيرار»... وتأمل في المكان، حثوات من تراب مبلول فوق صفائح اللحد، وعند رأس القبر حجر مغروس. قال خاله صالح: سنبني على القبر بعد أيام.

ستضاف حجرات أخرى إلى صفائح اللحد، حجر فوق حجر وعلى جنبات الحفرة الضيقة، ما تحتها ما بقي من فرحة وحزن، ومن حنين

ورجاء، ومن رحمة وابتهال، صاعداً من الأرض إلى السماء. وتنقشع حجب الضياء مع ركعات الفجر. كانت نفسه ترفض الإقرار بنومة أمه هنا، بهذه الحفرة في ظلام ليل سرمد وهي التي مع بزوغ الفجر كانت تبكّر لاستقبال الضياء. كان يرى أن الوحدة تزداد انفراداً والوحشة تعظم لوعتها بسبب الظلمة الجاشمة. الظلمة هي عنده أشد العذاب، عذاب القبر، وعذاب حجب الضياء، فغيابه هو الفناء. فما الحياة إلا نور بالنهار وضياء بالليل. كذلك الحضور، وكذلك الصفة الفضلى من صفات الذات القدسية «الله نور السماوات والأرض» نور على نور، ضياء يشع من زيت الشجرة المباركة. وكم كان يلحظها تتأثر بآيات سورة النور، إذا تليت على مسمعها، حصناً من وحشة الظلام.

جلسوا إلى كسكسي العشاء، فبادر خاله يسأله.

- حامد: ما علمت أنها كانت مريضة.

- صالح: ما أصابها من مرض سوى الإعياء. كانت تشكو إليّ قائلة: عييت يا أخي، عييت من العمر الثقيل. باحت بشكواها، أياماً قبل الموت، كأنما كانت تودع.

- حامد: جنيت عليها بما طال من غيابي عنها، صبياً في دار جدي؛ وشاباً عند خالي محمد؛ وطالباً في باريس. أطيب أيام العمر عاشتها على باب الانتظار والرجاء.

- هالة: كنت أود أن أزورها في عطلة الربيع، وما سمحت أمي تراكي أن أسافر وحدي بلا رفيق.

- صالح: ما ورد ذكركِ على لسانها، يا ابنة أخي، إلا أغدقت عليكِ الدعاء وعلى حامد، راجية أن يرجع إليك زوجك بنعمة الاستقرار وأنس الحضور.

- هالة: العيش في الوطن وبين الأهل كان عندها نعمة، ما كمثلها نعمة، وكان الغياب شراً ما يكدر عليها الحياة.

- صالح: الأم - يا هالة - كالعروة الوثقى، حولها يلتئم شمل العائلة، وبها عمارة الدار، وإلى لقائها عودة كل غائب، وفي صدرها مخزون الرحمة والوفاء وإلى أحضانها يلوذ الطفل الموجوع.

- حامد: هي للإنسان وطن، اللغة الفرنسية تقرن بينهما في اسم واحد: الوطن الأم.

- صالح: وكذلك أمرُنا في هذه الدار. منذ فارقتنا جدتك أم الخير عمَّت الوحشة بهذا البيت، وسكن الصمت، وقد كان يصدح صوتها بالنداء على كل واحد ويصدر الأوامر: اربط الفرس، حط التبن للبقرة، اغلق باب الحوش، جيب التاي والسكر من الحانوت.

- حامد: ما نسيت ذلك الصوت العالي، وقد رافقني في سنوات الطفولة، يوم فارقت أمي عيشة لأول مرة. كانت جدتي الملاذ الحاضر إذا سلط علي جدي صرامة غضبه أو جَلَدَ قدميّ بالفلقة، إن أنا خلطت بين آيات اللوحة. كانت تتصدى له بالعتاب مدافعة عن الطفل «البعيد عن أمه». فلم يكن المؤدِّب الإمام يرد عليها، ويتركها مع غضبها ويلوذ بالجامع.

- هالة: ما أطيب العيش في بيت تصونه يقظة الأم، وتتعهد أهله بلين العطف وصرامة العتاب.

- حامد: منها تحلو الصرامة، وبعنايتها تصبح لكل شيء في البيت دلالة وحرمة؛ ماعون الطعام، وفرش النوم وزرابي الصلاة، ومصابيح الغاز. كان لي فراش بجانب مرقدها. فما كانت تضع على الوسادة رأسها حتى تتفقد غطائي وتنفخ على المصباح.

- صالح: كانت عيشة أحب بناته عند الإمام المؤدِّب، إذا أدناها تسرد من آيات ياسين بين يديه يرفق بها إن هي لحنت أو نسيت. عطفي عليها مذ عادت إلى هذا البيت هو عندي وفاء وذكرى لأيام ذلك العهد.

- هالة: عمي صالح. هل كانت تحدثك عن حالها، وتشكو مما ظلت تقاسيه من غياب؟ هل أوصت قبل الموت؟

- صالح: أختي من الصغر عرفتها كتومة لا تبوح بما في نفسها، لا شكوى تبثها ولا حزناً تبديه. جلستُ إليها عقب صلاة المغرب ليلة فراقها، فأقبلت عليّ بعينين غائرتين، يغشاهما الدمع. فقالت: حامد، يوم يعود من الغربة قل له وحشتني يا كبدي، أوصيك بعشيرتك هالة بنت أخي محمد... وسكتت برهة ثم أردفت: قل لحامد لا تنسَ الحصان.

- هالة سائلة: ما هي حكاية الحصان؟

- حامد: هو عهد بيني وبينها يوم نجحت في البكالوريا. تذكرين ليلة هروبي إلى بنزرت، أبحث عن طريق الهروب إلى فرنسا، أخبرتني الخضيرية، عشيرتها ومودع سرِّها أنها أسرَّت إليها برؤيا أفزعتها وحرمتها من النوم. رأتني على ظهر حصان يركض بي إلى ناحية الجبل متسلقاً لا يلوي، وصاحت بي أن أحذر أو أردفها خلفي، فما سمعتها، ورأت الحصان كالطير يحلق على السفح فوق الديار، ثم رأته تكبو حوافره فيلقي بي على صخرة بين حجر الجبل. تشاءمت من الرؤيا إلى أن عاد الحاج من تونس، فأخبرها أن ابنها هرب إلى فرنسا... فما برحت تجعل من الرؤيا نذيراً توصيني بالحذر في ما أقدم عليه.

- صالح: والدتك يا حامد امرأة مؤمنة رؤياها صادقة وقلبها خبيرها.

- حامد: تلك الرؤيا هي عندي عهد، من ذلك اليوم، واثقتها به. عهد وفاء لها وللوطن والأهل، ولم تكن تفرِّق بينهما؛ بل جعلت من الولاء للوطن والأهل درع وقاية من أن تهرب بي رومية شقراء، كما كانت

تنعتها، فتزوغ بي عن الذات وتطمس عليّ أماراتي. وهكذا يصبح العهد بعد فراقها، تجديداً للوعي بالذات وتمتيناً للرابطة بيني وبين الأهل ومعالم الوطن.

- صالح: كم بقي لك من عام لاستكمال الدراسة.

- حامد: سنة واحدة، بإذن الله. كفى هالة أن أتركها تحمل عني كلفة العناية والإنفاق.

- صالح: والحضور في البيت آخر كل يوم.

- حامد: كأنما كتب عليّ أن أعامل بالفراق من لهم عندي منزلة ولهم عليّ واجب.

- هالة: البلاد - كما علمت - مقبلة على أيام صعاب. إذا عصفت بنا نقمة الاستعمار، فالأجدى أن لا يغيب عن الديار أولادها، وأن تفيد من حصاد العائدين مثلك من الجامعات.

- حامد: لقد أخبرتكِ في رسائلي أني ما تركت كلية الحقوق وترسمت في كلية الآداب بالسربون إلا بقصد الاختصار من مدة الغياب.

اختار حامد وهالة أن يبيتا ليلتهما في غرفة الوالدة عيشة.

تاقت نفسه أن يقف من دار العضلة على أماكن كانت آنسة بشخص أمه، تصلي أو تتحدث إلى رفيقتها الخضيرية أو تلوذ بالقرآن تتلو من آياته. وركب من صباح الغد إلى البيت القديم منفرداً. فدخله على غم ينتابه، وجعل ينادي على الخضيرية. فما سمعَتْ صوتَه حتى نهضت إليه تجر رجلين أثقلَهما طول العمر وأقعدهما فراغ الأيام. ضمته إلى صدرها وهي تخفت: عيشة البية، أختي الحبيبة، عشيرتي الوحيدة. الحوش بعدها خراب وحيطان بلا روح، رحلت عنك وعنا بلا وداع، وتركتني هنا كاليتيمة، الله يرحمها ويجعلني ألحق بها عن قريب.

قادها إلى ركن الصلاة من حجرة سكناها وقد غدت لشقيقه الأصغر وأهله. فجلس وأفسح لها على زربية قديمة، كانت لها فراشاً وسجاداً.

- الخضيرية: يا وليدي، متى ترجع من برّ النصارى؟ غيابك كان من أنكاد عيشة وسبب وحشتي بهذا الحوش، متروكة إلى أحزاني بتلك الحجرة الباردة.

- حامد: تعلمين أنك بمنزلة أمي، وفي مقامها، وأنت اليوم رباطي الوحيد بهذه الدار. لم يبق عليّ من الغربة غير عام واحد. وإذا كتب لي ربي النجاح فسأعود وأخلصك من الوحدة.

- الخضيرية: يا حامد الله يستجيب لدعاء أمك الغالية فتنجح وترجع لنا ولزوجتك هالة تفرح بك حاضراً في الدار كل يوم. فما خُلقَتْ للوحدة ابنة خالك. أما أنا فقد ملّتني الحياة ومللْتُ منها. وكل ما أتمناه أن ألحق بأختي عيشة.

- حامد: وأنا أيضاً مللت من الفرقة، ويزيدني غماً أن غيابي بسبب التعليم حرم أمي حقها من راحة العيش.

- الخضيرية: قل لي، هالة، هل رزقها الله الضنوة الحلال، فمنها عمارة الدار وتخفيف الوحشة.

- حامد: هالة معلمة، نهارها في المكتب صباحاً وعشياً، ولا قدرة لها على العناية بصبي ولا يسمح به وقتها. وإذا رجعتُ من المنفى واستقر بي المقام في البيت، يومها آتي إلى العضلة وأبشرك بمولودها إن كتب ربي.

- الخضيرية: الله يكون في عونها، بنت سيدي محمد الحاكم يرحمه ربي، بنات ها الزمان خير من الرجال. تخدم وتقوم بالدار، أما الذكورة الواحد منهم ما يدخلوا باب الحوش والبخل مكسر له ذراعيه.

- حامد: لولا أن هالة تكفلت بالعائلة ما تشجعتُ على السفر. هي التي تنفق على الدار من جرايتها.

- الخضيرية: الله يبارك لها في صنعتها، وأنت يا وليدي ما تطوّل عليها بالغياب.

- حامد: هي عشرة أشهر وأعود بعون الله وشهادتي في جيبي أباشر بها العمل، ولا أغفل عن زيارتك.

- الخضيرية: إن أبقاني الله إلى ذلك الوقت.

بصر حامد بأخيه الكبير علي داخلاً الحوش، وسمع الداخل صوت حامد فعرَّج يسلم عليه.

- علي: ها أنت جئت، متى رجعت من فرنسا؟ ما سمعت بقدومك.

- حامد: عدت منذ ثلاثة أيام وكنت خبرت هالة، لو اتصلت بها لأخبرتك، ولكنك على ما أرى مشغول بالرزق. جئت البارحة لزيارة قبر أمي، ورأيت من الواجب أن أزور بيت الوالدين وأسلم على أمي الخضيرية، وأن ألقاك أنت لبعض الحديث.

- علي: والله ما علمت بموتها إلا بعد الدفن، الله يرحمها، أين دفنوها؟

- حامد: بجوار قبر جدي، أسفل الصومعة، وقد زرتها مع هالة عشية أمس.

- علي: هالة جاءت، أين هي أسلم عليها؟

- حامد: تركتها في دار خالي صالح، قل لي، هل لك ربع ساعة نتحدث فيها على انفراد؟

- علي: بالطبع الحقْني إلى حجرتي. سأطلب من المرأة أن تعد لنا براد تاي، ثم انصرف إلى حجرته. وعاد حامد إلى الخضيرية يودعها.

فبادرته تقول: الرزق قسموه بينهم بعد موسم الزيتون. ولم يقرأوا حساب البنات أخواتك الثلاث. واحدة تكرّموا عليها ببقرة، والثانية بخمسة نعاج، والثالثة بديقتين زيت. وكتبوا عليهم عند العدل أنهم اتصلوا بمناباتهم من مخلف والدهم الحاج.

- حامد: بارك الله لك في العافية، أخي كعادته لا يخبرني بشيء من التصرف في الرزق. كأني لست من أولاد الحاج عبد الله. على كل أستودعك الله ولك عليّ وعد أن أزورك مع هالة قبل السفر.

خرج حامد من غرفة الوالدين واتجه إلى غرفة بفناء الحوش، مسكن أخيه علي. سلم بصوت عالٍ للإشعار بقدومه. فإذا بأخيه مضطجع على زربية قيروانية عريضة. وبين يديه مائدة مدوّرة عليه طبق لماع يتوسطه براد وكؤوس طرابلسي. أفسح له علي في المجلس وناوله وسادة يتكئ عليها. ثم بادره سائلاً:

- علي: كيف الحال، ماذا عملت في فرنسا طول هذا العام؟

- حامد: عملت الذي سافرت من أجله. نجحت في شهادتين من جامعة باريس. وأنت كيف حالك. كسالف عهدي بك تركض وراء الرزق.

- علي: بالبركة النجاح، أتممت الدراسة أم تسافر من جديد؟

- حامد: بقيت عليّ شهادتان أرجو من الله أن يعِين على النجاح آخر العام، فأعود بعدها للتدريس.

- علي: أنت قرأت للتدريس. كنت أحسبك تصبح محامياً أو حاكماً في العدلية مثل خالك محمد.

- حامد: حكاية طويلة مسألة تغيير وجهتي في الدراسة. أترك الحديث فيها لفرصة أخرى. ومن علامات الأخوة أنك تهتم بدراستي.

وفي هذا الغرض أنا محتاج إلى بعض المال للسفر والإقامة في باريس، السكن غالي والملابس والكتب.

استوى علي جالساً، وأدار وجهه إلى الحائط وأنشأ يقول: يا أخي العزيز، ورحمة الوالد لو كانت عندي فضلة من مال ما بخلت عليك. لو تعرف كم أصبحت غالية علفة البقرات والفرس وكراء الجرار للحرث، وأجور الخدّامة لجنْي الزيتون وحصاد النعمة...

قاطعه حامد: خبِّرني عن محاصيل الزيتون والنعمة وعجول البقرات. هل لك من حساب مكتوب تطلعني عليه، بصفتي صاحب حق في تركة الوالد، رحمة الله عليه.

- علي: تحسبني مؤدباً مثلك، أكتب كل فرنك في دفتر، المسألة مسألة ثقة بيننا، لولاها ما جعلني الوالد مقدماً على الإخوة. يعلم الله كم أتحرى في المصروف. وكم اقتصد في الإنفاق على أهل الحوش، حتى اللحم ما يأكلون منه أكثر من مرتين أو ثلاثة في الشهر.

- حامد: والمطامير قبلة الدار، لا بد أنك تعلم كم أودعت فيها من قفيز قمح وشعير.

- علي: عن أي مطامير تتحدث يا رجل، كلها أصبحت حفراً لتربية الأرانب منذ أن أصبح الفلاح مجبوراً أن يدفع بالمحاصيل إلى ديوان الحبوب ولا يبقى بين يديه غير مؤونة العيال.

- حامد: أشكرك على هذا التقشف، ولكن قل لي، لا بد لك حساب الحلي، حليّ أمي عيشة، جمعته في صرة من خزانة الوالد فوق السدة، مع النقود ودفاتر الشركات، وأمي تنظر إليك مدهوشة صامتة، وأمي الخضيرية هي الأخرى كانت حاضرة تشهد صنيعك.

كاد علي أن يقفز من مقعده على ذكر الحلي، ولكنه تململ وبقي في مكانه، ثم قال بعد الصمت برهة طويلة:

- علي: أنت قارئ العلم يا حامد، وتعلم أن المخلف كله، بما فيه الحلي هو ملك مشترك وقسمة بين الورثة.

- حامد: الذي أعلمه من العرف الجاري به العمل أن حلي الأم يعود إلى بناتها، بعد الموت، وأنت استحوذت عليه وهي حيّة تنظر إليك. طيّب، ولكن خبرني هل لا يزال الحلي، كله أو بعضه، محفوظاً عندك في الخزانة، أم فرطت فيه، وبأي ثمن بعته، وما فعلت بهذا الثمن؟

- علي: كأنه من جانبك يا سي حامد استنطاق قاضي التحقيق، الحلي بعته في القيروان، لتغطية المصاريف، واشتريت منه بقرات متبعات وفرس الركوب بسرجها، وتعمير الحانوت بالسلعة.

- حامد: وما نصيبي أنا ونصيب شقيقتيّ إلى جانب البقرات وسلعة الحانوت؟

- علي: والله لم تترك لي الوقت بهذه المحاسبات الكثيرة أن أخبرك عن قسمة المخلف بين الورثة على أيدي العدل سالم الأحمر، قسمة عادلة حسب الفريضة الشرعية.

- حامد: وما الذي كتب لي ولأخي وأختي من القسمة؟

- علي: نصيبك أنت ونصيب شقيقك الهادي مكتوب في الحجة.

- حامد: هل تستطيع أن تطلعني عليها؟

- علي: الحجة في الحانوت بالقرية، وعلى كل حال العدل سالم سجلها عنده في الدفتر ودفع عليها معلوم النقل، وعليكما أنتما دين من هذا المعلوم، ويمكنك أن تتسلم من العدل نسخة.

- حامد: أمر مضحك والله جئت أطلب بعض المال من مخلف الوالد فإذا أنا عليّ دين مطالَب بدفعه. ما علينا، لا بد أنك تذكر ما يحتوي عليه نصيبي ونصيب شقيقتي.

- علي: بالطبع: أذكر أن الفريضة كتبت لكل واحد منكما أنت والهادي خمسين زيتونة في السانية الظهراوية، وحانوتاً في السوق، وقفيز قمح ومئة كيلو زيت. هذا كل ما أذكر.

- حامد: هذا من كرمك على أخيك. ولكنك لم تخبرني عن نصيب شقيقتي.

- علي: أنت تعلم أن الأنثى لا ترث من مخلف أبيها إذا هي انتقلت بالزواج في غير أهلها.

- حامد: هذا قرآن جديد، آيات أخرى لم ترد في سورة النساء. هل ترضى بمخالفة أحكام الشريعة وأنت رجل مصلي وناوي على الحج؟

- علي: دعني من أحكام الفقه، العرف في بلادنا يحرم الأنثى من الميراث حفظاً للرزق أن يخرج من أيدي أهله.

- حامد: ولكن شقيقتي وشقيقتك قد زوّجهما الوالد في بني عمومتنا وهم من أهلنا. ومتى كان العرف يبيح مخالفة القرآن؟

- علي: لا تغمرني بعلومك في الفقه، أنا أتصرف بما يتصرف به الناس. عائلة الطالب صالح، وعائلة النفاتي، وأبناء العلاني، لا أحد منهم قرأ للأنثى حساباً في قسمة الرزق.

- حامد: كرهط بني إسرائيل المذكورين في القرآن، يعملون ببعض الكتاب، ويتركون بعضه مما لا يخدم مصالحهم، على كل الأمر أمرك وأنت غداً محاسب على اتباع العرف ومخالفة القرآن.

- علي: معاذ الله أن نكون من بني إسرائيل، إنما نعمل بما وجدنا عليه آباءنا من السلف الصالح.

- حامد: وهذه معصية أخرى، إذ كان المشركون من قريش يردون على دعوة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، بأنهم وجدوا آباءهم على أمة، فهم على آثارهم متبعون.

- علي: اشرب من كأس التاي لا يبرد.

- حامد: أستودعك الله، وأسأله أن يغفر لك ما تقترفه في حق أهلك.

وألحّ على أن يستبقيه للغداء، ويذبح لذلك خروفاً فاعتذر حامد، وعرج على الخضيرية يسلم، ثم ركب عائداً إلى دار خاله في القرية.

يخاطب حامد رفيقه محمود، أمين عام نقابة التعليم، وهما خارجان من اجتماع بدار الاتحاد العام التونسي للشغل، في نهج سيدي علي عزوز، وسالكان مع نهج الكنيسة صوب جامع الزيتونة، يقصدان مطعماً مألوفاً تحت صاباط سوق الفكة:

- حامد: تجربة عجيبة أحياها اليوم بين صنوف العملة في الاتحاد، ما سبق لي مثلها في واقع العيش ولا قرأت عنها في دروس الجامعة وبطون الكتب.

- محمود: ما أنت إلا في بداية الطريق. دار سيدي علي عزوز مدرسة تبث المعرفة، لا كالعلوم في فسحة المدارج. هنا تقرأ، وتطبق في الحين. وقد تعيش التجربة حامية عاصفة. تعصر على القلب، ثم تتدبرها في سلالات مخِّك. الواقع قد غدا بأرضنا في تسابق عنيد مع الرأي، لأن مفاتيح الاستشراف ليست بأيدينا والمستقبل الذي نريده لا نملك آليات تحقيقه.

- حامد: هنا أدركت أن الزاد المسبق من الأفكار يفتضح فقره في كل ساعة يتجابه فيها مع الواقع الصلد. التحقت بالاتحاد متردداً، أتوجس من اختلاط ثقافتي المكتبية عن معركة البلوريتارية الكونية بحقارة مسائل الأجور ومنحة الساعات الزائدة. وتساءلت عن هذه القضايا المهنية في محدوديتها الظرفية وفي نسبتها التونسية، أي صلة بينها وبين المفاهيم الكونية المطلقة لحرب الطبقات المتنازعة على السلطة الاقتصادية بين الرأسمالية الليبرالية وبين القوى الاجتماعية التحريرية؟

- محمود: اختلاطنا بالحركات العمالية في ألمانيا والسويد كشف لنا عما في الحركات العمالية اللاتينية بفرنسا وإسبانيا وإيطاليا، من طغيان المفاهيم النظرية، وضعف النزعة التجريبية.

- حامد: ما رأيته في اجتماعات الهيئة الإدارية، لا يزال يثير عندي الاستغراب.

- محمود: ما الذي دعاك إلى الاستغراب؟

- حامد: أمور كثيرة. أدركت من خطاب حشاد بنادي الطلبة في باريس أن التكامل بين الجانبين السياسي والاجتماعي في برنامج الكفاح الوطني العمالي، اختيار سديد ومعقول، وما فشلت تجربة محمد علي الحامي في العشرينيات إلا للافتراق بين الجانبين.

- محمود: تلك من أكبر أخطاء الحزب الدستوري القديم، فوّت عليه وعلى القضية الوطنية فرصة بناء الجبهة الكفاحية العريضة لتوفير آليات النجاح في المعركة. طيِّب هذه الأولى، وهات غيرها الأخرى من دواعي استغرابك.

- حامد: بصرت بأستاذي المبرز من جامعة السربون جالساً بجنب أمين عام نقابة حمالة الرصيف، وكأنهما زميلا دراسة يشتركان في الرأي، وبينهما ألفة التوافق.

- محمود: وما العجب في ذلك وهما يشتركان في عضوية الهيئة الإدارية؟

- حامد: العجب أن أقرأ على الملامح أمارات الانسجام، كأنما زالت المسافة الفكرية بين الرجلين وأصبحا من صنف ثقافي واحد. فكيف يتيسر لمشاعر التناصر في القضية الوطنية أن ترحل بكل ما في الحياة الشخصية من خصوصية؟ فالأستاذ من أبناء المجتمع الحضري بإحدى مدن الوطن القبلي، مسيرة حياته قضاها في معاشرة الكتب، وبث المعرفة في المدارس ومدارج الجامعة. وإذا عرض له أمر يتبادر إلى ذهنه الجانب الثقافي النظري. أما جليسه ولد الصحراء، فثقافته من زاد المعاشرة بين أقرانه من حمالة الرصيف، وزاده من طبائع عشيرة البادية الشحيحة القاسية، وشغفه مسكون بتحقيق الضروريات المعيشية.

- محمود: دع عنك هذه الموازين النمطية تصنف بها الطباع. فهي من بنات تكوينك المدرسي سترى أن في جموعنا النقابية أصنافاً بشرية يعسر على فكرك إدخالها في قوالبك المنمطة.

بلغ بهما السير إلى باب المطبخ، وكانت الموائد الخارجية مشغولة فوقفا يتطلعان. وبادرهما صاحب المطعم في إزاره الأبيض مرحِّباً.

- عم مختار: على السلامة سي محمود، مرحباً بك وبرفيقك الجديد.

- محمود: رفيقي هذا من بلاد الكسكسي بالمسلان. حامد من الطلبة جاء يجرب معارفه في دار الاتحاد.

- عم مختار: مرحباً بك يا ولد النعجة والزيتونة... اليوم عندي كسكسي بالمناني مجلوب حوته من بحر البيبان، قرب بلادك جرجيس، يا سي محمود.

- حامد: المناني، هل بقي منه رأسه، أحمر القشرة سمين الأحناك؟

- عم مختار: أرى أنك من العارفين في حوت المناني والجغالي، لحمة الراس أطيب قطعة مع الكسكسي... أحضر لكما بقعة البرة... بعيدة عن طاولة الشلبة في الركن الأيمن.

- محمود: اليوم أيضاً بعثوا لك بحوت الشلبة.

- عم مختار: إذا كثرت اجتماعاتكم في دار سيدي علي عزوز، وتعدد المشاركون من داخل البلاد، تتوفر الشلبة في المطعم وفي مقهى القشاشين.

وجلس الرفيقان على انفراد، وجيء بطبقين من أطباق نابل، مكوَّمين بشبعة من الكسكسي المذهب، تعلوها خضرة الفلفل وحمرة الطماطم والزبيب المنثور من حول راس المناني، أوداجه منفرجة عن أسلاك لحم أبيض ونابت المعالق عن بيانات الحوار، وغرقت في قعر الجفنة مشاغل الهيئة الإدارية.

- حامد: ما حكاية حوت الشلبة في مقهى القشاشين وأنت لا تجد فيها غير فنجان القهوة التركية؟

- محمود: هي إشارة إلى أعوان الشرطة السرية، يتسللون إلى الأماكن العامة القريبة من دار الاتحاد، خصوصاً إذا حضر من داخل البلاد أعضاء الهيئة الإدارية. وكان الاجتماع كاليوم برئاسة فرحات. فقد أصبح هذا الشاب القرقني الضحوك فزاعة هلع عند السلط الاستعمارية.

- حامد: غريب أمر هذا الرجل، وغريب مصيره، ولد صياد حوت من قرية فقيرة، في جزيرة جرداء منقطعة، لم نعرف عنه أنه تخرج من مدرسة ولا معهد، يبرز على حين غفلة في المجتمع النقابي، فتتوطد منزلته الشعبية في أعوام قليلة، يعزم على إنشاء منظمة نقابية ثورية، فيجد السند من أبرز علماء الزيتونة، سليل عائلة برجوازية من أعرق البيوت العلمية، ولا تلبث أن تصبح المنظمة العمالية قبلة القوى الوطنية المقتدرة من

العمال بالساعد، والعاملين بالفكر. وإذا هي في أقل من ثلاث سنوات السند الأول للحزب الحر الدستوري.

- محمود: هذا الرفيق الهادئ الباسم يتميز بقدرة عالية على تجميع العزائم المتفرقة وعلى صهرها في مشروع وطني شامل.

- حامد: مثل فرحات يرفع من سقف المسؤولية عالياً لكل من يترشح لخدمة الشأن العام، ويرسم لحمل الأمانة كرّاس شروط صارمة.

- محمود: ما النجاح إلا من إنسان، منا نحن، ومنا الخسارة والفشل. فلو لم يجهض فقهاء البلاط مشروع الإصلاح الذي أسسه جماعة خير الدين عندما أصدروا عام ١٨٦١ أول دستور ديمقراطي في الوطن العربي، ما كانت تونس تبقى إلى اليوم في مستنقع العالم الثالث، فريسة الجهل والفقر والاستبداد.

- حامد: من جسمها المنهك، جسم هذه الفريسة، يولد شاب صادق العزم، طاهر المقاصد، على رأس كل فترة من زمن الخذلان، يهب للإنقاذ، فتنتشر ألوية الملحمة، وتقوم المعركة بين الرواد الزاحفين على القلاع الخربة وبين جحافل القعود والاستكانة.

- محمود (ضاحكاً): هل يأتي المنقذ القادم من سهل القيروان؟

- حامد: أو من سواحل عكارة؟

نهض حامد قاصداً المكتبة الوطنية بسوق العطارين، فصادفه بباب الدار العتيقة صديقه حافظ، يتأبّط حزمة كتب ودفاتر.

- حافظ: أهلاً يا ابن السهول الجدباء. ما فعل الله بك منذ عودتك؟

- حامد: أديت واجب الأحياء والأموات. وها أنا أختار اليوم أن أخوض تجربة فكرية جديدة. فالتحقت بجامعة التعليم في الاتحاد العام

التونسي للشغل، وصباحي اليوم قضيته بدار سيدي علي عزوز أشهد اجتماع الهيئة الإدارية.

- حافظ: ما الذي جاء بك إلى المكتبة في مثل هذا الحرّ السموم؟

- حامد: كلفني أستاذ تاريخ الأدب بمدرسة اللغات الشرقية أن أقوم بتحقيق مخطوطة ابن الخطيب الأندلسي، المعروفة باسم الكتيبة الكامنة فيمن لقيناهم من شعراء المئة الثامنة. جئت أطلب المخطوط.

- حافظ: يا ابن العم، قسم المخطوطات مغلق منذ أسبوعين. دخل في عطلة الصيف، الثقافة في بلادنا لا تطيق الحر، فرت إلى شواطئ جربة والحمامات.

- حامد: يا للمعاكسة... ماذا أقول للأستاذ، وهو يعتقد أن المخطوطة الوحيدة موجودة في تونس؟ الله يهديهم.

- حافظ: كل بلاد وطقوسها في العمل، يا رفيق السربون، نحن، بلادنا موطن الاقتصاد في الجهد، نبذل منه في الأسبوع والشهر نصف ما يلتزم به العامل الياباني ويجود به الصيني.

- حامد: وأنت جئت تطلب ماذا في مكتبة عمومية عاطلة؟

- حافظ: جئت أبحث عن بعض مراجع المناقب الصوفية، في الجريد والقيروان وتونس العاصمة.

- حامد: هل أصابك مسّ من حرارة التقوى... وعزمت على هجرة ملذات الحياة وأطلقت اللحية وارتداء بدن الصوف وأصبحت من أتباع سيدي محرز بن خلف؟ الله ينفعنا ببركتك وببركة متصوفة الجريد.

- حافظ: ليس في الأمر لحية ولا بدن صوف، كتب المناقب التي أبحث عنها هي قسم من أدب التاريخ، عُرفت بمدوَّنات المناقب، تتحدث عن أهل المكاشفة.

- حامد: كانوا جنود الخفاء، يجمعون بين العلم والدفاع والتربية. فهل بقيت من هذا الصنف البشري بقية لهذا العهد. أم انقطع نسلهم وتزيفت أعرافهم.

- حافظ: أخوك لا يمارس التاريخ لتقديس الذكريات ولكن دعنا من هذا، خبرني هل اتخذت احتياط العودة إلى باريس آخر أوت؟

- حامد: لا تذكرني. «في ها الدجاج نريشو» منذ أسبوع في الدار.

- حافظ: لا بد أنك فرغت من التريش، فما هي المشكلة؟

- حامد: أخوك جبان أمام المشاكل، مثل النعامة، إذا كثرت أدفن الرأس بين الوسائد، الدراهم من أين مأتاها، كلفة السفر وفلوس الإقامة، وثمن الخبز والمكرونة، وفراق الزوجة، والهروب من التطوع للعمل في الاتحاد...؟ هل أزيدك؟

- حافظ: على مهلك، لا تعقِّدها وهي بسيطة. هات نبدأ بأيسرها في نظرك.

- حامد: البداية، قبل مشاكلي الدرهمية هي برّاد تاي في مقهى سوق الترك. مع حلّاب ماء من شربية نابلية. فهيّا بنا إلى السطحة العالية.

جلس الرفيقان على أريكة مفروشة بالحصير، وقد خلت لهما سطيحة المقهى. وجيء ببراد التاي الأخضر، وبشربية الفخار تتقاطر جنباتها عرقاً.

- حافظ: قبل كل شيء، الزوجة هل تعترض على الفراق سنة أخرى؟

- حامد: بالعكس، هي التي تحث على أن لا نقطع المسعى في نصف الطريق.

- حافظ: هذه واحدة، بنت أصل وزوجة شجاعة.

- حامد: هات الثانية.

- حافظ: الثانية منك أنت، في خاصة نفسك، هل لا تزال على عزمك الأول، للوفاء بالعهد الذي قطعته لوالدتك؟

- حامد: رؤيا الحصان... وقفت على قبرها بعد العودة من فرنسا، وسألت خالي عن آخر أيامها، وما تكون أوصت به قبل الفراق. فأخبرني أنها أوصته: قل لحامد لا ينسى الرؤيا.

- حافظ: أرأيت. كلمات وجيزة. ذكرى للعهد الغليظ بينكما. لم تبق عليك غير شهادتين لاستكمال الإجازة. وكما فعلت السنة الماضية، فأنت قادر على أن تفوز بهما في سنة واحدة. القضية الأصل تكمن هنا في مخك. إرادة وعزم أو انخذال وتسويف.

- حامد: والدراهم للإنفاق سنة كاملة، هل أستخرجها من مخي؟ الطاس فارغ يا ابن العم. طاس المخ وجيب السروال.

- حافظ: هل أعدت المطلب لقرض الشرف من إدارة التعليم؟

- حامد: فشلي في السنة الماضية زهّدني في محاولة ثانية. رفضت الملف لجنة المطالب، لأن أحد أعضاء اللجنة قال عند النظر في مطلبي: إن هذا الشاب غير صالح للتعليم العالي.

- حافظ لا عليك، أستاذك هذا لا بد أنه من عيون الشرطة، بادر بتجديد الملف، فإن لي من بين أعضائها الفرنسيين زميلاً يسارياً سأطلب منه مساندتك.

- حامد: مبرة من مبرات الأخوّة. أحفظها لك.

- حافظ: دع عنك التقريض. فما جلسنا على الأرائك الخشبية ست سنوات في الصادقية وتقاسمنا الماء والملح وشبعنا من مكرونة عم حسن، إلا لنصبح عائلة واحدة.

ضحك الرفيقان لهذه الذكريات الفكهة. وقد كانت من أطيب دواعي المرح في رحاب الصادقية.

- حامد: رحمك الله يا خير الدين، هذه من فضائل خدماتك الباقية مع تعاقب الأجيال. بنيت لنا مدرسة أردتها سند تعصير للتعليم الزيتوني، فإذا هي بعدك أوسع من ذلك مقصداً، وأعمق جذوراً وأطول ثماراً. في مراحاتها الضيقة، وعلى مقاعد فصولها المتراصة، يحصل التعارف وتنشأ المودة بين ولد الفلاح من ريف الكاف وبين ابن البيوت العريقة في قصور المرسى.

- حافظ: هل أصفق لهذه الخطبة المنبرية؟ خذ لك جرعة تبلّ بها ريقك، واترك خير الدين ينعم بالخلود في مقابر اسطنبول. مبرة خير الدين هي من خصب أديم هذه الأرض المشبعة بالأنوار. ما كان لمثل خير الدين أن يولد بأرض غيرها، ولا ابن خلدون، ولا الحصري ولا الشابي وابن رشيق، ولا حتى أخوك حافظ ولا فخر.

- حامد: آمنت بعبقريتك يا سليل أرض الشعراء ودقلة العرجون. عد بنا إلى أرض الدراهم وزاد السفر.

- حافظ: كن واثقاً من حصول القرض الشرفي. قل لي هل يمكن أن نتشارك في الزاد من القهوة والسكر، نبيعها في مقهى الكماليون الجزائري كما فعلت أنت السنة الماضية، فإنه لا أمل لي في خطة حارس ليل بفندق «منبرناس» كما غنمت ذلك السنوات الماضية.

- حامد: على بركة الله، يتزود كلانا بخمسة كيلو من قهوة بن يدر مع ما يتبعها من كيلوات السكر. المشكلة الكبرى هي نقل الحقائب المثقلة بهذا الزاد، والانفلات من عيون الجمارك.

- حافظ: لا عليك سنترافق في السفر، ولي تجربة سابقة مع مشاكل السفر في الباخرة وقطار مرسيليا، والانفلات من عيون الجمارك.

- حامد: قل لي هل لقيت من رفاق سان ميشال أحداً؟ وددت لو أني ألتقي بأخينا الحبيب، لا بد أنه ينعم في المهدية بنسيم البحر على صخور برج الراس.

- حافظ: بل أظنه لا يصبر على حر الهاجرة بآفاقه المألوفة في سهول قمودة، موطن أولاد جلال. أخبرني آخر السنة أنه عازم على أن يفرغ العام المقبل من مسودة الدكتوراه عن جغرافية السباسب.

- حامد: غريب أمره، سنوات طويلة قضاها في دراسة كالمعاشرة. إذا حدث عن سهل الهمامة وقبيلة أولاد جلال تليّن صوته بالحنين كأنما يتحدث عن أهله المقرّبين.

- حافظ: الحبيب، لا يباشر أمراً إلا بالحمية والجود، إنسانيته دوماً مبذولة للآخر، وما يفعله عن تكلُّف... بل بعفوية التطابق بين الظاهر والباطن، هذا الذي يسمونه الصدق.

- حامد: حدثني يوماً عن كنيسة سانت جنفياف في باريس، التي تحولت إلى مقبرة العظماء باسم «البنتاين»، فقال في شيء من الحسرة: هؤلاء أقوام حققوا المصالحة مع تاريخهم، بما فيه من إجرام وأمجاد، ونحن لا نفتأ نلوك مضغة الاختيار بين الأصالة والحداثة.

- حافظ: ذاك شاهد على ما في نفسه ونفوسنا جميعاً من نزوع لتحقيق الاعتدال والمصالحة مع الذات. فهل محكوم علينا أن نكون مثل دون كيشوت، جيل المتقارعين مع طواحن الريح، كأنما كان وجودنا لا يكتمل إلا بخصيم نبارزه، ونسعى إلى الاعتدال ولا نرى امتلاء الكيان إلا في الأقاصي.

- حامد: أي اعتدال يا ابن وطني وأية مصالحة، ونحن جيل الاهتزاز والغضب المتفجر، جيل علي البلهوان وصلاح الدين؟

- حافظ: دعك من النفاق، لا نستطيع - أنت ولا أنا - أن نحيا حياة القردة نقفز كل حين بين الأغصان ونبحث لنا عن زعيم نقتدي به وعن خصيم تكتمل به الذات.

- حامد: الخصيم تعج بفلوله شوارعنا وبنخبهم إدارات البلاد، والمبارزة مع هؤلاء ومع من وراءهم بمزارع أريافنا أوشكت على الاندلاع.

- حافظ: بأي وقود نؤجج للثورة، وبأية حمية. أمن العصبيات القبلية حطب نارها؟ أم من دعوات الإخوانية السلفية؟

- حامد: بل آفاق المستقبل هي زاد المعركة، ورؤياه كما نريد، وتنعقد في النفس أماراته.

- حافظ: مستقبلك هذا لا بد له من ماضٍ يرتبط بعروته الوثقى وإلا فإنه هروب ومخاطرة، وذوبان في الآخر وخيانة مدسوسة.

- حامد: شريطة أن لا يكون هذا الماضي مستنقع اجترار، نعيد فيه إنتاج ذرائع الاكتفاء بالتراث ونصدع بنشيد الفخر، ونرضى بالقعود مع الخوالف.

- حافظ: أرى أن لك خصومة مع التاريخ.

- حامد: فقهاء البلاط وسدنة الانغلاق هم الذين أفسدوا علينا طعم التاريخ والإفادة من تجربة ديمقراطية يوم ثاروا على خير الدين وجماعته وألغوا أول دستور عربي في بلاد عربية عام ١٨٦١. وفسحوا المجال لاحتلال الوطن من جانب الاستعمار الفرنسي بعد عشرين عاماً فقط من مصادقة المجلس الكبير على دستور خير الدين.

- حافظ: أرأيت أن مستقبلك الذي تتوق إليه، لا بد أن ترحل له عبر التاريخ وآفاقه الغنية؟

- حامد: يومئذ يكون قد حان الرحيل على ظهر الحصان، فالآفاق رحبة، أبعد من مجالات السيادة، وأشرف من كراسي الحكم، في المدينة الجماعية أياً كانت سكناها.

فقد حمّت الحاجات والليل مقمر
وشـدّت لـطـيّـاتٍ مـطـايـا وأرحـل

- حافظ: أرأيت كيف أن الشنفرى شدّك إلى عروة التاريخ بلاميته الخالدة والفارابي بمدينته الفاضلة.

- حامد: أنا مؤمن بها إن كانت معظم صفحاته من معدن اللامية تنطق بحمية الغضب وإرادة الفوز والبقاء وتؤصل فينا كمالاتنا الإنسانية.

- حافظ: كمالاتنا هي اليوم في بنادق الثورة بجبل السرج وبأغوار عرباطة.

- حامد: هات ما عندك من أخبارها.

- حافظ: أخبار مقسطة الثابت منها اغتيال ضابط الحمية الفرنسية على أيدي جماعة عم حسن في سوسة. ضربة قاضية من بياع القلوب في مقهى باب البحر.

- حامد: البعض من الثأر لدم فرحات وشاكر.

- حافظ: بل قل إنها الخرطوشات الأولى في المعركة الأخيرة لن تهدأ الثورة بعدها مع الحزب.

«... أقبلت الخضيرية وجلست بجانب عيشة صامتة، لا تدري بأي كلام تصبِّرها. وبادرت أم حامد تتكلم. عساها بالكلام تفرِّج عمّا بها من كربة. وتنفس ما بالصدر من تراكم الأشجان.

- يا أخيَّة، يا رفيقة العشرة، وليدنا، يقول الحاج، هرب إلى فرنسا.

- الخضيرية: يا حفيظ تحفظ، فرنسا يفعل فيها ماذا؟ هذا البر البعيد من وراء البحور... ما هو السبب يهرب من بلاده وأهله؟

- عيشة: هرب من الحاج والده.

- الخضيرية: ما فعل له الحاج؟

- عيشة: نصب النصبة مع أخي محمد في تونس، ودبَّروا فيما بينهم تعيين حامد في بقعة خليفة.

- الخضيرية: وماذا فيها من شر، يهرب منه حامد. يا سعدنا لو يصبح ولدنا خليفة في السوق، يولّي ويعزل، ويحكم بين الناس، والظالم يبعثه للحبس، ما هي خير منها صنعة.

- عيشة: يطمح إلى أعلى من ذلك.......
....»

مركز دراسات الوحدة العربية

بناية «بيت النهضة»، شارع البصرة، ص.ب: ٦٠٠١ - ١١٣
الحمراء - بيروت ٢٠٣٤ ٢٤٠٧ - لبنان
تلفون: ٧٥٠٠٨٤ - ٧٥٠٠٨٥ - ٧٥٠٠٨٦ - ٧٥٠٠٨٧ (+٩٦١١)
برقياً: «مرعربي» - بيروت
فاكس: ٧٥٠٠٨٨ (+٩٦١١)
e-mail: info@caus.org.lb
Web site: http://www.caus.org.lb

الثمن: ١٠ دولارات
أو ما يعادلها

ISBN: 978-9953-82-708-7
9 789953 827087